# إبراهيم عيسى

# ألبوم صور قديمة

قصص

# ألبوم صور قديمة

إبراهيم عيسى

# ألبوم صور قديمة



لمزيد من المعلومات عن الكرمة للنشر: book.com/alkarmabooks

عيسى، إبراهيم.
ألبوم صور قديمة / إبراهيم عيسى - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠١٧.
٢٧٢ص؛ ٢٠سم.
تدمك: 9789776467781
١- القصص العربية القصيرة.
أ- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ١٦٤٩٨ / ٢٠١٧

١ ٣ ٧ ٥ ٩ ١٠ ٨ ٤ ٦ ٢

تصميم الغلاف: كريم آدم
صورة الغلاف لعمر الشريف وفاتن حمامة، ملونة رقميًّا

# المحتويات

# رسالة إليكِ

لماذا أُقدم لكِ هذه القصص معًا بين غلافيَ كتاب وأقول لكِ تفضلي، اقرئيها؟

ما بيننا يسمح بأن أقوم حتى مكتب قلبي وأفتح الدرج المغلق دائمًا وأحمل منه مظروفاً أنزع من داخله هذا الدفتر القديم المثنية أطرافه وأقلب أوراقه. تلمحين أنتِ في زاوية عيني شيئًا ما تقولين عنه حزنًا أو شجنًا.

أُقدم لك هذه الأوراق مكتوبة بخط يدي قبل أن نتعرف على الكتابة على كيبورد الكمبيوتر، وقبل أن نحمل صخرة التكنولوجيا التي يزداد ثقلها كلما خف.

كأن هذه الأوراق ألبوم صور قديمة، تلك الصور التي تحفظ ملامحي في وجه الزمن وتحنط مشاعر كي لا تنمحي أبدًا.

هذه نقوش معبدي يا عزيزتي.

هذه لوحة على جدار عمري أحكي فيها قصص قلبي.

لكل منا قصتان:

قصة قلبه، وقصة ما حول قلبه.

كلما تأملت هذه الأوراق أتمنى أن ألفها بشريط ملون حين أقدمها لكِ.

ليس هناك أغلى من البراءة هدية، صدقيني.

هذه القصص كلها لها بطلة واحدة لم تقم فيها بدور البطولة.

كانت شعاعًا صنعت منه شمسًا.

كانت ندى جعلت منه نهرًا.

ثم أسأل نفسي الآن هل كانت هي حقيقة؟ لا هي ولا أنا كنت فعلًا.

لا يكتب الكاتب في الغالب عن نفسه، بل كتابته نطف منه طبعًا، لكنها تتحول كائنًا آخر فيه منه ولكن ليس هو، من جيناته لكنها تختلف عنه ومعه وتناكفه ويحاول أن يؤاخيها عندما تكبر.

هذه قصصي تحكي عني لكِ يا فاطمة يا حبيبة قلبي.

إبراهيم عيسى

# عندما كنا نحب

# الجزء الأول
# وجه بعيد لامرأة بعيدة

# ولكنكِ لا تظهرين في الشرفة أبدًا

وأنتِ الآن تزيحين ستارًا من البلاستيك المقوَّى الملون المشبوك في عمودَين من المعدن، وتهبطين عارية تمامًا، بقدمك الصغيرة المعروقة برائحة طهور إلى أرض مفروشة بسجاجيد حمراء يقطر فوقها الماء المنزل من إبطيكِ، من عظام الترقوة، في نهد هادئ، جانبا الثديين المهتزين رجًّا، سرة مَلفوفة في تجويف معشوق، حول ردف دقيق لين ندي ناعم، منشفة تجتاز فخذيك عبورًا إلى الساقين، ممشوقتين وخضراوين جدًّا في جفاف أيامنا، ترتدين على عجل هذا الرداء الأبيض ملفوفًا حول خصرك مستندًا بين ذراعيكِ البيضاوين الحليبيتين حين تنشغلين بفك غطاء شعرك وإطلاق سراحَه معبأ بطعم البخار، يترنح الرداء ويهتز وينتفض.. ويسقط، وتعودين في كمول عريكِ، وحين تخرجين من هذا الباب.. لا تكونين لي!

تخيلي!

أسفل تلك الشرفة أقف وحيدًا، أتبع اهتزاز الهواء في جنبَي الشجر الواهن منصوبًا على رصيف شارعك، أرتجف لصوت احتكاك

الأبواب الزجاجية في مجرى الإطار المعدني المجوف، تزحف داخله كأنها تمر في صدري فينتفض كل ما بقي فيَّ من خمود التحمل.

أقف على رصيفي كي أرى طلعتكِ فلا يبزغ فجركِ ولا يطلع نهاركِ.. وفي جوفي يصهر الحديد.

هل ترين الليل في شارعك والبرد نخر في اللحم المهروس بالحنين؟

أنتظر قدومكِ طالعة أو هابطة، بقدميكِ في حذائهما الأسود المنمق الذي يضمَ أصابعكِ في جوربهما المَسمر يحتضن سر خفة المشية وشبوب حضورك وَرشق مسيرك في هذا الفضاء الواسع.. الواسع جدًّا حتى ضيقه على صدري وحيدًا في انتظارك الذي لا ينتهي أبدًا.

وحين اشتد وجعي، أتيتُ بمقعدي الخشبي، هبطتُ به من فوق سيارة الأجرة، وقد فككت الحبل الملفوف حول شبكة السيارة الحديدية، ومنحت السائق أجرته، ورحل تاركًا دهشته في يدي القابضة على المقعد، رفعته فوق الرصيف المقابل لشرفتها وجلست عليه أرقب لحظة مختطفة من غمام أيامي.. هل تمطر سمائي اليوم ذهبًا وفضة؟ هل أراكِ؟

البوابة تقفل وصوت صريرها ومشبك قفلها بالجنزير الحديدي البني يخمش روحي، يؤجج لوعتي، ويغمد نصله الحاد في حلمي النزق المنزوف.

أجلس على المقعد.. يشعل البرد تحتي نارًا ويسكب ثلجه في

أصابعي، أصعد بقدمي على حافة المقعد وأضم ركبتي تحت ذقني وأدفس وجهي في حضن فخذي بينما ألصقت عيني بشرفة مغلقة على غدي.

في ليلة تالية وقد مدد الليل ساقيه في عمري، عدتُ بجهاز التسجيل الضخم بسماعات منطلقة منفصلة، عبأته ببطاريات طاقته، ووضعت فيه أغاني ذات موسيقى تربط حبال قلبي، وبدا الوشيش المبدئي للأغاني، وقد ملأ سماء دنياي كلها، ثم بدأ سطوع الصوت النبيل مرتلًا حبي وعيناي تسجدان عند حافة الشرفة.. ولا يطل أحد.

وأحس بها الآن تمطر شقتها بغناء منفعل وبسمة وضَّاحة، وأصوات متداخلة، ترد على هاتف، تغسل طبقًا، تسقي زرعًا، تفتح نورًا، تطوي غطاء، تنفض غبارًا، تلمع زجاجًا، تفرد كتابًا، تلمح صورة، تربت على كتف، تسمع غناء، تدخل غرفة نومها...

ترتدي ثوبها الأبيض تاركًا لذراعيها حرية الانكشاف، منزويًا عند ركبتيها البراقتين، عاقدة شعرها، مبتسمة في حنوٍّ، مغمضة عينيها في سلام قائم على العدل، وحين تتقلب على فراشها، تحضن وسادتها، تغفو في حلمها...

لا تكون - يا للغرابة!- لي...

هل تراني في حلمها؟

زُرقة طفيفة، رذاذ ملون، ورق ممزق متطاير، ثم انسحاب الضوء نهائيًّا مكتسحًا أمام ظلمة بلا رحمة أطبقت على الشارع الخالي من الناس، حتى السيارات المعطلة والمتوقفة والراكنة اختفت في خلاء

مقبض، واتسعت رقع الليل على ساحة السماء، وكان صوت المغني صاعدًا من جهاز تسجيلي حيًّا - رغم كل هذا الموت - وقرفصتي على المقعد ملمومًا على حسرة تنشر أمعائي، وكي يكتمل الوجود عنادًا، أمطر المطر في عصف دام مدوٍّ أغرق الشارع وملابسي، ومقعدي والجهاز المعدني الكبير مًبلولين جميعًا بالمطر والهزيمة، وكانت الحبات المتقطرة على الوجود تلثم زجاج شرفتها، وتطهر الحوائط والجدران وضوء بصيص مرتجف قادم من نافذتها كأنها الآن تحتضنها الأغطية ويحمر خداها من الدفء الأمين.

وكأنها تنام...

هل تحلم بي؟

لا تحلم بي!

وند في ليلي حلمي، في تلك الوحشة المروعة والزحام المتكالب من الأحزان وارتجاج الخواطر وانهيار الأحلام وانهمار المخاطر... وقلت لأصعد حتى باب شقتها، البواب نائم، والحراس مستدفئون من البرد، والأنوار خافتة والممر خاو، والمصعد جاهز ويمكن أن أتعامل مع قفل البوابة بسلك حاد رفيع أدسه في الفتحة وأديره دورتين فأفتح القفل، وأدفع الباب في هدوء وبرود ساخر، وأتقدم بقدمي في خفوت ونعومة وأغلق الباب في اصطناع إحكام مزيف، ثم أصعد وارتجاجه وصعوده وانفتاح الباب واحتكاك الزجاج، ودق الأزرار والضوء الملقى من شراعته إلى ردهات الطوابق الخافتة...

ستخرج لي...

شعرها مصفف ومُسرَّح، وبنسات سوداء ماكرة تُحكِم استرسال الشعيرات وتضبط تمرد الخصلاَت وتقنن جنون الجمال، وفي عينيها هذا البرق الكوني الشامل في اتساع حدقات تحضن مخلوقات الله - حتى التي لا يرضى عنها الله - وبشرتها بهذا البياض الحليبي تشبه بياض بطن الكمثرى النقية، أتوق لأمرر فوقها سبابتي مرتجفة وملهوفة - يغطيها بلل العشق المنفلت - شفتاها تداعبهما بلسانها الرطب اليقظ، فيظهر لمعان خفيف على الشفتين برضاب مبهر، وترفع رأسها فيظهر سفح ذقنها معانقًا العنق العاتي.. وفي زيها الأسود، بلوزتها المضبوطة على صدر نافر تحتبس فيه عصفورتين من الجنة عن الانطلاق المتهدل، يبزغ الريش الناعم وشبق الطيران المتفجر القلب الممتنع عن التفتت، وهذا الحزام الذي يحتل منطقة تدخل تحت حق ذراعيَّ القانوني والدستوري.. والتاريخي، ثم جيبتها السوداء بخطوط دقيقة رقيقة من البياض الملتمع تنتهي أطرافها عند دوران الساقين وانزلاقهما الرهيف إلى الانغماس في حذائها المنمق.

هل أندفع ناحيتها، وأجثو بكل ما فيَّ من بلل وماء يعصرني، ويكسو لحمي وثوبي؟ هل أرمي بصدري على صدرها وأبكي منهمرًا كانفتاح سد نهر بعد انسداد جفاف، وبهذا القميص المفتوح لتمزق أعلاه، وانخلاع أزراره وانكشاف صدري عن شعيرات قليلة مبلولة، وبنطالي انخلع حزامه وتساقط على فخذي معلقًا في آخر طوق له على خاصرتي، وطين طري يملأ حذائي المقطوع، وذيل البنطال الذي انسلتت خيوطه وتقطع قماشه وانفكت ثنيته وتمزقت في غير انتظام وبلا حدود؟

هل أجري ناحيتها وأنام بين كفيها على وصيد الباب، أغمس أصابعها في شفتيَّ وأدفن دموعي في بطن كفيها وأحوط جبيتها بذراعي مرتجفة ومهزومة وولهانة ومحتاجة.. محتاجة جدًّا.. وأقول لها كل ما يمكن أن أقول ساعتها؟!

ثم أسألها عن سر غيابها عن شرفتها؟

وأذهب معها حتى شرَّاعات النوافذ فأفتحها وأريها مقعدي الخالي على الرصيف المقابل، وأعبث مداعبًا أطراف أذنها، ألصق شفتيَّ بها وأقول لها هل تسمعين صوت المغني صاعدًا من التسجيل؟ هل ترين كل هذه الأمطار التي أغرقت المكان وصوت قرقعاتها حين تصطدم بقاعدة المقعد؟

لكنني ضغطت بإصبعي دقائق طويلة على زر الجرس إلى الحد الذي شككت أن رنينه المتصل المنتظم قد أيقظ سكان هذا الطابق كله، وبعد إلحاح مجنون وغضب موتور، تركت زر الجرس واندفعت إلى باب فأعملت فيه خبطي وضربي ودقاتي بكف نازفة ماء وبرأس معصور بل وبدموع منهارة توشك على الفيضان، أدس جبيني في طيات الباب الخشبية وبصوت مشقوق بالشجن أناديها فلا سمع ولا طاعة.. لا صوت.. ولا رد.

أخور وأعود إلى مقعدي ومَطَري وهزائمي، وأبكي كأنني لن أصمت أبدًا، وأنزع عني زيي وأتعرى من مقاومتي والمطر يغرقني والصمت والسكون والسكوت والوحشة والعتمة والليل القتال. لكن خاطرًا يشق عصا الليل.

وأندفع نحو الشجر الضامر فأتسلقه، وأقفز إلى شرفة الطابق الأول للعمارة، أتشبث بيد مرتجفة وأصابع تعودت من العمل العشق بحافة الشرفة، أمرر كفي على سطح الحافة ثم أحرك قدمي في الهواء باحثًا عن فجوة أو بروز أستخدمه للقفز، لكنني لا أجد.. ولا أهدأ.

أرقب الأرض الأسفلتية تحتي، مُعلقًا وأنفاسي اللاهثة ناحبة ودهشة ومكتومة، أنهض بصدري حتى أوشك على ملامسة حافة الشَرفة، أهمهم وتنقطع أنفاسي، وتُجرح أصابعي وتنزف كفي، ولكنني أصعد فوق السور ناجحًا، أدور بعيني إلى مواسير المياه أتسلقها متغلبًا على خوفي بلهفي، يسقط حذائي ويملأ الدم قدمي وذراعي وتتمزق أطراف ملابسي الداخلية، ويصيبني رعش الحمى الساخنة، ويهتز بدني كله وتتفجر دوائر دم ورقع كدمات ورضوض.. وأجدني عند شرفتها.. بين ماسورة المياه وحافة السور وقد انغلقت واستحكمت، أمد قدمي في انتباه ويأس وجنون، أستدير بها نصف دائرة وفي عنف ضار وعزم مهووس أضرب زجاج الشرفة فينكسر ويتهشم بعضه، فأعوِّد نصف دائرة من الهواء وأدق الزجاج فأكسره مفتتًا متطايرًا، وأسمع صوت سقوطه الرنان على الرصيف.. أقترب بكفي وأقبض على حافة الشرفة وقد تعلق حطام الزجاج المتكسر في كفي فكتمت الآهات المفجعة في لهفة جنون عاشق، وأمر من الفجوة التي صنعَتها ضربات قدمي إلى الشرفة، أهبط على بلاطها، تسقط تحتي قصاري الزروع الخضراء وتترنح الصواني النحاسية الكبيرة التي انغرست فيها جذور النباتات في طمي مسقي بماء طازج..

أعود خطوة إلى الخلف ملتصقًا بظهري إلى السور ثم أدفع بدني

كله إلى شيش الشرفة فينفتح وقد تحطم على الأرض.. جروحي أغرقت جسدي دماء حمراء داكنة ملوثة، الماء يبلل كل جزء من بدني العاري ويهبط منه إلى الأرض في عرق مختلط بالدماء وممزوج بالماء المطير..

لهثي وشعري المنفوش وذراعاي المرتخيتان وساقاي المتعبتان وتعبي المهزوم.. في وقفة وحيدة خالصة.

هل كانت تنتظرني واقفة في ملائكيتها المعلنة بقميص نومها الأبيض وروب صوفي ناعس ودافئ؟!

تأخذني في يديها، تجفف بللي وتمسح دمعي وتغسل دمي وتطيب جروحي وتربت على روحي وتكوي لي قميصًا وتهديني دثارًا وبنطلونًا، وتدثرني وتزملني.

وأستدفئ بذراعيها تضمانني في رفق الحنان الراضي وتضغط على كتفي بذراعيها وتضع رأسي تحت ذقنها وتقول لي:

- أطلت رحلتك وطال انتظارك.

وتخبرني أنها أحبتني طويلاً وأنها تفتح قلبها لي سكنًا، وأنها تريد أن تخبئني في صدرها، وأنها تحب شاربي الكث ونظارتي السميكة وحاجبيَّ الثقيلين وصوتي الزاعق وانهزاماتي الدائمة وفشلي المتلاحق، وأنها تفرح بي وبكل ما أفعله وتطير ألقًا وتهتز طربًا وترتج نشوة حين أخبرها أنني أذوب في هواها وأشتاق إليها، وألهث وراءها وأريد من دنياي أن أمكث عند ملامستها الأرض، وأحلق في عينيها وأحكي لها.. وأبوح.

هل كانت تنتظرني لنفعل كل ذلك؟

كانت الشقة خالية، خافتة الضوء، وكان كل شيء يوحي أنها رحلت!

قلَّبت في أوراقها، ألقيت الكتب باحثًا عن دليلها.

أسقطت المكتب والمكتبة لعل شيئًا مختفٍ.

رفعت الوسائد والمراتب.

فرشت الأثواب كلها على الأرض.

نشرت الفوضى في السجاجيد وأدراج الصُّوَان.

نثرت صور الحائط.

كسرت المصابيح بأعمدتها وزجاجها الملون وشموخها الرتيب، انشرخت المرايات المعلقة!

تحطمت سيقان وأفرع الزروع.

وصرخت في المكان الذي نظمته فوضاي.

وأطلبها فلا تجيء.

أناديها فلا ترد.

ألمس حقائبها، ألثم ثيابها، أحضن قميصها، أدس رأسي في منشفتها، أمسك أطباقها، أُقبل حافة كوبها، أعانق غطاء سريرها، أكور ملاءتها في صدري، أبكي على وسادتها، أرتعش ملامسًا أنفاسها، أنتحب وكتبها داخل حضني، أرفع جوربها إلى شفتي، أجمع أشياءها

كلها وأهبط إلى السلالم.. لكنني أعود مرة أخرى إلى شقتها.

أعيد ترتيب الأماكن وأنظم الأشياء.

وأضعها موضعها الآمن اليومي.

لعلها تأتي فتلمسها وتمسكها وتطل عليها وترتديها وتتوحد البصمات المرتجة بالرجفة العاشقة.. ستعود لأشيائها.

الهدوء نفسه والركون والسكون.

أغلقت الباب.. وهبطتُ.

في الشارع.. فوق الرصيف.. على المقعد.. تحت المطر.. جالسًا.

# ذيل حصان

ذيل حصانها هو أجمل ما أراه في شعرها مع هذه الخصلات النبيلة الموزعة في جبينها، وكنت أحبها دائمًا على هذا النحو، هذا الشعر الساحر في تأثيره على تفاؤلي واكتئابي، هل يمكن لإنسان أن يحدد مدى ما يحصل معه من حزن أو فرح، بتصفيف شعر امرأة؟

أنا كذلك.

كلما رأيتها يومًا بشعرها معقوصًا على هيئة ذيل حصان شعرت براحة وأمن وتفاؤل في الحياة، وكنت تراني مقبلاً محبًّا على أوراقي من مكامن سطوري، وإذا حاولت نسائم غم ثقيلة أن تتسلل تحت قميصي أستعيد هذا الانطلاق العالم لشعرها وأراه أمامي ماثلاً كانفتاح نهر للعبور، وحتى لحظات هذه الكتابة أحس تدفقًا نبيلاً في صدري كأن ذيل حصانها لُون من دمي، وأدفس السؤال - طيلة أيامي - في قلقي الملُح: هل يمكن أن يستمد بشر تفاؤله وسعادته من تصفيف شعره؟ ولا أعرف الإجابة على وجه الدقة (سأتركها للأطباء النفسيين!)، لكن الإجابة الوحيدة التي أملكها أنها حين تعود مرة من لدى مصفف شعر

تحمل على شعرها معالم تدخُّله، وحين أرى شعرها مصففًا على غير ذيل الحصان ووجدت فيه صناعة وعملاً وقصًّا وحذفًا وإضافة وكواء ودقة و...

كلما أحسست كآبة ما في صدري وكانت تسألني - وهي لا تفهم شيئًا مما بداخلي - ماذا بك؟

وكنت لا أجيب.

# سطح يصلح للأحزان

لم أنس رعدة بدنه ورعشة شفتيه وزرقتهما الحارقة في دقة وضمة وتقلص وامتقاع، عيناه تغوصان في دهشة عميقة مهتزة ومرتجة، وأنفه الأصفر الدقيق ضائع في ملامح تماهت وتاهت.

اقترب مني بقميصه المخطط بزرقة وبنطاله الأسود الواسع عند قدميه في صندل جلدي يكشف نحول قدميه وانكماش أصابعه.. عرق خفيف - نحن في الخريف - بشعر طويل منطرح في مقدمة رأسه.

أمسك بأصابعه الناحلة كتفي المتدلية، كنا وقتها هناك في غربة دولة عربية، في مدينة نصف فارغة، ملأى بغربتها وصحراويتها ووشيش موجها القصي، والسيارات النادرة في عبورها، ومجاري مياه بناياتها الطافحة، ومطرها الغزير المتصبب من سماء كحلية، ووشوش ناسها البدوية الغليظة والسمراء الداكنة، وصراخ أطفالهم المندفعين في عداوة العجائز العابرين في الشوارع، كنت أشعر بالغربة قابعة بلا هوادة، تخنق صدري طفلاً صغيراً، ولكنني ماضغًا ليلاً وراء ليل، أرقب عودة الصباح المصري في مدينتي نصف الحضرية، حيث وجوه

الصبا الوارف ودفء العوائل الحار.

أمسك بأصابعه الناحلة كتفي المتدلية، وكنا وقتها في غروب مقتحم يهز الشوارع وشرفات العمارة التي نقطن بها، وكنا فوق السطوح حيث أسوار صغيرة تبرز فجأة - مساقط الهواء والمناور - وسور ملتف يحيط بالسطح كله يحجز ويحتجز اندفاع الطفولة ووثوب الشقاوة وقفز الكرة.. وكنا نضع ذراعينا على حافة السور متشبثين بالرجولة، ونرقب ونحن نخفي رؤوسنا آخر فلول معارك الكرة بين عشرات الصبية وأبناء المدينة - يلعبون طيلة العصر حتى أعقاب المغيب، وشجارهم يشبه لعبهم؛ عنيف وضار وحقيقي، سحبني من اهتمامي بالمباراة الأخيرة في كمون الفرجة وفُضول المتابعة وطموح المشاركة وجموح الحزن على شوارع مدينتي وصبية كرتي، وبدا في ارتعاشه ورعدته وتصلبه عصبيًّا لأصابعه على لحم ذراعي، التفت ملسوعًا بالغضب والخوف الكامن في حفر الجسد.

وباهتزاز وبكلمات مشوشة وأحرف متباعدة يبذل جهدًا طفوليًّا أميناً في إعادتها لوضعها الطبيعي، وغاصت عيناه جدًّا.. وبدت دمعات متكورة تهبط في انتظام الفوضى على خديه.. وقال لي:

- تعرف؟ كنت اليوم في الشارع أشتري شوكولاتة.. عند محل الرجل...

ثم انهمر في انهيار.

حثثته على الكلام.

نفضت ذراعيه من ضعفهما:

- فيه حاجة؟

قل لي.

هل ضربك أحد؟

ماذا رأيت؟

ماذا حدث؟

انطق.

أقول لماما؟

طيب احكِ.

توقف عن البكاء وإلا تركتك ومشيت.

بدل ما تمسك فيَّ هكذا تكلم.

أنا خائف.

هل أنت مريض.

فيه حاجة؟

ثم بدأت أنا أبكي كذلك وإحساس بالخوف يتعاظم مع تعاظم سيطرة العتمة على السطح وظهور بعض الأضواء الخفيفة المتخفية من شرفات مقابلة وتصعد من المناور.

كان كل أطفال الكرة قد جمعوا أشياءهم ومضوا وتركوا الساحة الصغيرة المقابلة لعمارتنا فارغة معتمة، وبقايا أحجار مرامي الكرة باقية.. ساد صمت مقبض.

واشتد بي وَجَل ورعب.

قلت له:

- أنا نازل خلاص.

سار خلفي في استسلام.. عندما فتحنا باب السطح هابطين إلى شقتنا.. وجدته في رجفته يجلس على السلم الرخامي، ويقول لي في حِدة ووضوح واستمرار متعجل:

- دخلت المحل، لم أجد الرجل الكبير الذي أشتري منه كل مرة، كانت الدنيا حر موت ووجدت ابنه الكبير قاعدًا على مقعد وراء الصندوق الزجاجي فاتح بنطلونه وبيضحك.. قلت له وأنا خائف: ((أريد شوكولاتة)). قال لي: ((تعالَ يا حبيبي، ادخل خذها)). مددت يدي بالفلوس وقلت له: ((لا.. هاتها أنت)). جذب ذراعي وأدخلني عنده.. ثم أمسك ببنطلوني وفك الزراير وأخرج حمامته، كانت طويلة ووسخة وكنت بارتعش وخايف يضربني.. وبعد شوية قال لي: ((امشِ.. البس بنطلونك وامشِ)).

كانت يدي مرتعشة وقلبي يدق في قوة ورعب.. وأشعر أن عروقي ستنفجر بالدم، وأحسست كأن جسدي مجمد أو قطعة من صخر بارد ثلج.. واهتزت كل ملامحي.

وجريت تاركًا إياه على السلم مسحوقًا ووحيدًا في نذالة أولى من نوعها وتخلٍّ بشع وانخلاع عن كل صداقتي وقوة حبي له - في ليل غربة متضامن - ودخلت إلى أمي عابرًا الردهة في سرعة خاطفة،

صرختْ لما وجدتني مفككًا ومرعوبًا ومحطم الأعصاب، لمتني في حضنها.

## تنزع قلبي من مكمنه.. وترميه

أكان ((لا بد للغياب أن يكون))؟

تحركت فوق المقعد الخشبي المزين بقسم المقهى، فارتعش بدني من ارتباكي المفاجئ، ولهفي على الواجهة الزجاجية للمقهى، وقد بهت لونها البني الشفيف بعوادم السيارات الملتاعة، ودخان ((الشيَش)) المحموم الذي يتصاعد متكثفًا ثم يتحلل عند باب المقهى.

طلة جسدها المقدود، طلعتها فوق مساحة الرؤية جعلتني مباغتًا، اندلع في صدري قذف نار وارتج بدني، فيه رجفة مدوية.

كأنها تنزع قلبي من مكمنه، وتوقف ثقيل في مخي مثبت عند عبورها الوارف، كانت بقميصها الأبيض المخطط برقيق الحمرة، وبنطال أسود محبوك فيه اتساع خجل وعلى كتفها حقيبتها السوداء.

حين تلم شعرها يبدو في منابته عند التفافه والتقائه بظهيرة العنق أشعة قمر ناعس تخرج من استدارته للسحب، كان خروج الشعر من المنابت حدثًا حين يبيت في تجلٍّ ينعتق له الجِن من معقله، ينفلت

جنون العشق من كوامنه ويلثم هذه الأمكنة الحالمة التي تعود عليها أناملها تدفع بالشعيرات الرقراقة إلى ذيل حصان مربوط بمشبك شعر أسود فيه رسم فراشة فضية تضغط عليه فيصدر صوت ((طرقعة)) نحيل ثم تبتسم لرجفة عيني لمرآها.

حاجباها مرسومان بدقة خلق الله، مضبوطة كميقات استدارة الكرة الأرضية، وعيناها الفسيحتان مشحونتان بالشجن، إطراق رأسها للخلف، يبدو أعلى عنقها في عناقه لذقنها ملفوفًا ببياضه الحليبي وانسيابه متهدلاً كعسل النحل لحظة انزلاقه أسفل ذقنها يصبح الاحتمال مستحيلًا، والمستحيل فعلاً والخرافة حقًّا، والصعود إلى شفتيها مفجرًا لنواميس الكون بأسره، بسمة الشفتين وضمها للشفة السفلى بإصبعيها كانفتاق كأس زهرة معطرة بالندى، ووردية الشفتين مع بشرة الوجه شريحة من وجنتَي القمر.

غيابها حار، ومرٌّ يبقر قلبي ويحشوه حزنًا ولوعة، أسير حولي بلا هوية، ولا مصير ولا مستقر، غرائب الكيمياء الحديثة التي ضبطت وجودي عليها وأعلنت يتمي بغيابها، لم يكن الأمر سوى محض أيام وتعود، في الهاتف أخبرتني وتعثرت في حلقي الأحزان، فاندفعت غصة في الحلق ودموع في العين وارتجاف في القلب، وأخذت لما كان ضوء شاحب يضفي على الردهة وجود النهار، أسندتْ كتفها للجدار وهمت أن تقول، لكن شروع البكاء طل فصمتت تحبس حزنها عن التمرد، وتمنت أن تسعد هناك وغابت.

لم تثمر الرجولة في مواسمها أبدًا، هكذا انقضم وجودي، كان مطلوبًا مني أن أصبر وأصعد، فليس الأمر قطيعة ولا الفراق أبديًّا.

ولكن الفقد كاسح.

لكن بعادها سحب مني المعنى واللفظ.

غاب القمر وكنت أحدث نفسي - وحسبني الناس مجنونًا - كيف تعيش أربعة عشر يومًا بدون قمر في المدينة لا يحسب الناس لظهوره والتماعه وسموقه وعليائه، ولا يدركون غيابه؟ لكنني إذ أفجع برحيله وأنشطر بذهابه، أعلق على صدري دهشتي وفي شفتي سؤالي، كيف لنا - ولي - مكوث نصف شهر دونه؟ وبت في كل ممشى أتجه إليه، ومسير أدفع نحوه، أحس العتمة في شوارع وسط المدينة عند حفيف الفجر بعد سهر طويل كأني أدفس رأسي في حلق البشر حتى لا أشرعها فأراني وحيدًا، وعند المنطقة المحيطة بسكني حتى مصابيح الكهرباء العامة انطفأت والنور العابر للسيارات تآكل وانسحب، وفي غرفتي عند يقظة مفاجئة في غلظة الليل، أشعر كثافة الظلمة وافتقادي وجودي، على أي سرير، وفي أي اتجاه، ومعصمي حوله الساعة المستديرة أحسها ولا أراها فاقدًا الاتصال بالأزمنة والأمكنة.

أسير كأن أحدًا يضع كفه على صدري ويدفعني للوراء أو كأنما أقاوم ريحًا خماسينية ظلومًا تعطلني وتعوقني، وحين أدركت تيقنت أنه أنا، وأن شيئًا كان يمنعني من العودة إلى داري لأستطلع حزني، يمنعني من القدوم للناس لأستبطن حزني، فكنت أستحضر الجميلة الغائبة فأمر في انفلات الرسول ليلة الهجرة.

وكانت تحضر لديَّ، فأصافح كفها الناعمة، بكارة أصيلة لا يلوثها عبور الأكف إليها، أتبعها، بجسدها المغلق بنور حاجب، هزة بدنها تلون الوجود بزهزهة معجزة، في تحركها غنج ملائكي ودلال فاضل، فيه

زهو بكونها مصدر حياة، ونبع عيش وشمس خلق، وكنت أقول إن لها حق التيه علينا، ولنا حق المثول أمامها، رائحة فوح نوراني عبق تبثها في لحظة جثوي، محراب ردائها المفضي إلى الأرض، أتوق إلى اللثم، وأحن إلى التلمس وألهج بالنجوى، وقربها الحنون وشروقها المبهر، يدفعني للمكوث عند نصاعة وجودها ونظرتها الآسرة وكفها الآمرة.

طلوعها من الغياب إلى طلتها أمام المقهى، تسير في استقامة تجاهل احتمال وجودي، فيتزلزل وجودي والوجود.

طبق ((الشيشة)) النحاسي، تبعثر التبغ المرصوص في الكأس الطينية المحروقة، تناثر الدخان وتساقط وذراع ((الشيشة)) ملقاة على مقعد منفرد، وتعلقت ((الماشة)) النحاسية في سلسلة حلقات معدنية تصدر وشيشًا في تأرجحها بين الهواء وجسد ((الشيشة)).

ضجيج الماكثين حولي يخفت إذ أبتعد منطلقًا خارج المقهى، كان الشارع صامتًا ورطبًا فيه غبشة فجر ووجه مغيب متغضن ورائحة جوافة محمولة فوق النسائم.

الأسفلت الممتد فارغ من السيارات والمركبات، ومحطة البنزين خالية من الموجودات بشراً أو آلات، والرصيف على الجانبين خاوٍ بلا أحد.

لكنها لاحت وحيدة تسير في امتشاق الأحلام، رجة الجسد والأعضاء التي تعشق انتماءها لها، أركض وراءها.

أكان لا بد للغياب أن يكون؟!

فرحًا مزهوًّا أستعيد صرحي وأقيم بنائي وأتفجر باللوعة والشوق

واجتياح الحياة، ولكن ما لها تبتعد إذ اقتربت؟! تذهب إذ جئت؟!

توقفت مذهولاً؛ فقد كانت قدماها تختفيان تتبخران دخانًا يذوي في الهواء، ثم تمحى ساقاها ويغيم الوجود أمامي حين يختفي ظهرها ولا يتبقى سوى عنقها العاتي وحيدًا سائرًا، ولكنه يرتحل بطيئًا متبخرًا فانيًا.

وكان ذيل حصانها آخر ما اختفى.

# باب مفتوح على قلبي

**الباب**

**الباب الزجاجي بإطاره الذهبي الذي يرتج عند دخول الزبائن إلى المحل، كان يصدر صوتًا خفيضًا مكتومًا مع دقات كعوب الأحذية النسائية تسحب من ضجيج الشارع كل خلاصته، تحوله - هكذا فجأة وبدون مناسبة - إلى مجرد دق منتظم متدلل على بلاط الكافتيريا الناعسة في أضواء ناحلة تقاوم - بكل ما فيها من أشعة - صخب الألوان المضيئة تملأ الميدان في الخارج.**

**لكن أحدًا سحب زر الكهرباء من شريط الصوت للحياة كلها، هذا الضجيج المتضافر مع ليل قاهري ثقيل، رحل نهائيًّا وفتح صدره - حتى آخر أضلع تتشابك مع الرئة - للصمت حول أذني حتى خمول الحزن تحت انغلاق حجرة القلب ((اليمنى العلوية)).**

**كان قدومها نحوي يؤذن بكل ما تقدم من حبي وما تأخر، يمكن الزعم أنها غسلت ونظفت بهواء نسائمها الداخلة إلى مائدتي كل**

جروحي الحزينة، وبانت ابتسامة وهي تضغط بمرفقها على حافة المائدة ثم تضع ميدالية مفاتيحها عليها وتطلب قهوة سادة وتعيد بأصابعها خصلات شعرها للخلف وتضبط نظارتها إلى الاستقرار على أنفها، بانت تمامًا كأنها مُرسلة (لكن الله لم يخلق أنبياء من النساء.. ولا رسلًا)، في هذا التوقيت كنت أراني أعبر برزخًا وأمر على بيوت عالية وألمح في شارع طويل ملتو رأسَي طفلتين تتهامسان عني - وربما عنها - وأنحني على سور وأَهبط منحدرًا ترابيًّا، ثم أرفع رأسي فأشهد لافتة قماشية بيضاء معلقة بين شرفتين متقابلتين، ثم أصعد سلمًا خشبيًّا مزدوجًا متروكًا في قلب الشارع، أقترب إلى اللافتة بقماشها الأبيض الحليبي المفرود وأراني - وقد امتلأت يدي بفرشاة - أكتب اسمها على اللافتة؛ فتضحك هي، نعم، قادمة من باب شرفة مجاورة تدنو كثيراً حافتها إلى حافة روحي، دخولها صخب ومرح وبهجة موزعة على العالمين بالعدل والقسطاس، تفتح شراعات الشرفة وتستند وقد أُلقي شعرها كله أمام وجهها وتداركت أصابعها جنون الشعر الجامح مع هواء مجلوب لها خصيصًا، ترفع كفها وابتسامتها كأنها ((صوصة)) قمر يجلس على فرع شجر، وقلت لها:

- أنتِ هنا يا مجنونة؟

وضعت كفها على فمها تمنع ضحكتها، ثم قالت:

- تعالَ.. تعالَ.

ولما ذهبت وجدت نفسي هكذا هنا على مقعد في هذه الكافتيريا بين أنفاسنا سنتيمترات هي المسافة نفسها التي تفصل بين دخول الجنة.. أو الخروج منها (وهل يخرج من الجنة من دخل؟!)، ذكرتني

أول ما التقينا.. وهل ينسى الإنسان هزة قلب تجرف الحزن كله (لماذا لم تغنِّ أم كلثوم أغنية شبيهة بالحب كله.. تقول فيها الحزن كله؟!).

أذكر ليلتها ونسمات الهواء الصاخبة تغضب الشجر مع خماسين أبريل الموؤدة ليلاً.. وكنا جمعًا من الأسماء والوجوه أمام تلك البوابة الحديدية العالية المؤدية إلى سلم رخامي قديم يفضي إلى فسحة من المترات الحانية على التقاط الأنفاس، وكنا نقف متجاورين في انتظار شيء أو أحد (أظنني أخبئ الأسماء كلها في صدري)، وقالت لي وقلت لها.. فنجان القهوة الذي احتسته رشفات تعيد الاعتبار للبن البرازيلي، أمسكت به في كفي وقلت لها سأوصله بنفسي إلى فوق، كان الأمر كله أنني أريد أن أمس هذا الدفء الحاني الذي لامسته أصابع تشكل صورة جديدة للكون، هل تضحك هي؟ إذا قلت إن حبي ومشاعري منضبطة على هذا الوله المحموم لليال جرى فيها قيس هائمًا في صحراء تتسع بجريه وتتباعد بخطواته، هلْ أقول لك - الآن لعلك تقرئين سطوري - إنني أحد أحفاد هذا المجنون الحافي الذي أضناه لوع عشق مستحيل وفوضوي، وقض دموعه توق يطوق شرايينه ويجذبها إلى الارتماء مجذوبًا ومنجذبًا إلى دفق عينيها.

حين صعدت أمامي درجات السلم كنت أعتقد أنها تدق بقدميها حفرًا لن تردمها السنون في صدري، ورغم ألم مصمت ولحوح في حشو جنبيَّ فإنني أدركت أسري وأن الحتم قدريٌّ ومحكم. والآن حارس طيب يدَّعي اليقظة ينتظرني كل مساء أثناء عودتي إلى البيت، ولمعان خفيض لمسدسه - لا يقل طيبة عنه - يظهر من جنبه (متعمدًا ظهوره)، والآن وجوف متقد بتوتر خفيف طلقات الرصاص تمس -

عجلى ومضطربة - حوافَّ قلبي، واصطخاب تهديدات بالقتل أو الموت يتلقاها حدسي وسمعي ونظري الضعيف.

وبينما تخفت رياح روحي وتشدني هموم خائفة مرتجفة إلى نفق أرضيٍّ مقبض، بينما كل ذلك - وأكثر - وأخبار يومية عن موتي وقتلي ومضبوطات عبوات ناسفة والاعتداء على الشخصيات العامة وخروج مصر من كأس العالم وعدم مذاكرة أخي رغم دنو امتحانه، وانشغال أصدقائي بقرع زجاجات الحياة أنخابَ أيام تمر، أعلن في عينيها هذه الرعشة الرجفة التي تحرك قلبي لصوتها ومرآها، أشم عطرها وألوذ بها وتنام روحي مستدفئة مستأنمة، عند قرط هلالي في أذنيها.

خرجت من الباب الزجاجي ومسَّني برد الشتاء الراحل ومشهد السيارات الساكنة المصفوفة في الساحة المعتمة وسعي منادي السيارات اللاهث في ممر ضيق للحاق بسيارة خارجة، وملصقات ضخمة لنجم أسمر يرتدي في صعلكة محببة قبعة ونظارة غامقة وبنطلونًا ممزقًا، وأضواء متداخلة من مصابيح الأعمدة وأنوار السيارات ونفير متقطع متشابك، وبائع صحف يفتح أربطة الطبعة الأولى، ورصيف قصير أغلقت محلاته المطلة، وحينما تركتها مودعًا إلى طريقي وكانت منشغلة عني بها، كنت أحس أن روحي دافئة وأن ليلي جميل، وأن قيس كان على حق، وكنت أشكر الله وأبتسم لقاتلي - الذي سيأتي - كأنني فزت منه بساعة معها.

وحين عبرت السيارة التاكسي أمام بيتها في هذا الشارع المزدحم، كانت صورة صديقي الغريب - مغتربين كنا وما زلنا من القاهرة - نتأمل البنايات العالية في هذا الشارع (أول ما يستقبل الغرباء في القاهرة):

معمارها، شرفاتها، إغلاق نوافذها، ملصقاتها المعلقة، رفرفة غسيل على شرفة، كسوة تراب على بعض حوائطها، طلة رأس من بين ضلفتَي باب، لافتات الأطباء، جلسة بواب مع أصدقائه في مدخل، زاوية للصلاة بين عمارتين.

صورة الصديق وصوته يسألني:

- هل ممكن أن نصعد يومًا لبيت من هذه البيوت؟

كان يقاوم - كل هذه السنوات - رغبة كاسرة في صدره أن يدخل إحدى العمارات ويصعد سلمها ويدخل شقة فيها ويقف في شرفتها ويطل على سريان المرور وازدحام المناكب وصخب الطريق، ويلمح وجوهًا للغرباء تسعى في ارتباكها نحو المدينة.

وكنت أحاول أن أقول لصديقي (بعيد الآن.. وجدًّا) إنني قد أطللت برأسي من نافذة التاكسي المسرع وألقيت نظرة على عمارة ورفعت نظراتي حتى تماست مع الشرفات والطوابق، وإنني كنت أنتظر طلة واحدة لامرأة، وأحسبني ناديتها، ورغم أن أحدًا لم يكن في الشرفات كلها.. فإني رأيتها.. فخبأت صورتها في قميصي وانتبهت على سؤال السائق:

- حضرتك بتنده على حد؟

ولم أجب.

# سباق المتاهات

((نودع الأفراح

نودع الأشباح

راح اللي راح))

من أغنية لصلاح جاهين

يأتيه هذا الحلم كثيراً.

ضبابي ومتلاحق ومرتبك.. وفارغ.

يرى نفسه في سرادق الامتحانات ((آخر العام)) وقد ترك صفحات كراسته بيضاء من غير سوء، الوقت أوشك على النهاية، والطلاب يمضون من الزحام إلى الانفضاض، ويتأكد رسوبه في المادة.

ويأتي الحلم أحيانًا على أنه نسي الذهاب إلى الامتحان، يعبر أحد زملائه أمامه ويسأله سر عدم حضوره، يكتشف ضياع الامتحان، وتأكد

الرسوب، وهباء السنة.

ويقوم من النوم فزعًا مرتجفًا ومخضوضًا.

ثم يرتاح ويبرح الخوف جنباته حين يتذكر أنه قد تخرج في الجامعة منذ خمس سنوات، وأن هذا محض حلم.

أو ربما كابوس.

لا يعرف لهذا الحلم سره ولا ضروريته ولا هذا الإلحاح الغريب في حضوره السخي له كلما ظن أنها مرة وعبرت.

يشترك أصدقاؤه في المرح عليه والهزء به وبحلمه عندما يقصه عليهم، فترك الحلم عند وسادته وذهب إلى عمله في صباح سيئ مثل هذا.

توقف طويلًا أمام النافذة العريضة المطلة على الشارع الخلفي بترامه البطيء المنقرض، وبيوت متهالكة المبنى ومقهى صغير فظ البدائية يسكن زبائنه رصيفًا ضيقًا محبوسًا.

كان المكان يدفعه إلى انقباض مريع يظنه الآن مكشوفًا لديه، فكأنه حجر من نار متأججة يسقط من قلبه إلى بطنه ويتدحرج إلى أمعائه ثم مسالكه البولية فتشتعل لهبًا، ثم تكتسح ساقيه، وحينما يتذكر أحد أقاربه غير البعيدين الذي ألقى فوق جسده عبوة صفيحة من الجاز وأشعل النار في نفسه بعود ثقاب احترقت علبته الكرتونية في كفه، ورموا عليه - وحيدًا في ممر ضيق يؤدي إلى وسعاية الدار - الماء والأغطية، ونقلوه إلى المستشفى الميري الضحل، يدخل - في غفلة من الأهل - إلى الغرفة، يراه الآن - بعد كل هذه السنوات عميقة الغور -

تحت فرش غريب، ساقاه محمرتان محروقتان، وصورة وجهه تركت بصمتها على ذاكرة تؤرقها قوتها، والكلام المدموغ بالدموع، والشاب الطيب الضعفان يهمس في ألفاظ محترقة الحواف:

- شفت؟

نار القريب قريبة إلى عينيه المغشية بالدمع الندي، واقفًا محزونًا - كعادته - أمام زجاج فقد قدرته على الشفافية.

لم يعد يعرف لِمَ اليقظة، فإذا به كل صبح ممرور يمره، يتكاسل جسده عن الاستجابَة لنداء العقل أن يقوم ويصحو وينهض من فراشه ذي النتوءات الخجلة والهواء الثقيل المعبأ في فراغ الغرفة يضغط على أنفاسه ويسأل نفسه: لماذا يصحو؟ لا شيء يدعوه لأن يلقاه في الخارج!

لكنه - كذلك - يسأل نفسه: لماذا يبقى قابعًا في غرفة وحيدة وحيدًا؟

لا شيء في الخارج يدعوه، ولا شيء في الداخل يبقيه. الذي ننام فيه نصبح به.

الأمكنة نفسها والشوارع والحوانيت والحواديت والهزائم والانكسارات، والحب المكبوح والشهوة المغموسة بطهارة قديمة، ودخان كثيف قادم من هناك إلى هناك، وعبارات مكررة وليال مباركة وصدر مفتوح للغم والهم - ومغلق عليهما أيضًا - وفم ضحوكٌ حتى البلاهة وغناء مبحوح ووجوه تزين حوائط القلب دون أن تهزه.

ولهذا.

فإنه يرى نفسه أحيانًا في شارع الترام الملتوي الطويل يركض بملابس ممزقة وركبة مفضوحة وشعر منفوش وقميص منتزعة أكمامه، لاهثًا رائح الروح يسقط على ركبتيه فإذا سهام ورماح تخرج من النوافذ المحيطة - فُتحت لمروق الأسهم وطلِّ العيون - فتتجه كلها إلى قلبه وتنغرس ساخنة كريمة الدماء، ووجع ملتاع وألم متفجر وأودية من خيوط العرق والدم تغوص في ثوبه وجسده، جاثيًا على قدميه وأنَّة مريرة مكبوتة أفقدها صمم الناس عنه غوثها، ووجوده الضئيل في خلاء يمتد ويتسع حتى يطوي صحراء وزروع صبار وصخورًا ودماء في بحيرة آخر المدى.

وأحيانًا ما كان يرى هذا الشارع هو نفسه، الطريق الأسفلتي الواسع الممتد في مدينة ساحلية ارتحلت عائلته إليها في غربة إعارة مع والده، زخات المطر المتلاحقة المفاجئة وفحيح الريح وسكون الظلمة واستكانة المرض في ظهر والده الراقد على سرير في غرفة يحصدها الألم، وكان والده قليل المرض، نادر التوجع، منير الثغر، صابر الملامح، فلما زاد الألم واشتدت المحنة، سارعت أمه المحزونة وشبكت قبضتها بيد ابنها الصغيرة المضمومة بين الأصابع على قبضة أمه المرتعشة، ومضيا على درج السلالم الرخامية العريضة التي تشارك البرد مؤامرته عليهما، وأضواء المصابيح نحيلة في زوايا السلالم، وامتداد زلق للجدار المحيط بالسلم في زخرفته المنقطة تمر أصابع الطفل النازلة عليه تطرقه سندًا أو تسلية، حتى ينكشف ليل الغربة وضيعة الغرباء في شارع مطير، على رصيف عال عريض دقيق البلاط، وأمه في ثوب ثقيل مرتبك الأطراف ودثار داخلَّي مكوم وحذاء لوثته

الأمطار وداسه الطمي الهش متكونًا من تراب منسي، ودموعها في وحشية حزن لا يرحم وتعثر امرأة تبحث عن طبيب لزوجها، وولد طري وباك ملء كفيها، وكانت تقصد إحدى المصريات التي تعرفوا إليها حديثًا وتبينوا صلة ما بين قراهم في مصر، ويتوقف المشهد مأسورًا عند هذه اللحظة، مطر وبكاء ولهاث وتعثر وأم وطفل، دونما معرفة أية حال استقر عليها الأمر، ورغم مرور زمن وعبور سفن وحط طير فإنه لم يسأل يومًا عن غموض الذاكرة. هذا هو عمله اليومي.

جلوس وراء مكتب وخربشة على ورق وتنفس بطيء ثقيل، وذكريات متدافعة وحزن مدفوع الأجر، ووجوه مخفية الروح تحيطه وتدور حوله وتشتبك فيه وتفرض نفسها على وجوده.

هذه ((المصلحة)) لا تفعل سوى مجموعة أوراق وزحام ملفات تدفع بها إلى مصلحة أخرى.

وكر الأيام يتبع فرها.. ولا شيء.

أهوَ السقم أصابه؟

أم مرض أحلَّ به؟

أم جز لخيط حزنه وعصف بكون فرحه؟

ارتباك وتردد وتخبط وتعقد، وكلها أحاسيس محجوبة خلف ستار وجهه الذي يلقى به الناس، ويشرب به الشاي ويدغدغ الأوقات بضحك مقتضب أو قرقعة فارغة.

الوحيد الذي رآه عند قدومه إلى القاهرة.. كان سامي، وأكثر ما

كان يخشاه - هذه الأيام - هو سامي نفسه.

أيمكن أن ينتهي إلى نهايته، أو يلقى في ذات مأواه.

سامي.

ألم يكن هو الشاب المليح النحيل الطويل، الذي رافقهم في المدينة الجامعية أول عام، وكان قدومه من قرية ساحلية صغيرة (فيها بحر تروح إليه الماشية) جزءًا من القاهرة، مرتبكًا بالأفكار - لأنها كثيرة داخله - محشوة في صدره، وكان تفوقه في اللغة الإنجليزية - القسم الذي التحق به - هو كل مبتغاه ومسعى أمله، كان طلوقًا في لكنته، واثقًا في ثقافته، مؤمناً بتفوقه، وصعوده إلى عالم التدريس في الجامعة، وكنا معه مؤمنين!

لدى حضور سامي إلى غرفته، كان ضوء شمعتين صاحيتين يملأها بعد انقطاع الكهرباء، وكان صوت سامي مرددًا كلمات اللغة الإنجليزية وملقيًا مَقطعًا من قصيدة، دفيئًا وحزينًا ومغتربًا.

وبعد أشهر الصيف التقاه في فسحة أمام الكلية، وجد سامي آخر، سمينًا وممتلئًا، زاعقًا ومبحلقًا، غاضبًا حانقًا ضاحكًا قليل الحياء مفرط البذاءة، لقد فشل في الحصول على تقدير ممتاز، فأصابه مس، امتد إلى الجنون بخطوات متعاقبة، يدخل إلى عميد الكلية ليطلب يد ابنته، ويسب أساتذته ويتهمهم باضطهاده، ويلعن بنات الكلية، ويحاول أن يقبلهن في الممرات والمدرجات، ويدخل شجارات متدافعة مع زملائه، ويسرق من غرف المدينة الجامعية.

وقيل: إنه كان يصعد المنابر في قريته فيخطف مكبرات الصوت،

فيصعد له الناس ويضربونه ضربًا فيه شفقة وغيظ محتبسان.

سامي.. الصوت الدافئ في ليالي انقطاع الكهرباء الذي يأنس به ويرتاح إليه، يأتيه خفيفًا إلى هذه الغرفة المتسعة الباردة في المصلحة، حين اكتشف وجود جهاز الكمبيوتر بها، سعد واستبشر وصار وقته كله مكرسًا للكمبيوتر، يتعلمه ويحبه ويتدرب عليه، ويبني جسورًا بينه وبين جهاز وشاشة وطابعة، وكان صوت رنين الطابعة وهي تُخرج الورق منهاً مكتوبًا أليفًا ومحبوبًا وزاهيًا.

الكمبيوتر أضاع كثيراً من عنائه، كثيراً من الأيام.

لكنه - الآن - يدخل الغرفة نفسها ويرى زملاءه متحلقين أمام شاشة الكمبيوتر يلعبون سباقًا للسيارات أو المتاهات.

وكانت ضحكاتهم مختلطة الاختلاط نفسه الذي يحياه.

# ليس أمامنا إلا الأحلام

نمت اليوم سبع مرات وحلمت بك مائة مرة، في الحقيقة كنت أنام وأصحو على أحلام تغمرني بك، لم أنم حتى الثامنة صباحًا، وفي الثانية عشرة ظهرًا - وقد سمعت آخرَ دقات الساعة المعلقة في الصالة - جاءتني أمي تهز كتفي لإيقاظي كي أرد على مكالمة هاتفية، وعدت فنمت في الواحدة - فقد طالت المكالمة - وصحوت كي أتناول غذائي في الثانية والنصف، وشربت الشاي وشاهدت مشاهد متتالية من فيلم يذاع في الظهيرة، ثم غفوت بعد الثالثة بقليل.. وعنفتني أمي لكل هذا النوم الذي لن أستطيع معه النوم ليلًا، فأيقظتني في الرابعة، لكنني في الساعة السابعة مساء وقبيل انطلاق البيت بالضجيج زارتني غفوة قصيرة بالأريكة في الصالة نمت معها.. وصحوت.

في كل نومي كنت معي، أصالحك في الحلم الأول وتخاصمينني في الثاني، وأتَمنى أن أقول لك شَيَئًا خاصًّا وحميميًّا في حلم فتسألينني عنه في حلم تال، وأراكِ فيَ ابتسامة وضَّاءة وبياض وجهكِ يلف ملامحكِ في نورَانية حَنون، وأبكي على أصابعكِ

الملفوفة النحيفة وهي تمسح خدي، وأستغفرك ذنبي، وأحدث نفسي أنك ستتصلين بي هاتفيًّا، فتتصلين في الحلم الثالث، وأُقبل يدكِ في حلمَ وأنا أشكركِ، وأغوص في عنقك بشفتيَّ في حلم وأنا ألج بكِ، وترتدين ثيابًا سودًا في مشهد قاسٍ وأسألكِ: مَن مات؟ فتربتين علَى كتفي وتقولين: أنت.

ونقف معًا على درجات سلم قصير، وألومكِ على كل ما فعلته معي وبي، أقول:

- كل هذا التجاهل، كل هذا الرفض، ماذا فعلت لك، لقد أحببتكِ، إنني أحفظ تفاصيل خيوط ثوبك، آثار قدميكَ على الأرضَ، شكل أصابع رجلكِ، طريقة عناقَ خصلات شَعركِ، جميع ألوان أصابع الروج التيَ تستخدمينها، أشم عطر جلدكَ، أغمض عينيَّ وأعرف ماذا تفعلين الآن، وأشعر قبضة محمد علَي كلاي تصدم بطني (تتكرر الصدمة بالقبضة متتالية متسارعة حتى أظن أنه يقتلع معدتي) حين تغضبين مني، ينسكب كل دمي تحت قدمي، أرتعش وتنقبض الدنيا من حولي، الشجر مقوس والجدران مقعرة والممرات محدبة والوجوه منكمشة.

أحبكِ.

يختفي السلم القصير ودرجاته ولون فستانكِ، فتظهرين ثم تبتسمين وتسألين:

- هل غضبت؟

- أنا عمري ما أغضب منكِ.

ثم تنطلق الريح عاصفة ودوائر تراب واسعة وثقيلة ترمي بنا، وأريد أن أحميكِ داخل صدري، لكنكِ ترفضين، تجذبين يديكِ ووجهكِ، تنفلتين مني وتصرخين:

- أنت اتجننت؟!

وتجلسين في حديقة صغيرة (لعلها حديقة بيتنا) على مقعد خشبي والريح تعبث في الكون وأنت تبكين، وأراني في صندوق تابوت ملقى في زاوية من الحديقة وقد حَام حوله بط أسود، وأتذكر البطة السوداء في دروس المطالعة التي ظهرت وسط الدجاج فكرهها الدجاج وانصرفت عنها الكتاكيت.

ويدور بيننا حوار طويل فيه كل ما لم أقله لكِ، وفيه كل ما أتمنى أن تقوليه لي، ثم أصحو، ثم أنام؛ فأذكركِ بما قلتَه في الحلم السابق، فتضحكين وتقولين إنه مجرد حلم، فأعتَب عليك، إن هذا حلم آخر فما الذي اختلف، هل حتى في الأحلام تختلفَين وتنقلبين، اليوم تحتاجين مني أن أصمت وأرحل.

بعد غد تطلبين مني أن أكف عن حبكِ.

بعد أيام تطلبين مني ألا أغضب لأنكِ توقفتِ عن حبي.

بعد شهر لا تردين عليَّ السلام.

بعد شهرين لا تعرفين صوتي في الهاتف.

ماذا جرى لي لتفعلي بي هذا؟

أقول هذا وأنا يقظان بين نومين، وتجري أمامي مشاهد الفيلم

العربي، وأقول هل يمكن أن تتمكن امرأة من رجل إلى هذا الحد، حد ألا يرى وألا يحلم إلا بها، امرأة أفكر بها في كل دقائقي.. قبيل نومي وفي نومي وبعد نومي، تسيطر على دمي وتتحكم في نظرات عيني، وأعيش اليوم كله وأقف على أظافري، لاهثًا وراء رنين هاتف أقول إنها هي، أو أتماسك مدعيًا البطولة رافضًا إدارة القرص كي أكلمها، امرأة تأخذ بقلبك، تنشله وتفتشه وتحطمه وتركبه وتلقي به في صندوق خزانتها.. أو قمامتها.

إلى هذا الحد!

تأتينني في الحلم مع رجل آخر، تقترب منه، وأقترب معها، أظن أني أعرفه، وإذا بهما يقتربان ويهمس لها: أهلًا يا فلانة، ثم يدنو بوجهه منها وهي مقبلة عليه يمسك بشفاهه خدها الأبيض الساحر، ويمسك بشفاهه بياض وجهها، وتبتسم هي، تعود برأسها للخلف، ثم تقدم الآخر لرجل آخر - أعرفه أظن - وأشعر جلدي متشققًا متصدعًا مخلوعًا عن عظمي، وقوة غيرة بركانية تدمر وجودي، وأقول لها: لماذا؟ فتقول لي: أنت مالك؟!

وأصحو فأطلب أن أراها معي عارية في حلم، فلا أراها، ما كل هذا العناد؟ حتى في الأحلام! حينما أحاول القرب من أصابع يدها، مجرد اللمس، فقط أشعر أناملها تحت أناملي، أقترب مرة نحو جسدها، عودها الباسق، لفتها، استدارة ظهرها، صبة فخذيها، رجة ثدييها، لكنها تبتعد وتسلم - كل هذا - لغيري راضية مرضية فتصرخ: إذن ما الذي تريده بالضبط؟ ما هذا الجنون؟! ارحل واصمت، خلاص أنا تعبت.. وتهتز وهي تنتحب: تعبت.. تعبت.. أنت فاكرني إيه..

أنت فاكر نفسك إيه؟

وتقترب بقبضتَيْ يدها نحو صدري، تضربني وتدفعني وهي ترتعش وتبكي وتصرخ وتلهث وتعرق وترتج تمامًا، لماذا لا أصحو الآن؟

في آخر الليل أو مع مطلع النهار وأنا أحاول النوم بعد يوم طويل حد السخف، قلت إنني لن أفكر فيها، وقلت إنني لن أحلم بها، لكنني فكرت كثيراً جدًّا، فاختبرت نفسي كيف سيكون حلمي؟ هل سأراها باسمة أم حزينة؟ تحبني أم تكرهني؟ هل ستكون معي، أم مع غيري؟ طيب ماذا سأقول لها.. سأحاسبها على أنها لم تتكلم معي؟ أم سأغفر لها كل شيء؟ أو أنها ستطيب خاطري وسنعود كما كنا؟

ثم انتظرت الحلم.

# وجه بعيد لامرأة بعيدة

لا أفهم لماذا أشعر أن دمعي سخيًّا وساخنًا يتدفق من ركنَي عينيَّ حينما تهفو رائحتك(عطر مغموس في طيات ثوبك، نَفَس حارٌّ طليق صاعد من ضمة الشَفاه، هواء رطب جَنون من اهتزازَ كفيك)، أشمك- ها هو عن بعد وعبر آلاف الأميال - وأحسك أمامي في سمتَ تجاهلك لي - دلا أحيانًا وتجاهلاً حقيقيًّا، عميقًا وغويطًا وراسخًا في أحيان أخرى - أو في قدومك نحوي في نشاط وسرعة وغزو.

صديقتي.. أنت تغزينني فعلًا، تغمرني كل مساحة بيضاء منبشة بالحمرة أو ساطعة كطلقة رصاصة في شتوية باردة من عودك المعتدِّ العتيد الباسق في شريان قلبي، تغمرني كل انحناءة من طرفَ حرف تنطقين به، كأنه يدفس رأسه في صدري يشكني ويدغدغ مسامِّي ويغوص في دمي ويسبح فيه عائمًا، تغمرني لمسة أصابعك العجلى المتوترة المرتعشة، دون أن أفهم سببًا - سواكِ- للعجلَة والتوتر والارتعاش.

ما لي أتفتت إكلينيكيًّا كلما توسدتْ ملامح وجهك ذاكرتي؟!

أتعب كل مرة في استدعاء ملامحك، واستحضار وجهك واستقدام لون شفتيكِ واستدارة عينيكِ وعمق َعسليتهما - أو سوادهماَ العسلي - وتضاريسَ أنفك وبياض َجبهتكِ الكبريائي المتشامخ، أو دقة ذقنك النبيل (حنيني إلَى ملمسه يدمرني َعجزًا ويؤهلني للطهرانية، لليوسفية)، وجمال عنقكِ في عتوه وعتيه بفعلته الظالمة للعشاق البشريين الغلابة حين يرونهَ فيصرعهم بُعده ونأيه ونبوته، أتعب كل مرة حين يقضني عجزي عن استدعاء وجهكِ، أغمض وأحاول أن آتي بكِ سنتيمتراً سنتيمتراً؛ من شعركِ- ولا أراه سَوى المعقوص خلفكِ الراميَ بقُصته على جبهتكِ والمتَدلل المرفه عند تحركه الغنجيَ على حاجبيكِ، والنورانية َالساكنة في المسافة الفاصلة بينهما، ثم أعصر عينيَّ فيَ غمضتهما، وأفرك قبتيهما بإصبعي لعلكِ تخرجين منهما وأراكِ، إلا أنني أفشل.

أقوم بين مقعدي وألهج باسمك مخففًا ومدغمًا وخفيضًا.. ثم أردده في همس ألمسه بيدي ثلاثيًّا كامَلًا وأعانقه مجنونًا رسميًّا ومشارًا له بطوب العيال، أجوب الغرفة عابرًا مقاعدها وحافة مكتبها وممسكًا قبضة بابها ومتأملًا في هوس محموم دوران ريشات المراوح البدائية في سعيها الآني الأعمى، أظن أنك لو جئت إلى هذه المراوح، لو تنفستَ أمامها، لو تركتِ شعركِ، َلو طيرتَ مشبك الشعر الأسود الفضيَ، لو ضحكتَ فيَ مواجَهتها، ستغيرَين حياة هذه الآلات، لاهتزت لك وصارتَ معك عبادًا كعباد الشمس، تسير إليكِ، تتوجه ناحيتك، تلتَزم وجهكِ، تلتصَق برائحتكِ، تستنشق أنفاسكِ.

أضرب الأرض بقدمي، كيف لا أَستعيد وجهكِ، كيف لا أؤكد

ملامحك؟ هل يمكن؟ هل ممكن؟ أضع كفي موطئًا لوجهي، وسادة لروحي، أهز فخذي تستند إليها ذراعان ينشدانكِ، أقول لنفسي: طيب لأستدعي صوركِ، تلك الفوتوغرافيا الطيبة التي قد تفتح لي نافذة، شراعًا، بابًا، بواباتٍ وجودكِ مثولك تمثلك حضوركِ نفاذك، نفوذكِ، أخوض الطريق إليكِ، صغيرًا ضيقًا مرشوشًا بالماء، منبسطًا بحجر مفتت أبيض مدهوس، حوله سياج من عشب ملتف حول سور خشبي من جذوع شجر، يفضي إلى ساحة ميدان الحسين حين تقفين وحدكِ.

وشيش الميدان وجلبة المقاهي وانجذابية المجانين، ووطر العطشى، ومنادو السيارات الكثر، باعة العصي، جرسونات المطاعم، وسُياح المنطقة، ومشوهو التسول، كل هذا يذوب ويذوي ويخلو الرحب الفسيح الحسيني تمامًا إلا منكِ ودقات طبول ذات قرع صوفي نحيل ونشيجي وبعيد.. يدنو فيعلو وتملأ المكان أدخنة بخور وروائح عطارة مدموجة منثورة، والطبل الصوفي الحافل يصعد حتى تدخل سيدة نحيلة بثياب خضر وقميص أبيض وشعر مسرح ومسرج وتلمسكِ وتقدم لك عقدًا أزرق وقرط فضة وتبتسم لك وتُقبل ما بين عينيكِ.. ثم توصيكِ بي.. فتهزين رأسكِ لها ويأخذكِ المَشهد تمامًا.

وحين يرحل الدخان والبخور والرياحين والعطور والسيدة ويستعيد الميدان وجوده اليومي الزخم يظل رأسكِ يدور في سؤالك المستفهم عمن أوصتني السيدة.

ألوذ بصوركِ، بفوتوغرافيا طيبة حنون عليَّ، لكنني - والدهشة تمصني - لا أرى بعض صور عبرت إلا زوايا من وجهك، يغلب عليها ثورة شعركِ، أو التفاتكِ لأهمية ما جانبًا ما، ظهركِ مع جَزء من كتفكِ،

دس وجهك وذراعك في كتابة ممدودة على حجرك، أحاول في جر قطر طويلٍ وثقيل، أَن أنفض عني يأسي وأستدير إِلى صورة صغيرة ربما التقطتها عدسة لك لأمر سفر أو بطاقات هوية، أو دخول أو خروج، لكنني لا أذكر إطَلاقًا، هل محيت صورتك عني؟ هل حجبت ملامحك عن مخي؟ هل عبثت عناصر تخريبية في موطن ذاكرتكِ في دماغي؟

أفتح الباب.

فأراني وحيدًا في المكان كله.

فأقف مستندًا إلى حائط مغمضًا عيني لعلكِ تأتين.

أجلس مقرفصًا على الأرض ربما تمرين من هنا.. أتجسس صوت أقدام آتية فيها دبيبك نفسه وخطو مشيك، لكنني تحت ثقل الانتظار ووهج الأمل ولمعانَ السراب أكتشف أننيَ لم أسمع.

أضع ذراعي مثنيًّا على الحائط ثم ألصق رأسي بها، ها هي فساتينك، ألوانها، رسمتها، بياض ساقيك جبار في إيقاظ كيميائي، انثناءاتَ الفستان، طيات البلوزات، فتحةَ الجيب، الزرار الأول في القميص، ديكولتيه التيشيرت، لون بنطالك بكيِّه الحاد واحتضانه عودك الثري الساخن، بطن كفيك الأمومية، أصابعك المخروطة بروح القدس.. حذاؤك الصغير الدَقيق الذي يلم قدمكَ الطفولية بإصبعها الكبيرة المتعاليةَ ورفقة دعة الأصابع الطرية ((تَلخبط)) الناموس الكوني للنظام الصارم من السياسة إلى ((الكوتشي)).

لكنكِ لا تجيئين.

لماذا لا تجيئين يا قمر؟ يا صفو نيلي ومبعث فخري ومنبت وجودي وخصوصية عيشي، وهدف سعيي وغمد حزني وطلاسم سعادتي ولوغاريتم فرحي واكتئابي.

ينفطر قلبي وأشعر كأنه كيس مملوء بالدم منفوخ ومعبأ ومحتشد.. وإذا بيد تنغزه بسن حاد فينفتق ويتبعثر الدم الثقيل في رجرجة وفوضوية واندلاق يشيع في نفسي الرهبة والجزع.

وتكتب دوائر الدم تحت اسمك أسئلتي، أعرف أنك لا تحبينني، أعلم أن غموضًا شريفًا يعتصرني تجَاهك، أعلم أنك جذَر في حياتي، أو جذر حياتي، أعرف أنني مهم في َشريط حياَتك لكنني لست مهمومًا بالأجوبة - الآن - أنا أبحث عن وجهكِ من َملامحك، أرى الأبواب المغلقة على مكاتب رحل أصحابها، وَمصاعد أغلقتَ على نفسها الزجاج، ولوحات وملصقات مغماة بالعتمة الخفيفة، وممرات تفيق حتى تخنق قلبي في بحثه عنكِ.

أنزل إلى الشارع.

ضجته وصخبه وطريقه الذي مضيت فيه في حر القيظ يكاد يتمزق الجلد على الوجه من الحرارة، يكاد تجز قلوبنا داخلنا في هذا الفرن اللهيبي الشرس، أذكر كل شيء في هذا الطريق، المشاجرات والأسئلة، اللهفة - من جهتي طبعًا دون غضب مني - أو عليَّ- والفقد.

الفقد يا آنستي.

فقدكِ أنتِ.

وها هو الطريق نفسه الممطر في كثافة نهاية الزمن، المطر الهادر

المتواصل يغرق الشارع والسيارات وملابسنا ويعصرني في ماء وحشي يحممنا دون مقاومة تذكر (لا مظلة ولا كتب ولا حقائب)، ونسمع غرق أبداننا في الماء ونسأل: لماذا؟ وأحكي عن ذلك الشاب الذي وقف في قلب شارع ضيق زلق في الحسين، والمطر لا يرحمنا في عزه وجبروته وطغيانه الخير، يصرخ الفتى في ضآلته وثيابه المغسولة عن آخرها بماء المطر الزاخر (حيث لا أرى شيئًا يحمي):

- كفاية.. كفاية يا رب.

وأستعير دعاءه، رجاءه، عتابه.. وأقف عند الرصيف وحيدًا والناس حولي.. أريد أن أعلن جنوني (الآن، لا مطر ولا حر، ولا أي شيء)، وأهتف:

- كفاية يا رب.

صوت ناحل متردد خائف.. لكنني وموت غياب ملامحكَ يعصف بكل حبة منطق في الحياة، أرفع الصوت قليلًا.. ثم أتراجعَ جبنًا.. ثم أنسى نفسي - ماذا بعد نسيان ملامحكِ إلا نسيان نفسي؟ - فيعلو صوتي صارخًا:

- كفاية يا رب.

يلجمني صوت أحد العابرين توقف أمامي، وفي هدوء أعصاب وراحة بال ورضا ضمير صرخ في وجهي:

- لأ.. مش كفاية.

# الجزء الثاني
# صباح النهايات

# صباح اليوم التالي

**١- اليقظة**

**استيقظت لما أحسست سقوطي الوشيك، حين استند نصفي على الهواء الفاصل بين سريري وسرير أخي الصغير، نخر الخطر حواسي.. فاستيقظت.**

**رفعت جفني المكدود فأدركت امتصاص الغرفة لأشعة الصباح المتسربة من خصاص النافذة المطلة على حديقة، تصدر زقزقات العصافير وشجار أغصان الشجر مع عبث الهواء.**

**كانت ساقي عارية، بينما اندست الأخرى تحت الغطاء الذي انزلق معظمه للأرض.**

**أثقل النوم عيني التي باتت الليلة الماضية مستيقظة تمامًا، متوقفة عن أية محاولة للانغلاق، لانطباق الجفون وهدأة القلب المنتفض.**

**حاولت النهوض، فقامت روحي بينما ظلت أعضاء الجسد تئن تحت وطأة التحلل البطيء.**

امتدت يدي نحو حافة السرير، مال جسدي، انحنى رأسي لالتقاط الغطاء فأفلت جسدي كله وانزلق للأرض.

شعرت وجعًا في جنبي، قمت متثاقلًا، وضعت الغطاء فوق السرير، التفتُّ إلى باب النافذة، حركت أصابعي في مقبضه المتعطل رغم محاولات إحيائه القديمة. أطلق انفتاح الشيش صوتًا مكتومًا، غرق في غزو زقزقات العصافير - القادمة من جميع أنحاء الكون - لأذني.. شجرة البرتقال الصغيرة في الركن.. شجرة الليمون تطلق للحياة زهورها المغروسة في شوك معشش على أغصانها الملتفة، شجرتا الجوافة المتجاورتان جفت عروقهما وانسحبت ثمارهما الخضراء عن الوجود، شجرة المشمش طويلة باسقة مملوءة بالخضرة المزدهرة، فروعها تصل لسور سطح المنزل تشتبك مع حبال الغسيل، تنغرس في فجوات الطوب الأحمر، تصل لسقف عشة الفراخ الهشة.. كان أبي دائمًا يقلب فروعها، يتجول بنظراته الباحثة فيها، يستفتينا، يتوقع، يتنبأ، يترقب، ينتظر، يقرأ عن نمو زهور المشمش، يسأل مدرس الزراعة في مدرسته، يطلب رأي واحد من أهل قريتنا المجاورة، يتوقف عن قراءة الجريدة فجأة، يصعد سلم السطح ممسكًا بالجريدة المطوية، يفحص شجرة المشمش وهو يسألنا:

- لقد نمَت وكبرت لهذا الحد ولم تطرح زهرة مشمش واحدة حتى الآن؟!

يفرد الصحيفة، يتابع مسلسلًا تلفزيونيًّا، يطرح السمع لنداء بعيد، يسند جنبه على وسادة الأريكة.

## ٢- المطار

- حاجة غريبة والله.

كان أبي مائلًا بجذعه على السور الحديدي الفاصل بين صالة الانتظار وصالة الدخول التي تقود لوزن الحقائب ومراجعة جوازات السفر، كان يسأل الضابط ذا الشارب عن موعد الإذن بالدخول للطائرة، أجابه مقتضبًا بينما انشغل بسيجارته وحديث صاحبه عن الالتفات لأبي، عاد نحو أمي، تقف واضعة كفيها تحت صدرها، ممسكة بكيس نقود أسود ومنديل مطوي على شكل مثلث.

- ما زال هناك وقت.

يدفع أخي عربة حمل الحقائب، وهو يجر حذاءه الرياضي فوق البلاط البارد المنبسط المربع فيحدث صوت التزحلق، نجلس على المقاعد البلاستيكية الحمراء، وجه أبي شاحب، تمسح أصابعه عرقًا وهميًّا فوق جبهته، تمر على جانب وجهه، يدلك ذقنه الحليق، يقبض على الصحيفة، يقرأ خبراً صغيراً في الصفحة الأولى، إعلانًا مجاورًا، يبتسم ابتسامة مغتالة.

- تابعوا الصحيفة، يمكن نفوز بشهادة استثمار في السحب القادم.

الصالة خالية في الساعات الأخيرة من يوم يرحل بانتظام، فروع شركات الطيران مغلقة، رغم أضوائها المعلقة فوق المداخل، بائع الصحف يتسلم دفعة جديدة من صحف الصباح، طرية، مبللة، طازجة الطباعة. سيدة ريفية تدفس رأسها في صدرها، تثني ركبتيها وتنام فوق

مقعدين متجاورين، يبحلق زوجها بعينين منسيتين في الأسماء المرسومة على حقائبه. يجري طفل صغير على أرض الصالة، يتوه عن مكان أمه، ينطلق في صراخ مهترئ، تناديه أمه، لا يتوقف عن الصراخ.

موظف مكتب الأمانات أغلق المكتب الأرضي واختطف نومة على مقعده، بينما ترك نور الغرفة مفتوحًا، يدق أحدهم على زجاجه، يستيقظ من غفوته، يمرر اليد إلى المقبض، يفتح الباب، يرد على سؤال الرجل بإيماءة نائمة. عامل دورة المياه يجمع الأكواب البلاستيكية، يغسلها، يضع واحدة فوق حوض الشرب، يغلق صنبورًا معطوبًا، يجر بمكنسته أوراقًا مبللة فوق الأرض. ينام رجلان في المسجد المفتوح تحت سلم صالة الانتظار، مفروش بالسجاد المصطنع، بلا سماء ولا سقف، يربط الرجلان رأسيهما بالمناديل القماشية، يضعان الأحذية تحت أعناقهما، يركنان جسديهما على الجدار، فوقهما لوحة قرآنية أهدتها إحدى الصحف لقرائها منذ زمن. يدخل مسافر إلى مكتب الهاتف الضيق الخالي من الناس، يدق على رخام أمام شباك الموظف الغائب، يلتفت باحثًا عن أحد، يمسك بهاتف العملة المعدنية، يجده خربًا، يضع السماعة، يعود للشباك، يدق الزجاج والرخام، يضع رأسه في فتحة الشباك.. وينادي.

كان الفجر يشاور - في الخارج - الكون للحضور، حين دفع أخي عربة الحقائب لتتجاوز بوابة الصالة، يمسكها أبي، يطلب منا الانتظار حتى يزن الحقائب ويعود لكي يصافحنا، نتابعه، يدفع العربة في غير استقامة، يدور برأسه في المكان من حوله، نوافذ زجاجية، إعلانات ضوئية، لوحات الوصول والإقلاع، طوابير المسافرين وكتل الحقائب،

**قبعات رجال الشرطة، الأضواء فاقعة البياض، جوازات السفر في الأكف، وتحت الأكتاف، في الحقائب الصغيرة، تأبى العربة التحرك، يضع أبي حقيبة اليد الصغيرة فوق الحقائب، يحاول بكلتا يديه أن يحرك العربة.**

**٣- أحمد حلمي**

**شارع أحمد حلمي هادئ في لحظات الفجر الأولى، مصابيح الكهرباء المضيئة يتوه نورها في النهارالزاحف. عاملان ينتظران قدوم سيارة العمل المبكرة، عجوز يبول فوق حائط المساكن الشعبية، ترام مركون بجوار كشك خشبي فوق قضبان ميتة، ملصق دعاية لفيلم سينمائي قديم نهشت عناوينه وعينَيْ نجمته، قطة بيضاء نحيلة تعدو في حديقة فاشلة بين مجمع للمساكن الشعبية، جلباب يتدلى من حبل غسيل يغطي نصف صورة جمال عبد الناصر المرسومة تنعاه يوم وفاته البعيد، النوافذ مغلقة، والشوارع مهزومة تمامًا، موقف السيارات الأجرة ذات الأحد عشر راكبًا مهجور إلا من نصبة شاي نام صاحبها تحت أغطية عسكرية سوداء.**

**شرطيان وحيدان يقفان أمام كشك المرور، يضعان حواجز للعبور، يرقبان السيارات القليلة، يفحصان الركاب، يردان باقتضاب تحية سائقي سيارات النقل الثقيلة الطويلة.**

**وضعت أمي رأسها على زجاج النافذة وهي تغمض عينيها وتغلقهما على تنهيدة ونظرة مغموسة بالحزن، دس أخي قدميه في**

المقعد الخلفي ونام بنصف جسده يعاني تعب النومة وأرق اهتزاز السيارة، خالي أسلم رأسه النائم لصدره بجوار السائق الملتصق بالأسفلت.

أقاوم الفراغ الموحش الذي يسد رأسي، يأكل قلبي، يمنع عيني التي لم تذق النوم لحظة، أموت في هدوء مكتوم وصمت مقيم.

٤ - أبي

حاولت العودة للنوم، أغلقت النافذة، سوَّيت الفراش، مددت ساقي، وضعت رأسي بين وسادتين.

يدخل بخطوٍ خفيف حتى سريري:

- اصحَ يا إبراهيم الساعة الثامنة إلا ربعًا.

يخبرني بأهم ما أذاعته لندن في نشرتها الصباحية، يعد أوراقه وحقيبته، يُحيي أمي مداعبًا، يُقبلها ويناديها باسم مدلل.

عودة أبي من المدرسة في الظهيرة، حاملًا حقيبته في كفه، يُخرج منها الصحيفة، يقدمها لي، بينما يسلم الحقيبة لأخي لكي يدخلها غرفة نومه، يلقي ((السلام عليكم)) بطريقته الخاصة المؤكدة حرفيَ الكاف والميم.

جلوسه مقرفصًا أمام شجرة الليمون يرويها بالخرطوم الأزرق وقد أمسك المصحف بيمينه يتلو القرآن بصوت مسموع، بينما يسوي الأسوار الطينية المحيطة بالجذور.

بحثه عن مختار الصحاح لكي يكشف عن أصل كلمة، تهلله عندما يدرك صحة رأيه وسلامة مشورته، ضحكه المنطلق الذي يداريه بأصابعه فوق شفتيه، عند التقاطه مغزى مشهد ضاحك في مسرحية حديثة، سؤاله عن تطورات مسلسل يتابعه لم ير حلقته الفائتة.

تأنيبه لأحد الأقارب أغضب زوجته، سؤاله عن راتبه وأين ينفقه، لومه لشرب السجائر.

محاولته إصلاح عطب صنبور الحمام المفاجئ، استفهامه عن آخر مَن استعار فأسه الصغيرة من الجيران، قراءة سورة ((يس)) من أجل توفيق أختي في امتحان دراسي صعب، شكوته من حُمق أخي وشقاوته وبطء فهمه لدروس النحو.

دخوله لمكتبي يسألني بخجل وتردد كريم عما أكتب.. خروجه من حجرة الصالون ليأخذ صينية الشاي لضيفه، يتجول بنظراته في الصالة، يهم بالعودة للحجرة، تعاتبه أمي لعدم رؤيته أحد أقاربنا القادم من القرية، يصيح في انتباه متأخر: واللهِ يا مرحب.. يا مرحب.

إيقاظه لي من أجل صلاة العيد، وإلحاحه في قيامي لكيٍ ألحق بالفجر، مطالبتي بحلق لحيتي النابتة، دأبه ليلة السبت في كيٍ بذلته، واختيار الجورب والقميص، تلميع الحذاء الذي لا يلوثه أبدًا، كتابة قوائم الطلاب بخط يده، وضحكه من لوم أمي على أدائه لمهام ليست من مقامه.

إجابته على الهاتف:

- مَن؟

**يضع السماعة.. يناديني:**

**- إبراهيم.. كلم.**

**- مَن يا أبي؟**

**- لا أعرف.. يظهر عمرو.**

# ماذا تقول في الرحلة

طرقت الباب فانفتح.. انكشفت الغرفة بضوئها المنسحب من النافذة، رأيته. افترش سجادة الصلاة في غير اتجاه القبلة.. وضع وسادتين صغيرتين على طرفها، اتكأ بمرفق ذراعه اليسرى على الوسادتين.. بينما انشغلت عيناه في تقليب دجاجة عارية.

- ماذا تقول يا أبي؟

نظر لي نظرة لوم شقت دمعتين بين جفنيَّ.

- أترى أباك يا إبراهيم ((آخر الزمن)) يذبح دجاجة ويحاول تنظيفها؟

كان الطبق المركون بجوار السرير معبأ بأمعاء الدجاجة وبعض من دماها.

رفع أبي ذراعه اليمنى.. بينما أزاح الجريدة بيسراه.

- أهذه هي ((الأهرام)) يا أبي؟ ألم تقل إنها لا تصل هنا؟

أجاب ونظرة اللوم تتسع لتشق أربع دمعات ساكنة في المقلتين:

- ليست ((الأهرام)).. إنها جريدة غربية.

استطرد بشيء من الاندهاش المتأخر - كعادته:

- ولكن ما الذي أتى بك إلى هنا؟ ألم أتركك في مصر ترعى أمك وإخوتك؟

قفز عز الدين أمامي فجأة، اختفت سجادة الصلاة والطبق والدجاجة بينما ظل طيف أبي يحلق بين جفوني، جلس عز على المقعد.. أعطى ظهره لي.. يفر أوراقًا ويحدق في صورة معلقة لطفلة بيضاء ذات شعر أصفر وثياب حمراء تمسك باقة ورد.

- ألم تقل إنك مسافر اليوم إلى البلدة.. ثم ما سبب زيارات منتصف الليل؟

مددت ساقي على السرير (الذي يشبه السرير الذي جلس بجواره أبي).. أخذت أطراف الغطاء القطني نحو صدري.. التفت عز:

- أتريد النوم؟ لا.. لنتكلم قليلاً.

امتلأت الغرفة بأخوالي سليمان وصلاح وجمال ومحمود.. انطلقت ضحكات، الخال جمال يقفز فوق السرير.. وينقر بأصابعه على المكتب، اختفى عز عن المقعد.. بينما جلس الخال سليمان متأملاً في فضاء الحجرة.. مبديًا إعجابه بصورة الطفلة المعلقة.. سألته عن حال ابنته إيثار.. انفرطت الكلمات مع صوت سقوط قطرات الماء من الطبق المحمل بأمعاء الدجاجة:

- أبي أين ذهبت؟

- أنا هنا.. ما الذي جاء بك.. أرأيت يا إبراهيم؟

أبوك بعد هذا العمر يمسك دجاجة يقشر ريشها ويبقر أحشاءها..

هل ينزل البط إلى حديقة البيت.. ما أخبار شجرة الليمون.. إنه ليس موسمه - لكن اهتم به.

- أين أنت يا عز؟

- أنا هنا يا إبراهيم.

التفاته نحو الصورة، سقطت النظرة على شعره الناعم، وسترته المخططة، بدت ملامحه واضحة لكن أصوات الأخوال الأربعة، الصاعدة من وراء باب الغرفة - كست حواسي الخمسة.. انفتح الباب.. وجدت الخال جمال يحمل ابنه عبد العظيم، الخال سليمان يحمل ابنته إيثار، والخال صلاح يحمل ابنته أمينة، والخال محمود يحمل ابنته ولاء.. بينما تعلقت بأطراف هدبي صور ريهام وداليا.. ما كل هؤلاء الأطفال.. ما لهم جميعًا صامتين؟!

سألني أحد الأخوال:

- لماذا تأخرت عن المجيء.. ألم تقل إنك قادم ليلة الثلاثاء؟

قمت عن السرير:

- ما الذي يضر؟ تأخرت يومًا.

فتحت الباب متجهًا للاغتسال.. كانت غرفة الممر الأخيرة

مفتوحة الباب.. دخلت.. وجدته جالسًا بجوار السرير يبقر بطن الدجاجة.

إنه أبي.. أمسك قلبها، وضعه في الطبق، نظر لي مندهشًا:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟ المسافة بعيدة والتذكرة غالية والغربة وحشة.

جلست على طرف السجادة جوار السرير:

- أبي، ماذا تقول في الرحلة؟

- أضواء المطار ووجوه الأجنبيات.

- أبي، ماذا تقول في الغربة؟

- البعد عن أمك.

- أبي، ماذا تقول في الوطن؟

- حديقة في منزل به ابني الصغير.

- أبي، ماذا تقول في الأمن؟

- النوم عند الظهيرة وقراء ((الأهرام)).

- أبي، ماذا تقول في الحزن؟

- البكاء والناس نيام.

- أبي، ماذا تقول في المجهول؟

- طابق علوي تسكن فيه مع عروستك.

- أبي، ماذا تقول في الأخوال؟

- أين هم؟

- أبي، ماذا تقول في عز؟

- لا أعرفه.

الحجرة ساكتة، الأوراق ساكنة فوق المائدة، الصورة ثابتة على الجدار، الباب أصفر منغلق، النافذة موصدة إلا قليلًا تنفذ منه بقايا نسيم خارجي.

جلس أبي، وضع كفه الريفية الخمرية المشوبة بدوائر بُنية اللون، بطنها أبيض ناصع، والأنف مليح مشوب بحمرة بكاء رَحَل، وضع كفه على كتفي بينما امتلأت الحجرة للحظة ))بصورة أمي في جواز السفر القديم بجوارها صورتي مستندًا على كتفها برأسي الصغير محملقًا في الحزن)).. أخواتي.. شادي الصغير والأخوال وبناتهم.. عز الدين وصورة الطفلة.

انقشعت الصور.. ظلت كف أبي على كتفي.. بينما لاحت صورته على الجدار.. وخلف الباب.. جوار السرير.. على النافذة.

# أحلام أمي

كنت أخجل - لانفراط حزني وفرط قلقها - من النظر لها، هي أمامي تمامًا، وضعت كوب الشاي الساخن جوار الأريكة التي ألقي عليها روحي المتعبة، ولكنني لا أستطيع أن أنظر لعينيها، تجلس على أرض السجادة الزرقاء المفروشة وتسند ظهرها لحافة الأريكة المقابلة وتتردد هي الأخرى في الحديث لي، أمي.. أعرفها وتعرفني.

أمسك بكوب الشاي وحرارته تكوي غشاء مقاومتي، وجهها قبالتي، جميلة أمي ليس لأنها أمي فقط، بل تبوح صورة زفافها بذلك، قامتها الممشوقة ونضارة وجهها الصبوح، بياض بشرتها الحليبي، عيناها القويتان، أحمر الشفاه النحيل المرسوم فوق شفتيها، شعرها الأسود الفاحم المرسل على كتفيها، وقفتها في ثوب الزفاف الأبيض المنقوش وطرازه الستيني الصافي، وأبي ببذلته السوداء وقميصه الأبيض وشاربه المنضبط يمسك بيدها، بقفازها الأبيض وينظران للمصور.

حتى صورتها في جواز السفر حين لحقت بأبي بعد عام من الغربة

الأولى، كانت تفصح عن جمالها المالك، رغم حزن مطوي الجناح في عينيها وتسريحة شعرها المختلفة عن ليلة الزفاف وثوبها الأخضر (يبين في الصورة أسمر غامقًا) المنقوش بورد أبيض، وكنت أميل على كتفها برأسي (طفلًا في الخامسة تتنبأ عيناه اللتان سيبدو ضعفهما فيما بعد، بما يلقاه من أسى عند بوابة الخامسة والعشرين من عمره)، وتغاريد أختي في منتصف الصورة أمام صدر أمي، صغيرة ومنزعجة من الجلسة الصامتة، فحركت يدها وعبثت في الهواء الضيق، أما منى فقد كانت مثل القمر وقميصها يكشف عن نحولة جسدها وبراءة لن تدعها أبدًا، وهي تعقص شعرها ذيل حصان وتبتسم فتظهر أسنانها (ستشكو منها بعد سنوات).

أمي في جواز السفر هي أمي نفسها الجميلة، كتلك الصورة التي أرسلناها لأبي - في غربته الثانية - بعد صورتنا الأولى بعشرين عامًا. نقف في صالون المنزل أنا وأخواتي - زدنا عبير وشادي - وقد ابتسمت أخواتي وأنا بينهن ببذلتي الزرقاء ورباط عنق، بتنا جميعًا نضحك على تملصي منه وفشلي في الخلاص من حزمته حول عنقي - وأمي في حجابها الأبيض وثوبها البني الفضفاض بيننا جميعًا، تضع كفها على شادي صغيرنا الفطري، وقد أرسل أبي خطابه التالي يشكرنا على إرسال الصورة، ويغازل أمي التي كانت تضيء الصورة (لا يكف أبي بعد ثلاثين عامًا من الزواج عن مغازلة أمي وندائها باسمها الذي يدللها به).

نهضت أمي من جلستها إلى المطبخ، ثم عادت بطبق تُتوجه قِطَع البسبوسة التي أعشقها، وضعته جواري وهي تحفزني على أكله مع

الشاي وترفض أن أسمع كلام أخواتي وأنقص وزني وأكف عن الحلويات والأرز.

ثم عادت إلى جلستها ترقب شاشة التلفزيون، لكنها التفتت لي:

- كيف حالك في الشغل؟

كنت أحيانًا ما أعود من القاهرة إلى مدينتي، وعندما أدخل إلى المنزل أرى أمي تخرج من حجرة الاستقبال ممسكة بحقنة تفك إبرتها عنها في طبق بلاستيكي، أقبلها وأسألها: مَن معكِ؟ فتخبرني أنها السيدة هنيات، تأخذ حقنة كتبها لها الطبيب. تدخَل أمي للمطبخ للتخلص من الحقنة، أتابعها بعيني وأنا أصافح شقيقاتي، منذ سنوات صارت أمي مدربة على إعطاء الحقن منذ إصابتها بمرض السكر واضطرارها لحقنة صباحية قبل الإفطار، في البداية كان أحد الممرضين يحضر لنا، ثم انتقدت عدم انتظامه وتبكيره، فقررتْ أن تتعلم إعطاء الحقن لنفسها دفعة واحدة، وكان أبي - برقته العظيمة - يخشى من هذه التجربة، ويؤكد عليها أن الممرض سيحضر بانتظام بعد تأنيبه لكنها أبت، وتعلمت كيف تكشف ذراعها، ثم ترفع الحقنة، تُدخل السن في جلدها، تدفع ذراع الحقنة للضغط على السائل حيث حقنة الأنسولين الصباحية التي عرفت شكلها جيدًا، ثم تعلم شادي نطقها منذ طفولته المبكرة حيث يشتريها من الصيدلي، وكنا نتابع ارتفاع سعرها الموسمي ونقيسه بارتفاع الأسعار في كل شيء بالحياة.

ومن أيامها عرف شارعنا كله إمكانية الحضور لأمي كي تعطيه حقنًا كتبها لهم الأطباء، وبخجل مرحلي كان البعض يأتي لنا، وبعطف شديد كانت أمي تقوم بواجبها كجارة تنقذ جيرانها حتى صار الأمر

كله طبيعياًّ، بل وصار الرجال أيضًا إذا ما اشتدت بهم الحاجة لحقنة عاجلة يحضرون لنا طمعًا في مساعدة أمي، وكنا جميعًا نطلب من شقيقتي طالبة الطب أن تتعلم إعطاء الحقن لإراحة أمي، لكنها تعلمت ذلك بعد عام من تخرجها كطبيبة في الوقت الذي كانت أمي قد تفوقت عليها في خبرة إعطاء الحقن دون ألم.. لكن أمي - أبدًا - لم يأت لها قلب - كما كانت تقول - وتعطي أحد أولادها حقنة، حتى عندما مرضتُ في السرير شهرين بالتيفود لم تفعلها مرة واحدة؛ فقد كانت متفرغة لرعايتي وبكاء حالي ودعائها لي، وطمأنة أبي في الهاتف على صحتي.

تلتفت أمي لي:

- الوالد اتصل يوم الأحد.. وقال إنه بخير وسلم عليك كثيراً جدًّا، ألم تكتب له خطابًا بعد؟ على فكرة لقد حلمت ليلة المكالمة أنه مريض، وفعلاً كان صوته واضحًا فيه المرض في المكالمة، سألته: ما لك؟ فلم يجب لكن عرفت في النهاية أنه كان مريضًا ثلاثة أيام.

أمي سيدة الأحلام الطويلة، كانت تسرد أحلامها إما بعد استيقاظها مباشرة لأبي في غرفة النوم أو بعد عودته من صلاة الفجر، حيث يمكث في السرير يقرأ آية الكرسي ويسبح ويحمد فتحكي له - وتكون قد استيقظت وأنهت صلاتها قبله - عن حلمها بأبطاله وشخوصه وتفسيراته الممكنة أيضًا، أو تحكيه عندما يعود أبي من المدرسة.. يضع حقيبته في موضعها الثابت ويخلع ثيابه ويعلقها على الشماعة بإتقان ودقة غير طبيعيين، ويضع حذاءه تحت السرير في

مكان لا يتبدل أبدًا، وفي هذه الطقوس اليومية تحكي أمي حلمها، أو تسرده علينا جميعًا ونحن جلوس حول الغداء حين تقطع نصيبنا من الدجاج، وتمنحه لكل منا بينما تحكي حلمها. وأمي تملك قدرة على القص والرواية في حلاوة سرد ووصف مدهش واهتمام حافل بالتفاصيل الصغيرة، بل وتؤدي بصوتها بنفس طريقة نطق أبطال الحلم، أو تشرح بكفها معالم المكان الذي رأت نفسها فيه وتشبهه بمكان آخر نعرفه، وتعنى في روايتها بالألوان وملابس الشخوص وانفتاح النوافذ وانغلاقها أثناء الحلم، وإحساسها لحظة قيامها من النوم، ولأكثر من مرة تصحو أمي لفترة، تصلي أو تشرب ماء أو تطمئن علينا، ثم تعود لتنام فيأتي لها الحلم نفسه ويكمل صوره ومشاهده وناسه، وكانت تكرس خبراتها السابقة في تفسير الحلم؛ إذا ما جاء التفسير سيئًا تحاول أن تداري أنصاف الجُمل أو تبحث عن مداخل لتفسير آخر، أو تستشير أبي، أو تعصف بكل قدرات الأحلام على التحقق.

خشيت أن أسأل أمي: هل حلمتِ بي أخيراً؟

أجزم أن هذا قد حدث، وأدرك أنها رأتني مكدودًا محزونًا، وأنها حلمت بي أبكي فتاة شاهدت صورتها معي وأعطتها لابنة خالي الصغيرة حين دخلت علينا وقالت لها: ((شوفي يا أمينة عروس عمك إبراهيم)).

لكن أمي - يقيني الوحيد بدفء لا يبرد وحب لا ينتهي وبقاء لا يفنى - لم تخبرني بأحلامها الأخيرة عني (آخر حلم حكته لي أنني كنت أجلس على مكتب مثل الذي رأته في برنامج تلفزيوني مع

صحفي كبير، كان ((رغم هذا)) في وجهي تعب أو حزن ما، فكانت بين فرحها بي وحزنها عليَّ).

منذ سفر أبي لم تعد أمي تحكي أحلامها، واحتل أبي الغائب معظم أحلامنا.

قامت أمي من جلستها وفي سيرها نحو غرفة نومها سألتني:

- متى تريد أن تصحو؟

قلت:

- التاسعة كالعادة.

لكنها بدلًا من أن تتجه لغرفتها سارت نحوي:

- مالك يا إبراهيم؟ هل هناك شيء؟

نفيت متسرعًا وجلًا من تفتتي أمامها:

- أبدًا.. لا شيء.

عرفتْ أنني لن أجيب فاستدارت إلى نومها المتأخر؛ حيث تنام مبكرًا إلا في أيام وجودي، تسهر معي ساعة أو أكثر ثم تدخل للنوم المتقطع، فأمي لا تنام ساعات متواصلة على الإطلاق، أصابها الأرق بعد مرضها وسفر أبي وابتعادي وذهاب أختي للإسكندرية.

حين اختفى جلباب أمي عني، أمسكت عينيَّ بكفي لعلهما تتوقفان عن البكاء.. سمعتها عند باب غرفتها تفتح بابها وهي تدعو لي: ((ربنا ينوِّلك راحة البال يا إبراهيم يا ابني)).

**وعرفت أنها ستحلم بي هذه الليلة.**

# ذكر النخل

عبر المنحنى الملتف حول البيت ذي الطابقين، ألوان جدرانه فاقعة، تغطيها - في محاولة للتفنن - رسوم بدائية. التراب يعبئ كل الخطوات المتجهة على الأرض نحو الترعة المنسية على شمال الطريق. الماء أخضر منقوع في الطين الملوث. عدة إوزات وذُكران البط تغوص حتى قاعها في الترعة.. امرأة ألقت بساقيها في الماء الأخضر العطن.. تدلت ذراعاها تغسل أطباقًا نحاسية.. تسأل الأطفال اللاهين عن أمهاتهم مندهشة من جهلها لأسمائهن.. امتدت قدماه عابرتين الترعة.. راسمة آثار الحذاء على الأرض المسقاة بالماء المتفجر من فوهة الخرطوم.. يمسكه رجل بجلباب بني رفع ذيله في لباسه الأبيض من القماش الرخيص.. الله.. الكلمة مكتوبة فوق مدخل الجامع، حصيره الذي كان يترك آثارًا نفرح لها فوق جبهاتنا؛ علامة الصلاة البنية المكنونة تحت مقدم الشعر الظاهرة من تحت الطاقية هدية الحُجاج القادمين من أرض الحجاز.. على السفن المرسومة على جدران الجامع.. بجوارها الملصقات الانتخابية

الخضراء تتحدث عن الإسلام والمسلمين.. بانت الأضواء المنبعثة من الدكان على الناصية - رغم نور النهار المرسل فوق الطرق - الدكان مملوء ببضاعة المعلبات وواجهة زجاجية جانبية بها علب السجائر الحمراء المستوردة.. صراخ طفل على كتف أمه يطلب بسكويتًا فاخرًا..
ارتفعت عيناه نحو الطوابق الثلاثة التي علت الدكان.

- رُح يا يوسف.. هات زجاج لمبة نمرة عشرة من عند الفقي.

يجري الولد بجلبابه الأبيض الملوث بالعسل الأسود فوق صدره.. وفي ذيل الجلباب توطنت دوائر الطمي وبقايا التراب.. يقفز من عتبة الباب المرتفعة إلى أرض الشارع.. يعبر الناصية، يدخل الدكان المضاء بشمعتين فوق ((البنك)).. وجه الفقي المجعد بشاربه المفتول:

- رُح يا يوسف.. لا يوجد زجاج لمبات.

ثم يسترسل بعد جريان الولد خارج الدكان:

- سلِّم لي على والدك.

عَبَرَ الدكان وقد قفزت كل شرايين دمائه معسكرة في الصدر تمامًا.. تدفقت كل أحزان الأمسيات الراحلة وسنوات البلاد البعيدة.. ووجوه الموتى الغاليين أمام الباب الخشبي بالعتبة المرتفعة.. والضلفة المفتوحة على الردهة المبلطة التي تقود إلى باب الدوار الأسود الجهم بمفتاحه الفرعوني الذي كان يخبئه في ورق الجرائد الأصفر في قاع الحقيبة البلاستيكية.. على جانبَي الردهة المبلطة سقطت الأسوار

الصغيرة التي تحمي زروع الحديقة من ضغط الأرجل والأقدام.. مات العشب على أرض الحديقة التي كانت تحتل مقدمة المنزل - كما باتت الأرض قاحلة تمامًا - فوقها الحجارة وبعض الزلط الساقط بجوار سور البيت، تاهت معالم ((الطلمبة)) وحوضها المشيد بالطوب الأحمر، نخلة ذكر منسية مرتكنة على السور منذ سنوات الصبا البعيد، ذابت ذوائبها في ضوء النهار الراحل.. واستندت أغصان نحيلة على الهواء الثقيل.. لم يفق أحد في البيت إلا عندما أزاح باب الدوار، فارتجف القلب ناسيًا الحياة، مستقبلاً جرح الأيام المطوية في الصدر الضعيف.. قامت امرأة عن الإوزة المحشورة تحت فخذها وانتثرت حبات الذرة حول مكانها.. خرج رجل من الغرفة اليمنى بسرواله الأبيض وفانلته المخططة.. ظاهرة شعيرات ساقيه النحيلتين، وفي يده طاقية مغزولة من أرض الحجاز، انتشر الأطفال المنسيون حوله في اندهاشة الاستيقاظ فجأة.. تقلب شاب افترش سجادة صلاة على الأرض ووضع ثيابه تحت رأسه.. عادت عنزتان إلى الداخل حيث انتصب سلم حجري جديد يؤدي إلى مكان تكعيبة العنب القديمة.. نهضت حمامتان فوق درجات السلم.. كان هديلهما أوضح الأصوات في المشهد المثبت من الزمن.. كان الرجل أول من تحدث:

- أهلاً

ثم بصوت أكلته الدهشة:

- أه يا أستاذ يوسف.. أهلاً وسهلاً.. لا مؤاخذة أصل أنت... أقصد الوقت...

ثم قطع كل مشروعات الجُمل ودعاه للجلوس.. كانت امرأته قد قامت نحو الداخل في تثاقل، لكز الأطفال أخاهم النائم وسط الطريق فاستيقظ لاعنًا.. ولم يكمل عبارات السباب الشهيرة.. تناول الرجل جلبابه المعلق على السرير الظاهر من فتحة باب الغرفة، جمع طفل حبات الذرة، قبضت صبية على جناحَي الإوزة الملونة، بينما ظلت الحمامتان فوق السلم.. وانسحب هديلهما وسط الضجة، جلس يوسف على الأريكة المواجهة لباب المندرة، الباب نفس الباب، أربع ضلفات ثقيلة ومزلاج كبير، كانت في زمن أبيه دكانًا مفتوحًا على الناحية المجاورة ينافس دكان الفقي، بانت الأشياء الموضوعة في ((المندرة)) والصناديق القديمة - تلك التي كانت تستخدم في تخزين البضاعة على الأرض الأسمنتية - الطاقات المسدودة في الجدران والنافذة ذات القضبان العلوية وضلفتان من الخشب المعشق بالزجاج.

- مرحبًا أستاذ يوسف.. شرفت.

تغلب على ثقل الكلمات بين شفتيه واغتصب الكلمة:

- يا مرحبًا بك.

- تعالَ يا ولد يا يوسف.

وضع قدميه أمام ساقَي أمه المتربعة على الأرض بجوار باب الدوار.

- أنت ضربت أختك يا ولد، وأنا أقول عليك العاقل فيهم.

- خير يا أستاذ يوسف؟

- أبدًا، المسألة بسيطة.

- مسألة.. طيب، تشرب شاي؟

- شكرًا.. أصل أنا.. طبعًا أنا... لا أعرف من أين أبدأ.. لكن بصراحة نحن أهل؛ لذلك... أنا عندي عشم تسمعني للآخر.. وتأخذ كلامي بصبر.

- صبر! يا أستاذ يوسف أنت مثل أخي.. لكن لم تقل لي متى عدت من البحرين؟

يا أيها البحران المرسومان الجاريان الذاهبان القادمان المغسولان المالحان في قلبي.. يا والديَّ الراقدَين في مدخل البلدة تحت شواهد الطوب الأحمر. العارفَين ابنكما الوحيد على بناتكما الأربع.. ما باليد بعت.. ولا باليد استسلمت.. اسألا بناتكما.. زواج أحفادكما وأثاث المنازل الحديثة.. وديون الحياة المرة.. سفر الأحفاد الرجال للبلاد البعيدة.. والسعي نحو المال وسعي المال نحونا.. ما باليد بعت يا أبي - صاحب الصورة المثبتة في غرفة نومي أحمل نفس الملامح التي تثير اندهاش أبنائي - ما باليد يا أبي.. يا قلب ابنك صاحب الخمسين عامًا الذي عبأ الشيب رأسه وغطى الفراغ أسنانه.. ما باليد استسلمت لضغوط بناتك وبعت البيت الذي احتواك، تحتضن أمي في الليل وتحميها من برد يناير القادم من النافذة المربعة المطلة على شجرة الموز في الحديقة، ما باليد - والله - واسألا دمعي على الوسادة.. وكف زوجتي تربت على ظهري - كأني طفلها - تهدئ روعي وتسكن فزعي وتطيب خاطري وترمي المسؤولية على أخواتي اللاتي نسين البيت الكبير وعرفن بيوت المدن الضيقة الملقاة في حواري العواصم.

- يا أستاذ يوسف.. حصل حاجة لا سمح الله؟

- والله أنا محرج يا حاج فتحي.. لكن سوف أتكلم.

جاء الغلام بالصينية تحمل كوبين من الشاي الثقيل.

- يا بنت يا عائشة خلاص.. عجزتِ عن عمل شاي خفيف؟

- والنبي ما ذنبي.. مزاج ابنك يوسف يشرب شايًا ثقيلًا.

- طبعًا أنت عارف هذا البيت كان غاليًا عندي لأية درجة.. وطبعًا أنت تُقدر مكانة بيت العائلة عند الابن الكبير كيف يحمل له من حب وذكريات.

((اسكتي أيتها الدموع الصارخة في عينيَّ واحترمي نفسكِ وشيبتي وعينَي الرجل المترصدتين)).

هنا كنا ننام ويقرصنا الناموس حتى الوجع.. ويترك آثاره الدائرية الحمراء على أكفنا وظهور أيدينا وجبهاتنا، هنا كانت اليد الكبيرة تعلمنا أن الناموس عدو في الظلام، وكانت الأم تشعل اللمبة نمرة خمسة وتضعها في صينية مملوءة بالماء وتخفض شعلتها، فتظل مشتعلة طوال الليل حين يأتي الناموس نحو النور فتحرقه اللمبة ويسقط في الماء قتيلًا. نستيقظ في الصباح خالين من الدماء الحمراء.. نجري نحو اللمبة ونرى عشرات من الناموس الميت طافيًا على سطح الماء.

- ولولا الظروف لم يكن الواحد يفكر أبدًا في بيع البيت.. والآن والحمد لله الحالة تحسنت وأصبح من الممكن.. لو لم تكن

هناك معارضة من سيادتك.. وإذا وضعت في اعتبارك الظروف المحيطة بالإنسان.. لو لم تكن هناك معارضة ممكن يعني... أشتري البيت ثانية.

قال الجملة الأخيرة كمن أطلق الرصاص مغمض العينين.. ثم جرى.. نادت المرأة على زوجها.. قبل أن أفتح عيني في وجهه أستبين ملامح رأيه.. تمتم الرجل بكلمات لم أفهمها.. لكنني حمدت الله على انصرافه.. بل كدت أن أحمله بعيدًا عن وجهي.. دلف إلى الداخل.. كان الظلام قد احتل المكان.. وبانت بعض الأضواء الصناعية خلف السور المرتفع.. أشباح الحطب المرصوص فوق الأسطح المجاورة.. وغرقت الحديقة المهجورة في العتمة.

- أمي.. أنا أرى أشباحًا تمر أمام الباب.. طويلة ورفيعة.. سوداء. أدس رأسي في حجرها.

تضحك هي زاغدة أخواتي أن يصمتن:

- يا ولد الأشباح ليست هنا.. الأرواح في ((المندرة))، تنادي على السيد البدوي تجده أمامك.. يمشي من ((الناروزة))، وتنادي على إبراهيم الدسوقي تجده يجري على سقف المندرة.. هم بركة يا يوسف.

ظلت مقتنعة بهذه الدعاوى حتى ماتت، وكانت ترفض في إباء غريب الاقتناع أن هذه الأشباح التي تراها في المندرة.. هي ظلال العابرين في الشارع تأتي من ((الناروزة)) إلى السقف والجدران.

لو وافق الرجل على بيع البيت.. فسوف أزرع الحديقة بالخضرة

وأغرس فيها شجر الموز والجوافة والليمون والبرتقال واللارنج.. يا سلام على اللارنج.. ثمرته الحمراء المستديرة ومرارة طعمه المستحبة.. وأحضر أخواتي وأبناءهن مع أبنائي وسط الحديقة وأحكي لهم كل ذكرياتي وحكايات البيت الكبير.. وأرفع صوت المذياع على تعليق مباريات كرة القدم.. وأصرخ عند فوز الزمالك، وأدعو الشيخ محيي مؤذن الجامع يقرأ القرآن في صحن الدار وأعطيه هدايا في العيد.. وأذبح أضحية عيد الأضحى أمام القاعة وأوزع اللحم على الجيران والأقارب، وأنتظر في الصباح حضور أم محمد بإناء اللبن الرائب.. وأحضر المكتبة بكتبها العتيقة إلى الحجرة القديمة، وأقرأ الفاتحة لأمي وأبي كل يوم عشرين مرة وأستغفر لهما مائة وأعلق صورهما - أبي وحيدًا، وأمي مع أولادي - على الجدران.. وأشتري أثاثًا جديدًا وأعيد إلى البيت سرير أمي الخشبي.. الذي يتندر أولادي على تهالكه - لكن، هل يتحمل السرير مشوار النقل والسفر؟ هل يمكن إعادته سليمًا؟ هل يمكن؟ ولكن لماذا تأخر الرجل؟ لماذا ترك أطفاله المكان فجأة؟ عندما حرك ساقه التي أصابها خدر من طول الجلسة اهتزت المائدة.. انسكب الشاي على الصينية المزركشة.. ولم يستطع أن يخفي ارتباكه.

# أسماء هنا يا أبي

كان البحر يطهو وجبة الصباح، وشوشة في النسيم الرطب، ندًى معلق على رأس سعد زغلول؛ تمثال في الحديقة الخضراء الممزوجة بملح الهواء الثقيل.

فندق ((سيسل)) السكندري الملقى من جوف الماضي إلى إعلانات المياه الغازية فوق سطحه، الشارع المنحدر إلى البحر بسياراته وركابها.. بقلوب ينهبها الدوار.

كانت الإسكندرية تهرس قلبي تحت عجلات الترام الذي يقطع الشارع الموازي للكورنيش، أقف في الزحام المكبل بالهزيمة حول المركبة الضخمة ذات الزجاج الذي يخفي وجوه المسافرين عن المودعين؛ لون طحيني كنظارات الأجانب المثبتين على رصيف قطار الأقصر.

تعودنا إدارة أمور دموعنا عند السفر.. أبي يقاوم - كالرجال الجريحة - دمعة تهدم حصن الرجولة.. أمي تقضم توترها مع ضغط

كفها لأصابع أخي الصغير (أنا وأمي وأخي الصغير، لماذا نتقاسم دائمًا وجبة الوداع؟).

أبي - هل هناك حاجة لإعادة وصفه - يمد أصابعه مستقيمة، يهزها ارتجاف خفيف نحو حقيبة السفر كي يضعها في بطن السيارة.

أمد كفي لأساعده.

تمد كفها فوق يدي.. ناعمة.. طرية، بيضاء، ملفوفة بذوبان قِطَع السكر.

التفت نحوها.

التصقت كتفها بي وابتسمت، أفسحوا للنهر متسعًا، أفرزت الدهشة عرقًا، عندما همست بي:

- ألا تعرفني يا إبراهيم؟!

انكمشت جدًّا.

- أنا أسماء يا إبراهيم.

تقلصت تمامًا.

- أنا أختك.. ألا تذكرني؟ يوم لفني أبونا بالقماش الأبيض الناصع، واهتزت كفه تحيط برأسي الصغير في لفافتي مودعة عينيه وحضن أمي ولمسة كفك على خدي عندما تقفز فوق السرير رافضًا صراخ أمنا أن تترك ((أختك يا ولد))؟

ألا تذكر يوم كنت ترتدي ((الشورت)) القصير الأزرق والقميص

المخطط تقف في زاوية الصالة ((تبكي.. أين تذهبون بأختي؟))، ويومئ أبونا برأسه لأخوالي وهو يبكي؟

دخل إلى الحديقة وعند شجرة الليمون، أزاح زهر الليمون، جمع الثمار الساقطة، حفر قبراً صغيراً عميقًا.

إنني أراه للآن كلما عبر ناحية الشجرة.. أفرجت عيناه اعتقال دمعة.. وقرأ لي الفاتحة.

أنا أسماء يا إبراهيم.. لكنك كبرت.

تزلزل جسدي.. انفكت ((مسامير)) روحي تمامًا، جريت نحو السيارة التي تحجز وجه أبي عني، وقد ضغط السائق على زر فانغلق بابها في وجهي آليًّا جهمًا.

ضربت الباب بحذائي.

صفعت السيارة بكفي:

- اخرج يا أبي.. أسماء هنا يا أبي.

# لا تزال أمي تذكر حبيبتي القديمة والعصفور

((لا أكتب ما يقنع القلب بالنبض عندي
وما يقنع الروح بالعيش بعدي))
محمود درويش

ينزلق الطريق الزراعي السريع عند البرج - الذي طار عنه الحمام منذ أبصرت عيناي خلف النظارة - إلى شارع أسفلتي يتقاطع مع اتجاهَي الطريق، مؤديًا إلى مدينتي الصغيرة، لم أعد أعرفها إلا عندما يحتضنها الليل في فراشه وصمته.

الكازينو السياحي الجديد يرسل بعضًا من أضوائه الصناعية إلى الطريق المحاصر بالأبنية الصغيرة، وخط السكة الحديد الذي ينتهي بمحطة القطار الفقيرة.

تقف السيارة عند محطة البنزين ((مغلقة في هذا الليل الشتوي )) أهبط منها، حاملًا حقيبتي السوداء الصغيرة ((تلازمني حتى أفتقدها

عند انعتاقي من عبوديتها اليومية))، أرفع على كتفي - وقد ظهر كشك محطة السكة الحديد يقف فيه العامل الليلي واضعًا كوبًا من الشاي على حافة الشباك - أرفع حقيبة سفر تغوص فيها ثيابي الملوثة بالقاهرة، أصعد تلًّا ترابيًّا، متعبًا مخنوقًا بساعة كاملة من التفرع لأفكاري تحت سقف السيارة البيجو المحكم - أتجاوز شريط السكة الحديد.. قضبان حديد ممدودة تائهة في ظلمة متماسكة، أستبين لون إشارات القطار البعيدة للاتجاهين المتعاكسين في نظرة مختطفة كأني أؤدي واجبي نحو الموت.

أهبط تلًّا ترابيًّا آخر، أجدني على حافة حقل صغير يؤدي إلى شارعنا الأسفلتي الطويل، الحقل آخر ما تركته المباني المتكاثرة شهادة على آثار الخضرة التي كانت هنا.. ثم سافرت للعراق وللرحيل، عند المدق المصلوب في الحقل يقف صبيان يحملان كتبًا عائدين من حصة درس متأخر، يصرخ الصبي في هذا الليل المتآكل، تظهر صرخته مكبرة تلم هواء الحقل إلى زميله في الناحية الأخرى، يجاوبه بالصراخ، أمر على مسافة صراخهما إلى شارعي، البيوت مغلقة، المحلات تفتح نصف أبوابها وأضوائها، يرعى أصحابها بضاعتهم وأحداث المسلسل التلفزيوني أيًّا ما كان فشله. أصل لمنزلنا، تفرش مدخله الأضواء (يصر والدي الغائب على إضاءتها للعابرين في الشارع)، أدفع البوابة الخضراء، أصعد السلالم القليلة، أضغط على الجرس، يتأخر شادي كعادته في فتح الباب، ينفتح، تحضنني عينا أخي المبتسمتان، كيف حالك يا شادي؟ قُبلة في الهواء أو على خده (لا نهتم بإتمامها)، أدخل الصالة، تصافحني الوجوه الدافئة التي أحبها

وتحبني، ترسمني عيونهم فارسًا على حصان، بسيف وبسمة، بغزوة ونصرة، تلونني قلوبهم مبتهجًا ومنطلقًا.. وجه أمي (يا وجه أمي!) يبشرني بالجنة، ألثم كفها، رائقة هادئة تتلقاني، وفي عينيها ألف حكاية وتسعة أعشار أحاديثها المخزونة لي تتهيأ للانفراج، أضع ذراعي على كتف أختي القادمة من الإسكندرية، أسألها عن الحال، أبحث عن حذائي البيتي، تستنهض أمي شادي كي يجده مسرعًا، أخلع عني ملابسي، كأني أخلع عرق القاهرة، زحامها، طرقات المجلة الضيقة المقفلة، الابتسامات المدهونة، وجع قلبي، شارع قصر العيني المزدحم، غضبة صديقتي.

تسألني أمي:

- هل تأكل أم تستحم أولًا؟

ينطلق بخار الماء الساخن في الحمام، أخجل من تأخري فأتعجل سخونة الماء، تتكتل أحداث يومي على كتفي العارية، أخرج من الحمام مثقلًا وعصبيًّا، لا أطيق الكلام الممدود، تضع أمي وجبتها الساخنة الطازجة الكاملة، تجلس عن يميني تتابع طعامي، تحثني على إكمال وجبتي (وأكون قد أكملتها تمامًا)، أطلب منها كيَّ ثيابي، ينحني رأسها وقد انكسر أملها:

- هل تذهب للقاهرة صباحًا؟

تضيف:

- انتظر معنا غدًا.. طيب اجلس حتى الغداء.

أرد حادًّا كأني أخشى ضعفي:

- لا.. عندي شغل.

تفرد بنطالي على المائدة، تمرر المكواة فوقه، تسألني:

- هل كتبت لأبيك خطابًا؟ هل أرسلت له بطاقة معايدة؟ لقد اتصلت بك في المجلة لكن الأرقام كلها مشغولة.

كأني أجري من مدخل القاهرة حتى باب بيتي، فأشعر بالنعاس، تهم أمي بالاحتجاج ويشاركها غضب أخواتي:

- هل تنام الآن؟ امكث معنا قليلاً.

تصر أختي الكبرى:

- تحدث معنا يا أخي.

أفر من ضعفي لغضبي:

- يعني ماذا أفعل؟

أتدثر بالأغطية الثقيلة، أستيقظ من البرد، أصحو من النوم ملفوفًا بالقاهرة، بعينَي البنت الجميلتين، وضجيج صالة التحرير، وغضب رؤسائي، وجلسة مقهى الأصدقاء، وحزن منتصب القامة تحت عنقي، توقظني أمي وهي تقف عند باب الغرفة.. أضع كفي تحت ماء الصنبور، تتمهل أمي حديثها لكنها تبدأه:

- أمس رأيت...

أعرف أنها تقصد حبيبة قديمة.. ياه لا تزال تذكر حبيبتي القديمة!

- ادعي لي.

ألثم ظهر كفها، أحمل حقائبي، وأمضي نحو البوابة الخضراء، أسير في الشارع المؤدي للمحطة، أعلم أنها خرجت إلى الشرفة وأخذت تتابع خطواتي، حقائبي.. حزني.. وتدعو لي.

# الدم فوق السطح

دوران عباد الشمس

عبر القناة الضيقة التي تفصل بين أعواد القصب في حقل أبيه الصغير، يطل على شريط السكك الحديد القادم من المدن البعيدة للمدن البعيدة، الصباح يعلن عن نيته الأولى في إشعال الأرض شمسًا وأقدامه بالحذاء العسكري الضخم تصعد فوق كومات الأتربة الطينية التي شربت أولى قطرات الندى الصباحي.. مع سريان الماء الزاحف من الترعة المجاورة.. أحكم الحزام الأخضر المشدود حول خصره.. جذب عود قصب ملفوفًا بالأوراق الخضراء الخشنة، نزع أطرافه العلوية، وشرع في انتزاع غطائه القصبي، لكنه عاد فألقاه في أحضان الأعواد المنتصبة.. لقد تشاجر مع والده على زراعة هذا الحقل قصبًا؛ فالفلاح الذي يفلس هو وحده الذي يزرع القصب في القرية، ضغط على القبعة العسكرية فوق رأسه.. وخرج من الحقل للقضبان الممددة منذ طفولته في المدرسة والجري وراء الرفاق، قذف حجارة القضبان، التلهف على زئير القطار القادم.. الجري في الحقول وإلقاء الطوب

على نوافذ القطار الزجاجية.. صفارات الجنود النائمين والقائمين على سطح القطار تطغى على آذانهم الصغيرة، يجرون مبتعدين ولعنات الجنود تلاحقهم:

- امشوا يا أولاد الكلب.

خطف نظره الديزل الأحمر الرهيب الذي يقطع الطريق كما يؤكد زملاؤه المجندون في ساعتين فقط بين القاهرة والإسكندرية كلما ناموا فوق سطح قطار.. داعب الزميل زميله:

- جلسة ملوكية لا يحلم بها أبوك.

- قال يعني نائم فوق الديزل الأحمر!

كان الديزل الأحمر قد اقتحم عينه عندما لمحه واقفًا فوق القضبان معط عن الحركة.. لم يمهل نفسه للتفكير.. جرى.. اقترب من الديزل.. وضع قدمه اليمنى على الحافة الظاهرة من إحدى العربات، مد قدمه اليسرى نحو الحاجز بين العربتين.. ضم ساقيه على الكائن الأسود المطاطي الذي يجمع العربتين معًا، حضن بذراعيه سطح القطار، زحف بجسده حتى وصل صدره فوق السطح، رفع جسده دفعة واحدة، اندفع بقدميه فوق السطح.. استنشق الهواء العلوي.. فتح صدره لكل نسمات الصباح المراوغة.. ابتسم، ضحك، ضرب بكفيه صدره المنتفخ.. أخذ يجري فوق السطح.. محافظًا على توازنه.. فرد ذراعيه عن يمين وعن يسار.. وغنى لعبد الحليم حافظ أغنيته الأخيرة.. كان القطار ينسحب فوق القضبان.. يعلن عن عزمه في الانطلاق.. للحظة اهتزت قدمه اليمنى.. لكنه عاد فثبت جسده

على سطح القطار وهو يلمح القرية تبتعد، وتحضن نظراته المعلقة نبات عباد الشمس الذي زرعه عمه في أول القرية، في قيراط كامل تنتصب الأعواد بزهورها الصفراء المنتشية تستقبل الشمس المشرقة... تدور معها وتلف.. وتزهو بها وتجف.. كما علمه أستاذ الجغرافيا.. حياتها مع الشمس.. تموت إذا غابت.. وتنطفئ وتنكمش أوراقها على نفسها.

- يا سلام يا أستاذ!

## منفذ للخروج

كان جالسًا على المقعد المجاور للنافذة بعد أن اشتبك مع أحد الركاب على حقه في الجلوس مكانه، طالما يملك تذكرة محجوزة من المحطة، تدخَّل مفتش التذاكر.. رفض الراكب الرضوخ للحق.. زعق فيه.. وانتفضت كلماته الصادرة من فمه كطلقات الرصاص الطائش، أذعن الرجل أخيراً.. فعاد إلى مقعده المحجوز في القطار الأحمر الذي طالما حلم بركوبه حين يذهب إلى القاهرة في رحلاته المتقطعة لها بحثًا عن أختام أوراقه الرسمية.. فرد ظهره على المقعد.. وضع صحيفة الصباح في الكيس القماشي لظهر المقعد المواجه.. مال برأسه على الزجاج الذي حجز الشيش البلاستيكي عنه مناظر الحقول والترع.. والمدن الصغيرة.. وأرصفة المحطات التي تعبر أمام العيون.. نظر حواليه يبحث عن طريق إخراج هذا الشيش، خشي الحرج أمام الراكب المجاور ونظرات الرجل الخاسر لمعركة المقعد تتابعه بحقد

**لا يبذل جهدًا في إخفائه.**

**قرر أن يتقبل هزيمته أمام الشيش.. ويكتفي بقراءة الصحيفة عندما التفت للزجاج لعله يلمس منفذًا للنظرومنفذًا من الحرج، داهمته قطرات حمراء فوق الشيش، تلقي رذاذها على الزجاج، حملق بعينين فقدتا القدرة على الإغماض.. زحفت البقع الحمراء.. انتشرت.. بدأت تتساقط كبقايا قطرات الماء في صنبور منزله المعطوب.**

**ارتجفت فرائصه.. ارتعشت أصابعه وهي تبحث عن مكان لنزع هذا ((الشيش)).. قام مرتعدًا يتابع اتساع بقع الدم.. نظر حوله متلهفًا لاهثًا.. تخبطت أصابعه في المساحة المحيطة بالنافذة، أزاح الستائر الصغيرة.. أثار ارتباكه خوف جاره في المقعد.. التفت إليه الركاب برؤوسهم المطلة من المقاعد.. نهض جاره ومد يده نحو مقبض ((الشيش)) حركه.. وجلس.**

**بدا ((الشيش)) ينسحب من أمام النافذة، تصلبت نظراته على اللون الأحمر الذي غطى النافذة تمامًا.. أزاح قدمَي جاره.. داس على حذائه وهو يرتجف بالحمى.. جرى في الردهة بين المقاعد.. اصطدم ببائع المياه الغازية يجر عربته الصغيرة.. وصل إلى باب عربة القطار.. جذب مقبضها فامتنع.. استمات عليه فانفتح فجأة.. خرج برأسه من الباب بينما تشبثت كفاه بالأعمدة الطويلة المثبتة في جانبَي الباب.. نظر لسطح العربة وجد الجثة فوق العربة.. تطل برأسها.. تنسكب الدماء على النافذة والقضبان.. تتوه بقع الدم فوق الأرض التي ينهبها القطار نهبًا.**

## حطام الكوب الزجاجي

خرج من كشكه الصغير المبني بجوار المزلقان.. تهتز أخشابه وترتعد قوائمه كلما صرخت القطارات عابرة للمزلقان.. تعوَّد ارتعاش الكشك.. همود جسده فوق الأريكة الخشبية المغطاة بفراش بالٍ.. تطل عيناه كلما استيقظ من نومه المتقطع على الموقد الغازي وعِدة الشاي.. والمشجب المعلقة عليه ملابسه الزرقاء التي تنتمي لعمره الطويل في هيئة السكك الحديدية منذ هجر أهله وبلدته وسكن هذا الكشك.. يرفع يده بصفارته إلى فم خلا من الأسنان.. يطلق صفارته المحذرة من عبور السيارات المزلقان ساعة انطلاق القطار.. اعتادت أذناه أنين المزلقان تحت عجلات القطار.. والنفير المنتظم من إشارة المزلقان التي تحمل علامة الخطر والأضواء الحمراء المختفية في الصبح المضيء. وضع الكوب تحت فوهة إبريق الشاي الصفيحي كالح القاع.. صب السائل الأحمر الساخن.. المتعة الوحيدة في هذا النهار الطويل الذي يسرق عمره وأسنانه وظهره المحني، في هذه اللحظة سيمر القطار الأحمر السريع، يدهس الصمت وعجلات السيارات التي تمر في الطريق الزراعي منذ عشرات السنين، كان قلبه مطمئنًّا على كشكه الصامد في وجه الزمن.. حتى جاء هذا القطار الأحمر اللعين الذي هدد كشكه بالموت بزلزال مروع.. كانت أصابعه تتحسس جدران الكشك الخشبي بعدما يمر القطار.. يلثم بشفتيه الفراغ بين أخشابه كأنه طعم الشفاه التي لم يلمسها طوال سنينه البعيدة. امتلأ الكوب عن آخره.. أمسك به.. خرج من الكشك.. دقت الصفارات في المزلقان.. تعلن قدوم الوحش الأحمر.. اخترق القطار

الفضاء.. لمح بنظراته المكدودة جسدًا معلقًا فوق السطح.. تنهمر الدماء منه فوق الأرض، سقط كوب الشاي من أصابعه.. تكسر تحت قدميه.. ضاع صوت حطام الكوب تحت هديرالقطار.. بينما تصلبت قدماه في الأرض التي ينهبها القطار نهبًا.

دقات البندقية

أمسك بالبندقية الآلية القديمة التي تؤنس وحشته في خدمته الصباحية التي تمتد من ظلمة منتصف الليل حتى موعد قدوم القطار الأحمر الذي صار علامة لانتهاء خدمته.. ويجيء زميله ليتسلم عناء تصلب الساعات الممتدة من أجل حراسة الأنابيب الخضراء ذات الصنابير الضخمة المرفوعة فوق الأرض.. يجري البترول فيها للمنطقة الصناعية التي تبتعد كيلومترات عديدة عن شريط القطار.. جلس على المواسير الضخمة المتسعة الخضراء.. يراقب السيارات التي تمر على الطريق الزراعي كل ثانية من عمر خدمته.. شغل نفسه بعدِّها حينًا: واحد.. اثنين.. ثلاثة.. أربعة.. مائة.. مائتين وأربعين.. وستين.. ثلاثمائة.. ثم يذهب به الملل إلى حدوده الأخيرة.. فيغير من طريقته.. يصف لونها: حمراء.. خضراء.. بيضاء.. صفراء.. ثم تموت الكلمات وتتكرر الألوان حتى يفقد قدرته على اللحاق بها.. يدق بكعب بندقيته التي لم تخرج منها رصاصة واحدة الطوب المحشو تحت القضبان.. كان عمال الدريسة يسامرونه في الأيام التي أصلحوا فيها القضبان.. الشاي والغداء ومداعباتهم الخشنة.. ودقاتهم على الأرض.. رفعهم لأجوال الحجارة والزلط. وسيارات النقل التي تُرحلهم من مكان

لآخر.. ثم يرحلون وترحل معهم أحلامه في مرور الوقت الذي طال وكُتب له الخلود منذ تسلمه هذه المهمة الثقيلة.. لكن الزئير القادم من بعيد ينبئ باقتراب موعد عبور القطار الأحمر.. ومجيء زميله.. ثوانٍ ويعدو القطار ناهبًا الأرض نهبًا.. تصطدم الريح التي يصنعها بوجهه.. وتملأه الأغبرة من عبوره الصاروخي. اقترب القطار.. وانطلق.. لكن عينيه المفتوحتين.. التصقتا بالجسد المسجى فوق سطح القطار يهتز ويرتج ارتجاجًا.. الدماء تسقط منه والهواء يرمي سترته العسكرية عن جسده.. قبضت أصابعه على البندقية.. التي التصقت بكفه الخشنة التي ماتت عن الحركة.. فات القطار والجثة تسكن عينيه اللتين ارتعشت أجفانهما وتحركت يده على البندقية.. رفعها للسماء.. تصلبت أصابعه على الزناد.. وأطلق رصاصته الأولى من البندقية القديمة.. اختلط صوت الرصاص بصراخه المشروخ!

# أبلة ليلى

هي الإسكندرية في أول الصيف كما أعرفها، استدعت عطورها، وازَّينت واتخذت زخرفها، وتهيأت للمضاجعة.

... هو الكورنيش، بحر نائم في صباح فقد مناعته أمام حر مسيطر، ونسائم تسافر - في رحلتها - حتى خدود البنات يتأبطن أذرع الشباب المتعب بشعره الخشن وسمرته المؤكدة وعبء المسير المحتوم.

هي المقاعد الخالية، تحت لافتات مدهونة بالبياض، وموائد فوقها مفروشات تحمل شارة الكافتيريا ورمز الفندق، الخشب المعشوق المعمود فوق الفسحة المتسعة المطلة على البحر، والأكواب الزجاجية المقلوبة، استراحة النادل على مقعد منزوٍ، آخر بقايا كوب بيرة أمام كهل يرتدي قبعة مدكوكة فوق رأسه.

... هي المقاهي المغلقة على وجوه أصحاب المعاشات، اصطدام الزهر بحاجز الطاولة، خبطة مربع الدومينو، سطح الخشب

الرخيص، دوران ملعقة - مرتعشة - في الكوب الزجاجي نصف الملوث، الهاتف الأحمر فوق طاولة مدير المقهى يئن وجع نسيانه.

سيارات الإسكندرية الأجرة البرتقالية السوداء، هذا اللون المطلي على قلوب القادمين إلى هذه المدينة.

هو البحر مرة أخرى.. وجهي للبحر وظهري للمهزلة، تلك التي تأكل عظمي.. كل يوم فقرة، فتكسرني.

هل من الواجب أن أُحدث نفسي، أم أتذكر شيئًا آخر مختلفًا؟ ليكن يومي الفائت، البيت، القطار، لكن وجهها يطاردني وقد لهث نَفَسي وسقط عرقي وانحل جسدي.. وإذا به أمامي.. وجهها، فأبتعد فيدنو، فأدنو فيبتعد.

هل من المفيد أن أنساه، وأردد بعضًا من أشعار محمود درويش، أم يكون أفضل أن أتخيل قصة جديدة؟

تصافحني وجوه المتعبين في الكورنيش، أقف أداعب طفلاً رفعه أبوه فوق سور الكورنيش، صار يجري ويلاحقه، قهقه الولد ومال بجسده فأسنده أبوه محذرًا، عندما اقترب مني، وضعت كفي أمام صدره، طالبته برسم العبور، فزع الولد مندهشًا، ثم كشف اللعبة فضحك، ضحك أبوه وتشاركنا تعجل إنهاء الضحكة، ومضيا.

فكت بنت أصابع كفها من بين كف فتى، لما التصقت نظراتي بهما، ما بين خجلها وارتباك الفتى، انسحبتُ - بنظراتي - واستكملت خطواتي.

- ليس معقولاً أبلة ليلى!

كانت هي.. هي، القامة القصيرة - دون أن تبدو كذلك - الشعر الناعم المعقوص في ذيل حصان، المشبوك بمشبك أسود فيه إطار من الفضة، عيناها صافيتان واسعتان خلف النظارة ذات الإطار البني الخفيف (ألم تبدل إطار نظارتها؟!)، ورداؤها الأزرق المنقوط بالأبيض (نقاط كأنها الورد، كأنها الكائنات الغريبة، التشكيلات المجهولة).

هي أبلة ليلى.

عندما كنت أقف في نافذة الفصل في مدرستنا، ألمحها قادمة من عمق الحوش تمسك بحقيبتها وأوراق الامتحانات الشهيرة، يقفز قلبي الذي كان صغيراً ولا يزال، يدق بعنف، يصعد الدم لعيني (ضعيفة الرؤية ولا تزال)، ترتعش أطراف أصابعي، أشعر انسحابًا مفاجئًا في بطن صدري، تصعد درجات السلم، العلم يرفرف، تسير في الردهة المطلة على الحوش أمام الفصول، تعزف الأشجار نغماتها المنتظمة، تخطر فوق سلمنا، تنشد المقاعد أغنية عن الحب الجميل، تقترب من فصلنا، تفتح الباب، ينفتح قلبي، مئات من العصافير المزقزقة.

اقتربت منها فاكتشفت طفلة على صدرها:

- صباح الخير.

ابتسمتْ.. وهي تحاول اكتشاف أمري:

- صباح النور.

- ألا تذكرينني؟ ليس الأمر بعيدًا، لقد كنت طالبًا عندك في سنة أولى ثانوي، هل تذكرين؟ لقد كان هذا من ثماني سنوَات فقط،

لم تتغير ملامحكِ كثيراً.

ضحكت وقالت:

- أذكرك جيدًا، لقد كنت أفضل مَن يكتب موضوعات الإنشاء.

بان على وجه أبلة ليلى ذبول اقتنص وردتها، هي ذات العين، لكن لونًا بنيًّا أكمل دورته حولها، هي ذات الشفة المتسعة عن ابتسامة جميلة حلوة.

تهز ذكراها جسدي للآن، لكن خطًّا يكسر انطلاقها.

ياه.. لقد نحلت كثيراً، وسقطت كتفاها، وبانت عروق في ظهر كفيها. اقتربت منها وقد حاذيت سيرها في طريقي المعاكس:

- ابنتكِ، أليس كذلك؟

وأشرت إلى الطفلة تحمل ملامح أمها الأولى.

- نعم.

قالتها مبتسمة، وهي تلمح تطفل عابر لمسيرتنا.

هي ابتسامتها يا خلق، تلك التي كانت تعطر الفصل، عندما تجلس في ساعة الامتحانات، في القاعة المتسعة الطويلة، والمسافات المنتظمة تفصل بين مقاعدنا وأدراجنا، الكراسات المفروشة على الموائد، المسطرة الجديدة، القلم الممتلئ عن آخره حبراً، الممحاة المشتراة من المحل المقابل لبيتنا، القلم الرصاص الذي براه أبي وحسَّن سنه، وورقة رقم الجلوس عليها اسمي بخط رديء،وورقة الأسئلة المطبوعة وقد عبأها قلمي رسومًا وكلمات وعناوين لقصص

أفلامي الوهمية.

تجلس أبلة ليلى على مقعدها، أمام مائدة صغيرة، تقطع ورقة من كراسة لها تفردها ثم تطويها نصفين، ثم تطبقها على شكل رأس سهم من اليمين واليسار، تثني أطراف الورقة السفلية من الناحيتين، ثم تطبقها مرة أخرى، تغرق حتى أذنيها في العمل، وابتسامتها - آه - ملء شفتيها، تظهر أسنانها، تنغمس أصابعها - ملفوفة عليها دوائر ظاهرة من الخطوط والانثناءات التي كنت أحبها، تصنع أبلة ليلى مركبًا من الورق، تضعه أمامها، وتلصق نظرتها به طوال ساعات الامتحان، يضيع مني نصف الوقت، أتابعها، أصابعها فوق الورق، عيناها على المائدة، رأسها أمام المركب، ورداؤها، حقيبتها النائمة.

ضغطتْ على حقيبتها، ولمست كتف ابنتها النائمة والتفتت لي:

- ماذا تفعل الآن؟

حركت رأسي مع كتفي اليسرى.

- خالي عمل.. وقلب.. وعقل.

ضحكت وقد حاولت - بكفها - إخفاء سنتيها البارزتين.

- وماذا تفعل في الإسكندرية؟

- ما أفعله في القاهرة، أسير على الكورنيش - بحرًا أو نيلًا - وأتذكر ميدنتي نصف القروية، وأكتب قصصًا لا تنشر، وأحب ناسًا لا تحبني.

اخترقت شريط الصوت وسألتها:

- هل تذكرين أستاذ عبد الكريم المدرس الذي كان يحبك؟ نعم كان يحبكِ، ويطاردكِ في المدرسة دائمًا، وأطلق الأولادَ شائعة أنكما تتعانَقان خلسةً، يومها اشتدت بي الغيرة وعصفت بكياني كله، ولم أعد أعرف طعمًا لنوم أو لراحة.

اندهشتْ وتوقفتْ أبلة ليلى وسألتني:

- مَن أستاذ عبد الكريم؟

- أستاذ عبد الكريم مدرس الفرنساوي.

- لم أعرف أحدًا بهذا الاسم أبدًا.

- ليس معقولًا نسيتِه! ولكنه خطبكِ بالفعل.

- عمري ما عرفت واحدًا اسمه عبد الكريم.

- ماذا حدث يا أبلة ليلى.. كيف نسيتِه؟!

- ولكنني لست أبلة ليلى.. أنا اسمي منى!

# ليلة ظهور الخفافيش

طبقًا لتقارير الأرصاد الجوية، كانت حرارة الجو ٢٤ درجة نهارًا و ٧٢ ليلًا. وطبقًا لما أراه على نفسي، فقد شعرت أنني الآن قد أُدخلت جهنم في واحدة من أقل شرائحها حرارة، وتجري معاقبتي - لا محاسبتي - على شرور ارتكبتها بالتأكيد لإيماني الكامل برحمة الله وعدله.

وإلا.. ما كل هذا العرق الذي سيطر تمامًا على كل سنتيمتر مربع في جسدي النائم على السرير الخشبي في غرفتي المظلمة، يأتي إليها واهنًا فقيراً ضوء المطبخ، كنت متيقنًا أنه الحر الذي أيقظني من نومتي المتقلبة، وأنه أيضًا الذي دفعني إلى خلع النصف الأعلى لملابسي - على غير عادتي - وأتخلى - ربما لأول مرة في عهدي غير الملكي - عن عادة وضع رأسي بين الوسادتين.

كنت - حتى هذه اللحظة التي أمد فيها ساقي حيثما اتفق أو لم يتفق وأمسح عرقي بنصف ذراعي، وأمسح الأخيرة في طرف الملاءة ثلثي المتسخ - أشعر أن الحر هو السبب الوحيد ليقظتي، لكن خربشة

صغيرة تحت السرير أو خلف الصوان دفعتني للتيقظ الخائف.. ثم سَرت شائعة الهدوء، فحاولت النوم للمرة العاشرة في هذا الليل الأسود.

أغلقت عينيَّ ثم أعدت فتحهما كي ألحق بالمخبوء لي قبل اختفائه، لكن شيئًا لم يحدث فأعدت قراري لعينيَّ أن أنام.. وبدأت سلسلة ليلية عقيمة في التفكير لاستجلاب النوم، ثم التحايل عليه، ثم البكاء له، ثم التذلل ولعق حذائه، ثم لعن أمه ورفض الخضوع له حتى إذا جاء!

وقبل التماس آخر أطراف قماشة النوم الشفافة، أحسست جسدًا صغيراً يحلق فوق رأسي، ففتحت عيني مباغَتًا، لأرى طيف سواد بجناحين صغيرين يدوران فوق دماغي بالضبط، قذف الفزع بعبئه على يدي، فضربت بكفي الطائر، الذي ارتفع عن مستوى كفي ولف فوق السرير ثم توقف عند مسنده الخشبي، فبدا واقفًا مطمئنًا أمام مساحة الظلام المربعة المفتوحة من النافذة، تجمدت حبات العرق فوق جبيني، وخلف قفاي وتحت ثوبي الداخلي.

انتفضت مرتجفًا وقد عسكر الخوف فيَّ.

وقفت على قدميَّ وقد أسندت كفي على حافة السرير، ومددت ذراعي الأخرى مرتعشة تحت زر الكهرباء.

انبثق النور في سقف الغرفة، ففزع الطائر وأسقط نفسه خلف باب الحجرة نصف المغلق.

ساعتها - وللحظة بين انفكاك حبة عرق متجمدة وسقوطها فوق

قدمي - أدركت أن الطائر ليس عصفورًا بالمرة، واستكمالًا لسواد الليلة بحثت عن حذائي البيتي فلم أجده.. وارتبكت قدماي وتعثرتا في حافة السرير فسقطت على الأرض.

لم أشعر بألم انطباق عظمي، لكنني حاولت قدر استطاعة جبان في ليل ضد مجهول، أن أعثر على نظارتي المركونة جوار السرير، وعندما أمسكت بها أصابعي المرتعشة، قبضت عليها وارتديتها حتى تزيح غمامة عيني.

أسرعت نحو المطبخ، أمسكت بذراع المكنسة الخشبية، وعدت مرتفع النبض، مترنح الجسد، مذهول النفس، في أعلى درجات ارتباكي وتعثري.

لا بقاء لي في هذه الغرفة أو في الشقة بأكملها ما لم أقضِ على هذا الطائر، أيكون خفاشًا؟ يا نهار أسود.. يا أمي.. (أين تَماسك كفيها وهي تحاصر عصفورًا دخل من الحديقة لغرفة نومنا؟)، يا عز.. (أين أنت يا صديقي الخائن؟).

أزحت الباب قلي حتى أتمكن من الطائر المجهول، فانطلقتْ من خلف الباب خمسة خفافيش سوداء بأجنحتها الصغيرة الحادة، ورأسها المجهول وجسدها الطائر.

صرخت مفزوعًا وقد احتكت الأجنحة برأسي وأعلى كتفي، حاولت - مجنونًا - أن أضربها بذراع المكنسة لكنها انكسرت فجأة.

صعدت الخفافيش فوق قوائم السرير، مسانده، على الملاءات، فوق الوسادتين، ثم طارت محلقة في أركان الغرفة أمام النافذة.. على

الحائط.

شللت تمامًا.

مرعوبًا وقد طفرت الدموع على بوابة العين المغلقة وانزلقت النظارة حتى طرف أنفي. أغلقت باب الغرفة بعنف مشتت.

ووجدت نفسي أسقط أمام الباب في الصالة الضيقة، أستند على مائدة طويلة بمفرشها البني الغامق، ونور الغرفة المكتوم يشتبك مع نور المطبخ على البلاط العاري، حاولت النهوض وأنا أسمع طيران الخفافيش وحفيف الأجنحة واصطدام الأجساد، لكنني عجزت عن إيقاف انحدار رعبي من قلبي حتى أنامل قدمي اليسرى التي كان من المفروض أن أستند عليها لحظة قيامي.

ومن باب غرفة المكتب ((قام عز بتقسيم الشقة إلى غرفتين؛ واحدة للنوم والثانية للمكتب والاستقبال))، لمحت انفتاح الباب الموارب وخروج الخفافيش في مربع ناقص ضلعًا نحو الصالة.. قبضت أصابعي على مسند المائدة، وعدوت نحو باب الشقة، فتحته ((كيف؟ لا تسأل)) وأغلقته خلفي، لأجد نفسي أمام باب الشقة نصف عار، غارقًا في عرقي، بلا مفاتيح، حافيًا دون حذائي، مرعوبًا ومطاردًا، ربمًا أكسبني اليأس بصيصًا من العقل، ومع استطراد سريع للآيات القصار التي أحفظها من القرآن الكريم، قررت أن أهبط للبوابة العجوز، هبطت السلالم المنحدرة بآلية يابانية ورعب مؤصل حتى وصلت لباب البدروم، طرقت الباب بعنف.

استمعت لانسحاب الحذاء على البلاط، لارتكان اليد في الظلام،

لهمهمة اللعنات المكبوتة، خرجت البوابة وقد أمسكتْ بحافة الباب دون فتحه نهائيًّا، استوضحتْ ملامحي في الضوء الخافت المرسل من مصباح معلق فوق مدخل البناية.

- مَن أنت؟

- أنا الساكن في الشقة العليا، في الشقة خفافيش.

استغلق عليها الفهم، فاستوضحت حروف كلماتي، أكدت عليها نطقي: خفافيش.. في الشقة خفافيش.

تبينت رعبي وشكلي الضائع تمامًا.

- طيب وماذا أفعل يا بني.. عمرها ما حصلت عندنا أبدًا.

- لا أعرف من أين جاءت.. وقد أغلقت الباب وليس معي مفتاح.

دون أن تنبس.. دخلت ثم عادت تحمل مفتاحًا صغيراً قدمته بأصابع تائهة في الظلمة:

- خذ.. هذا مفتاح آخر.

ثم أطبقتْ ضلفتَي الباب، واختفت.

كانت صدمة المقاومة منفردًا قد نحرت محاولة إقناع البوابة بالصعود معي، قررت أن أصبح رجلًا (كم مرة يقرر الرجل أن يصبح رجلًا ولا يفعل؟!)، وأصعد وحدي للشقة.. تقدمت نحو السلالم، أصعد الدرج مهزومًا سلفًا، وقد أحسست بجسدي خائر القوى، متحلل الأطراف، مدفونًا في العرق، تمسك بتلابيب أفكاري صورة الخفافيش، رعب التباسها فوق عيني، كارثة النوم في الشقة مع الوجود

الحر لها، أملي الخائب في حضور النهار، مصير قلبي بعد توقفه المؤقت من الخوف، نظرت لقدمي الحافية، صدري العاري، بنطلوني المبلول الملوث، قدمي المتربة المجروحة، المفتاح الصغير في كفي.

قبل أن أصل لطابق شقتي، استدرت نحو باب جاري، طرقت الباب، ثم ارتفعت الطرقات (المفترض أنها طرقاتي).

جاء الرد متأخرًا مبهوتًا.

- مَن؟

ثم دارت في فتحة الباب دورتا مفتاح.. شريط النور القادم من انفراجة الباب أوضح ملامح الرجل الخارج لي، أعاد في دهشة السؤال:

- مَن؟

بجرأة مستوردة طازجة من اليأس.. أجبته:

- أنا جارك في الطابق الأعلى، شقتي مملوءة بالخفافيش لا أستطيع أن أنام، هل يمكن أن تأتي معي لطردها؟

هل ابتسم الرجل؟ لا أذكر، ما هو مؤكد أنه فتح الباب عن آخره، فاندفعت منه عشرات الخفافيش بأجنحتها وأجسادها السوداء الصغيرة، تخرج من شقته من فوق رأسه، تقتحم وجهي، وتهز جسدي، وتسيطر على الوجود!

# صباح النهايات

كان الصباح مدهونًا بدموع سقطت من عين أمي (شعرت بُعد زوجها عنها وغياب ابنها الكبير فجأة قبل نهضة صحوها لفتح بوابة منزلنا في المدينة الصغيرة).

كان الصباح ليس فُلًّا ولا عسلًا كما يصر صديقي لمًّا يدير قرص الهاتف سائلًا عني.

كان الصباح مرسومًا على حدود البنايات وفوق أسطح المركبات العامة، وحول السيارات المنصوبة في إشارة المرور المتوقفة.

كان الصباح محفورًا على أطراف أوراق الصحف (مكدسة أمام البائع الجالس على مقعد خشبي، ظهره للعابرين، ووجهه على درج نقوده).

كان الصباح ملتصقًا بفروع الشجر الفقير المغروس بين قضبان حديد مطلية بالخضار كأنه يعوض عاهة النبت الميت.

كان الصباح مدفونًا تمامًا في صدري.

((آه يا صدري، يا بكاء ليل مضى وحزن نهار قادم!)).

وكانت يدي التي عاشت رعشتها الأولى في اليوم الفائت - تحضن - في ضلالها الأخير - يد الحقيبة (ألا يجد الغريب يدًا إلا يد الحقيبة ليحضنها؟!).

وكانت عيناي جاهلتين بهجائية الملامح المرسومة السائرة أمامي، خلفي، عن يميني وعن شمالي.

يقول الطبيب المعالج لابنة خالي الصغيرة إن حرارة جسدها المحدود بتفاصيل الطفولة، مكتومة.

وقالت أمي يوم صعدت لجلدي كرات من تفجر الورم المؤقت إنها حالة نفسية.

وأخبرتني أختي عن حالة لقيتها في المستشفى لولد رفض أن يكشف بطنه لتتدرب عليه طالبات الطب.

وقص عليَّ رفيقي حكاية الجندي الذي عطش جدًّا فذهب إلى ((فنطاس)) المياه في المعسكر؛ فوجده فارغًا إلا من بصيص ماء - ربما لم يكن موجودًا - فحاول أن يصل إليه بكفه فسقط.. فمات.

وحكى لي أبي عن زميل له، كان يكتب الشعر عن أهله ولأصدقائه، وأنه كتب يومًا في عيد ميلادي (أنا) مقطوعة شعرية تنبأ فيها بأنني سأكون شيئًا عظيمًا.

وضحك عليَّ عز الدين يوم قال إن في الغرفة ثعبانًا قصيراً، فلما فزعت، راهن أنني خفت بالفعل، وكان صادقًا فلم أكذبه.

وكنت حزينًا جدًّا(يا أمي)، كنت محفورًا على هيئة إنسان في جدار الهم الصخري المستقر وكانت كف لعينة تمسك قلبي وتدلكه وتدعكه وتدهسه وتلفه وتفرده وتمزقه وتربطه وتغتصبه بسبابتها وتضربه على قفاه وترسمه على هيئة فاحشة وتفرد أصابعها لتضحك. ثم تقبض عليه بغلظة وتصفعه.

كنت لا أريد - والله - أن أستيقظ من نومي، كنت أتمنى أن أرى الصباح صباحًا في الآخرة، أو لقاء في أول أعتاب الحساب، وكنت أرى ساعتها نفسي في حشد الحشر، والناس مكتظة خائفة مرتجفة مبهوتة، يذهل الوالد عن الولد، والأم عن ضناها، ولكنني كنت واثقًا (لماذا؟) أنني سأعرفها وسأقف بجوارها وسأبتسم لها وأغازلها وأطلب منها أن نسير قليلاً حتى يأتي موعد حسابنا.

قمت عن السرير، وأنا أقطع شريان التفكير فيها لتنتحر أفكاري تمامًا قبل أن تبدأ الساقية اللحظية، حيث لا تكف كل أجهزة ومراكز المخ عن ضخ اسمها وذكراها ووجهها ورسمتها وشفتيها ولون فستانها وشكل حقيبتها وصوت ضحكتها وانبثاق ابتسامتها وشروق خطوتها.

اغتسلت وارتديت ثيابي وأنا أطارد هروبي، خطفت درجات السلم وهبطت للشارع، وصعدت للمركبة العامة، ورفضت فتح صفحات الرواية، ونزلت لمحطتي، وسرت في الشارع الذي جئته عودًا أخضر وقلبًا نيئًا وريفيًّا مغموسًا ببراءة أحلامه، ودعوات أمه وثقة أبيه.

وصعدت نفس السلم.

وفتحت نفس باب المصعد.

وتقدمت إلى ذات المكتب.

وارتكبت فُحش البقاء في هذه المدينة وزِنا أحلامي في فخذها العاهرة.

فررت من المكتب إلى الشارع، وعانق الأسفلت دمعي المسكوب ودهست الكعوب الثقيلة على دمعة ساخنة راقبتها في صمت تلتصق بكعب حذاء أسود.

ومضيت في هذا الصباح.

أعلنت أن قصتنا فاشلة ويجب أن تنتهي.

وصرحت أن الاستمرار ذنب وخطأ.

وأضافت أنها تعزني وتريدني صديقًا، ولا تريد أن تكره أيامي أيامها (أيامنا)، ولحظات ودِّنا الطاهر وصوت المذياع الذي سمعناه معًا يغني عن الحب!

ومضيت في هذا الصباح.

تقدمنا على حافة النهر المستباح للمراكب (الحقيقية والورقية) للصيادين، لبول الصغار، للشجر الشيطاني، لأحذية جنود الأمن المركزي، لصانعي الشاي الرخيص.. اقترب منا بائع الفل، يحمل سخفه فوق عناقيد الفل المربوطة بخيط هش.

- فل؟

تجاوزناه صامتين، اقترب آخر يحمل نفس العناقيد، تجاوزناه متجاهلين، ألح ثالث فدفعته بيدها متذمرة:

- قلنا خلاص.

ثم خبأت ابتسامتها في صدر كتبي.

ومضيتُ في هذا الصباح.

أناملها مرتعشة تكتب بسن قلم أزرق مترنح أغنية أحبتها لي.

ومضيت في هذا الصباح.

وقفت أمام بائع الفطائر والحلوى، قدمت أوراقها المالية المطوية في كفها.. التفتت إليَّ مبتسمة ثم تناولت الفطائر في الكيس الشفاف، امتدت يدي فحملته عنها.. فأكملَت ابتسامتها.

ومضيت في هذا الصباح.

سرنا في الشارع الذي يعاني أفول الحركة اليومية وتساقط أبواب المحلات على أقفالها، واستيقاظ أنوار المصابيح المستضعفة، ودعتني إلى مشروبها المفضل، امتدت أصابعها ترفع ((الشفاطة)) إلى شفتيها وهي تزيح خصلات شعرها عن جبهتها.

ومضيت في هذا الصباح.

دفعتني بكفها للوراء وهي تهلل فرحة، تصرخ:

- أنا صح.

ثم تكمل دورة فرحها مازحة:

- احفظ الشعر قبل أن تردده، ولا تتشاجر معي حول صحة كلماته.

ومضيت في هذا الصباح.

في منتصف المكالمة.. نظرت للهاتف، لا أعرف ماذا حدث!

كانت صامتة.

وأحببت صمتها الصارخ في الهاتف.

ومضيت في هذا الصباح.

- مالك؟!

كانت تقولها.

ومضيتُ في هذا الصباح.

قصت عليَّ حكاية الولد الذي غازلها يوم عودتها من المدرسة وقالت لي إنها كانت تنظر للأرض طيلة الوقت حتى وصلت لشرفة منزلها، ثم فتحتها لترى وقوف الولد على الناصية.

ومضيت في هذا الصباح.

اشتكت لي ثقل دم صاحبتها، سألتها عني واستفهمت عما بيننا.

ومضيت في هذا الصباح.

- لأجل خاطري لا تغضب.

وكنت لا أغضب.

ومضيت في هذا الصباح.

طلبت منها صورتها.. فاتسعت عيناها وأطرقت برأسها ووافقت.

ثم نسيت.

ومضيت في هذا الصباح.

قفزة قلبي لما رآها.. تفتق خلاياي، تدفق دمي، رعشة رئتيَّ، ارتباك عينَيَّ، تثبت قدميَّ، اندفاعي نحوها، التصاقي بالهواء المحيط بها، احتضان قلبي لجسدها كله: لشعرها، لعينيها، لنقوش ردائها، لحزام حقيبتها، لخاتم يدها، لحليب بشرتها.

لا أرى سواها، وكل الوجوه المحيطة محض خطوط.

لا أسمع غيرها - كل الكلام بعدها خرس.

أسلمها نفسي.. وضمانها ابتسامتها.

ومضيت في هذا الصباح.

أنت المبتدأ والمنتهى، لا أريد إلا القرب منك.

ومضيت في هذا الصباح.

أهدتني قلمًا لأكتب به قصة.

ومضيت في هذا الصباح.

لمَّا جلستْ على المقعد الخلفي جواري في سيارة الأجرة تبادلنا نظرة على جسر الهواء الفاصل بيننا.

تشاجرنا مَن يدفع أجرة المشوار.

ومضيت في هذا الصباح.

وقفنا عند ناصية شارعها.

- لا أريد أن أرحل.

قلت.

- ولا أنا.

قالت.

ومضيت في هذا الصباح.

كنت قد وصلت حتى نهاية الشارع، وكانت الإشارة مفتوحة لكي أعبر لأغرق في الميدان، لكنني رأيت على الطوار الآخر أمي تقف وهي تضع كفيها على صدرها ممسكة بمنديلها الصغير، بجوارها أبي (كيف جاء الآن؟ لم يقل إنه سيصل مبكرًا)، يتلفت حوله، مرتبكًا منتظرًا توقف الإشارة، يمسك بمرفق أمي حتى لا تخطو خُطًى نحو خطر ما، وكان شادي يقف بينهما في يده قصة للمغامرين الخمسة (أهداها لي تلميذ أبي وأنا في السابعة من عمري)، وكانت أخواتي، يقفن يتبادلن حديثًا بينهن، وكانت كبراهن تنهرهما عن شيء مبهم، وكان أخوالي جميعًا بأولادهم يقفون على نفس الطوار يحيطون بهم، في أكفهم وعلى صدورهم أطفالهم الصغار يعبثون ويبكون ويصرخون ويضحكون ويطلبون ثدي أمهاتهم ولعبًا معلقة أمام بائع متجول.

وقررت أن أعبر إليهم، لكنني شعرت أن في الأمر خبالًا وخيالًا وأن المشهد بأسره نهاية قصة، أو قصة نهاية، وأنه ربما كانوا جميعًا

سطورًا في قصتي فقط، ولم يأتِ أحد منهم إلى هنا (ما الذي يأتي بهم إلى شارع قصر العيني؟).

فقررت أن أعود في هذا الصباح.

((لماذا لم أبكِ حتى الآن؟)).

# الطريق إلى باب زويلة

**((بقاياك للصقر**
**من أنت كي تحفر الصخر وحدك؟!))**
**محمود درويش**

## (١)

**عندما خرجت من منزلي القاطن بعطفة الأخضر المتفرعة من شارع باب البحر بحي باب الشعرية.. غصت في زحام المناكب.. ضجيج الزحام المتكتل أمام الحوانيت الضيقة.. البائعات افترشن أرض الزقاق بالجرجير والفجل وبعض من أعواد البقدونس والنعناع وقد ألقين ملء كوب من الماء البارد على لفائف الخضرة.. يهتفن على بضائعهن الفقيرة.. دفعني مملوكي ضخم الجثة يحمل وراء**

حزامه خنجرًا دقيقًا، أفسحت له الطريق مسرعًا.. شدتني مقاعد الحاج أبو سعادة الذي أعلن أن الغلاء أصاب بُن اليمن السعيد فارتفعت أسعار المقهى.. واسألوا أصحاب الضرائب والمكوس والجمارك.. أشار عليه أحدهم أن يشتري من بور سعيد.. فأومأ معجبًا بالفكرة.

## (٢)

عندما جلست في مقهى الحاج أبو سعادة وطلبت القهوة ذات السعر الجديد. ملت بمقعدي الخيزراني نحو الأريكة الخشبية التي جلس عليها الكَثيرون يشربون الشاي بالنعناع.. وحلبة حصى.. في حين كان آخرون يدخنون النارجيلة.. سرقت عيناي صورة جمال عبد الناصر.. مكتوبًا تحتها أن الاحتفال بذكرى ميلاده سيتم في مركز عابدين.. تأملت في عينيه ونظراته الحزينة.. فسألت عنه.. أجابني صبي المقهى أنه لا يعرفه بل ولا يرى صورته على الحائط.

تقدمت امرأة متسربلة في ثياب سوداء.. غطت الأرض وتدوس عليها.. انحنت بقرب أذني وسألتني عن باب زويلة.. أجبتها مندهشًا:

- وما الذي أتى بكِ إلى هنا؟

جلستْ على الحصى وأسندت ظهرها لجدار المقهى.. أخذت تقص عليَّ قصتها منذ مجيئها من قرية الرمالي حيث تاه ولدها فأخبرها القوم بالبحث عن باب زويلة.. ذكرتني السيدة بوجه أمي وهدى سلطان. فأشرت لها نحو الطريق البعيد.. شرحت لها طويلًا.. لكنها

لم تفهم شيئًا.. ألقيت للحاج بالدراهم.. وأخذتها من يدها وذهبنا نحو باب زويلة.

## (٣)

عندما ذهبنا - أنا والمرأة - نحو باب زويلة بحثًا عن ابنها.

كانت الأحصنة قد اجتمعت في الميدان.. وأشار قائد الحرس للعابرين ذهابًا وإيابًا بالتوقف.. والتماس طريق آخر بعيد عن الميدان.. توقفت سيارة ضخمة نزل منها عساكر كثيرون يرتدون حُللًا بيضاء.. يمسكون هراوات سوداء من معدن مرن.. ويحملون دروعًا سوداء أيضًا.. في حين انشغل آخرون بتعليق عدة لافتات على الأبنية وفي عرض الشوارع.

قبضت على يد المرأة التي أبدت دهشتها من بناء الكوبري العلوي.. وسألتني عن كنهه.. فأخبرتها أنه لا وقت للسؤال في هذه المدينة يا أمي.. سِرنا نحو الشوارع الخلفية.. وجدتها أمامي هكذا تلتصق كتفها بكتفيَ.. صرخت:

- مَن.. منال؟!

وضعت رأسها على كتفي وهي غير مصدقة للمفاجأة، أمسكت حقيبة كتبها. سألتها عن أخبار قصر العيني والطب والمرضى المساكين.. ألحت عليَّ أن أركب معها الحافلة رقم ٢٨ المتجهة لعين

الصيرة، أخبرتها أن في يدي امرأة غريبة.. تبحث عن ابنها.. نظرت منال نحو المرأة.. احتضنتها وأخبرتني أنها تُذكرها بأمها وهدى سلطان.. دعتنا لزجاجتين من المياه الغازية في مقهى مجاور خلف الميدان.

## (٤)

... عندما دخلنا - أنا والمرأة ومنال - إلى المقهى لنطلب زجاجات المياه الغازية.. اقترب منا شاب في مقتبل العمر.. أشار إلى مقاعد ثلاثة وراء مائدة دائرية.. جلسنا. أخذت منال تحدث المرأة التي ظلت تقص حكايتها بنفس التفاصيل عن ابنها وباب زويلة، عبث في قلبي الشك.. حينما لوح أحد الجالسين في المقهى.. التفت فلم أجد غير هذا الرجل الجالس وحيدًا يشرب شايًا ويلعب في شاربه.. يحرك مبسم النارجيلة شمالاً ويمينًا.. أشار لي ملحًّا.. فتجاهلته.. قام.. اقترب من مائدتنا.. قال بلهجة خشنة:

- السلام عليكم.

أجبناه ملهوفين على معرفة ما وراءه.. صمت لحظة بعدما جلس بيننا ثم تحدث هامسًا:

- ألا تعرفونني؟!

أجبناه نفيًا.. ظهرت علامات الحزن والأسى على وجهه.. قال

بلهجة أقل خشونة وأكثر حزنًا.. أنا علي فهمي زميل أحمد عرابي في ثورته.. جئت من المنفى منذ أيام.. لم يعرفني أحد.. قص لنا قصة الثورة العرابية من بداياتها.. لكنه لم يكملها حين شك أن أحد الجالسين في المقهى من أعوان الخديو توفيق.. نهضنا بعد أن أصر على دفع الحساب.. سألَنا عن وجهتنا فأخبرناه.. فجاء معنا نحو باب زويلة.

## (٥)

عندما خرج علي فهمي معنا - أنا والمرأة ومنال - نحو باب زويلة. كانت أقمشة غالية الثمن معلقة خلف نوافذ زجاجية حيث وقف شهبندر التجار يراقب عملية البيع.

مناديًا بعض المماليك الواقفين على أبواب الشوارع ومداخل الميادين.. فرغ العمال من تعليق الصور الضخمة على الجدران العالية.. وتساءل علي فهمي عن معنى ((توبس)) المكتوب على تلك العربات الضخمة ذات العجلات السوداء.. أعلنت المرأة رغبتها في شرب الماء من ((زير)) بجوار أحد الدكاكين.. انتفضنا جميعًا حينما أسرعت خيول وعربات حربية نحو الشوارع.. رافعين السيوف والأعلام والبنادق.. جارِّين المجانيق.. يتقدمها رجل قصير يحيونه جميعًا باسم ((بونابرت)).. اندفعنا إلى طريق جانبي.. ألقينا بأنفسنا جوار مقعد خشبي طويل مخصص لرجل نوبي يرتدي جلبابًا أبيض..

سألناه عن أقرب طريق لباب زويلة.. امتعضت ملامح وجهه الأسود.. بانت أسنانه ناصعة البياض وهو يشير لنا بالطريق الذي نتجنب فيه جيوش ((بونابرت)) وإعلانات ((توبس)).. أخرج من جلبابه مصحفًا مكتوبًا بخط اليد.. أهداه للمرأة حيث كان الجزع باديًا على وجهها.. وانصرفنا مسرعين.

## (٦)

تساءل الناس في صباح اليوم التالي عن تلك الرؤوس الأربعة الغريبة المعلقة على باب زويلة منذ ليلة أمس!

## شق الأنفس

فلما همَّ بها وهمَّت به...

قيل لها:

((إن مسه حزن، وقربه كرب، وحضنه هم.. فهو بكَّاء حزَّان، دامع أوَّاه، من يقترب، يحيطه بعمره المحزون وقلبه المكلوم، وجرحه الموغل، وزمنه المبعد وأيامه الماضية ومستقبله الغائب وبلاده الكليلة...)).

فلما همَّ بها وهمَّت به...

قيل له:

((أتغرس الشجرة في غير منبتها وتحصد السنبلة في غير أوانها؟ أتبني في قلبها حزنك وتصفر خضرها وعودها.. وتقصف زهرتها وتحني غصنها؟ إن الحزن قد مسك وحزنت وحدك، فلِمَ القضاء يحكم والبلاء يتحكم، فيمرض البريء ويصح المتهم؟)).

فمضى...

متألماً فوق حزنه، جريحًا على صحته.

ولما دخل داره وصعد سلم بابه.. وأوى إلى فراشه.. نزل عن يمينه رقيب وهبط عن يساره عتيد.

أحاطاه حوطة الوليد وعانقاه عناق البعاد.

وشقا صدره.. ورسما حول قلبه سورًا.. وأزالا عروقًا ومضيا ينظفان عن اليمين والشمال.. ومسحا عرقًا عن جبينه وسترا عورته المحسورة عن ردائه.. أقاماه وحملاه.. عبرا به السقوف والجدران وأزالا به الحوائط والأسوار وصعدا به إلى جبل ضخم، منير لكنه مظلم، مزروع لكنه جدب، صخري لكنه منبسط، فدخلا من كنف ومضيا في سبيل.

ولما وصلا إلى باب جهم مصمت، وجدا ماء يترقرق من جانبه.. وخضرة تنمو على حوافه.. وحمامًا ينام أمامه، وبيضه يبرز من عشه، ولمحا عنكبوتًا يحيط بسقفه.

طرقا الباب طرقة واحدة.

فطار الحمام وانتفض.. وغادر العنكبوت مأواه.. وانساب الماء مغادرًا.

وانحنى الزرع مبتعدًا.

دخلا وقد تفاديا دهس بيض الحمام.. وانغلق الباب في لمحة.. أوقفاه ثم صعدا على كتفيه واختفيا عن مرآه، انتبه واشتد وتر القلب

مدًّا.. وانخرط في التأمل أمدًا.. قيل له: ((امضِ)).. فمضى.

المكان مغلق لكنه يحمل النسيم، محاط لكنه فسيح، مضيء بالتوهج لكنه مفتوح لخيوط الظلمة.. معطر بالرياحين ويزكم الأنوف ويوقف العيون ويغزل الجلود ويدفئ الأنامل ويحيي العروق ويفتح المسام ويغزو القلوب.

ظهر الشيخ وحيدًا.

قادمًا تحفل به طيور سابحة وتحيطه بحور سائلة وتنسج حوله زروع خضراء صاعدة، تحته سجاد مفروش بخطواته، وتمتد شوارع ومدن وبلاد وزمن.. ظهر الشيخ محاطًا بالكون، قادمًا بالحياة.. جلس على عرش بعيد لكنه يدنو.

أمسك لحيته وتحسس ثوبه.. حرك ذراعه وأسند ساقه، فوجدت نفسي لصق نفسي وعن جسمي ينزع ثوبي إلا ما يستر العورة، ويحمي الرجولة، لكن دفئًا غمرني وقلبًا أحاطني، فشعرت الوصل والاتصال والقرب والتوحد والوجد والتآلف، هتف بي:

- تعالَ أيها الفتى.

فاقتربت غير متهيب.

سألني:

- ما بك؟

قلت:

- أنا المحزون يا شيخي.

**انفرجت شفتاه عن بسمة.. وسأل:**

**- لماذا حزن العيال ورب العيال يحبهم ويرعى سيرهم ويحكم سنهم ويقضي شأنهم؟**

**فأجبته:**

**- ربما الاختبار والبلاء وقضاء الرحمن عدل، وعدله قضاء.**

**فسأل:**

**- إذن قل لي.. أين أبوك؟**

**أجبته:**

**- في غربته.. بيني وبينه أميال الصحاري وفضاء الحدود وأسلاك الهواتف وأسطر الرسائل ودمع الذكرى والنسيان يا سيدي.**

**فسأل:**

**- إذن قل لي من تحب؟**

**أجبته:**

**- الحب ظلم.. أحب فيظلمونني.**

**سأل:**

**- أتحب المستحيل يا فتى وتهفو إلى اللقاء؟**

**أجبته:**

**- الحب جرح وأنا مجروح خلقة.. فيدمى قلبي يا سيدي من**

نصله فأنزف.

سأل:

- وما صنعتك؟

أجبته:

- أحيط بالأفاقين ويحيطني الأفاقون، حديثهم إفك وكلامهم غدر، وحروفهم جر وعراكهم نذل.

فسأل الشيخ وقد أرجع رأسه على مسند حريري مطرز بالنعناع:

- أصلاة أم وصل؟

أجبته:

- أشعر بالوصل في غير صلاة وأدرك ربي في وقتي لكن صلاتي عجل ولهث وفقد، واتصالي حقيقي منفعل.

سأل:

- وما الصحبة؟

أجبته:

- الصحبة خدعة، مَن يخدعني يصحبني، ومَن يصحبني يبعدني.

سأل:

- ما زمنكم؟

قلت:

- نحن في زمن الثمانينيات من القرن العشرين بعد ميلاد المسيح، في تسع سنين أتين بعد بدء القرن الخامس عشر لميلاد المصطفى حبيبي وسيدي ورسولي وجد زعيمي ومبشر إمامي بالجنة الموعودة.

فتمهل مفتراً ثغره عن ابتسامة خرافية:

- أتحب الحسين يا فتى؟

أجبته بنعم حارة صافية قوية متصلة.

وضع كفه على جسدي العاري.. وأحاط عنقي بالأصابع، وهبطت أنامله حتى قلبي، فاخترق الجلد والعصب وزحزح القلب من موضعه؛ فشخصت فيه كتلة من دماء وعروق وحبال ودقات متواصلة من طبل غريب خافت.

وضع أظافره الرقيقة النظيفة في جدران القلب، فأخرج الوسخ وألقى السواد، ودغدغ الحصوات، وغسل العروق بماء صبه من بطن كفه ومسح بلعابه جذر شريان مثبت. وأعاد القلب موضعه وغمر الصدر بضغط يده، فعدت عودتي الأولى شاخصًا في عينيه الرقراقتين، سائلاً دون سؤال، متسولاً دون رجاء، نهض عن عرشه والطير حافات بجانبه والزرع والماء حياله وقال لي:

- يا فتى.. لقد نظفت قلبك ورسمت خطك وفتحت دربك وسويت حظك، لكن زمانك يبتلي والبلاء فيك، أنت المحزون لحزن الزمن، المجروح لجرح الليالي.
فالسهم الذي خرج من طوق الفضاء للأرض، أصابك حين

أصاب وانغمس فيك حين انزرع.
ألم تر ندبة عالقة بجدار قلبك؟ ألم تلحظ موضع الحفر في صدرك؟ أنت المبتلى بحزن الزمن.
فامضِ، حفظ الله عليك حزنك.. وستر جرحك.
عنها َوقمت.

# فتاة تشتري الأحزان

إشارة المرور حمراء.. ضغط السائقون على مدوس التوقف.. فأعلنت العجلات أنينها.. وتلامست مقدمات السيارات بمؤخراتها.. العرق لزج.. الزحام مقبض.. الشمس مختفية، العيون مغلقة.. الأيدي مقبوضة.. الأذرع مثنية.. هبطت من السيارة الأجرة.. خبطت بابها فسبني السائق.

سرت بين السيارات المتعطلة.. تجاوزت الطريق إلى مفتاح الخروج من باب الاختناق المحكم.

عندما تحولت المسافة بيني وبين عبور الطريق إلى خطوة.. نادتني.

الولد يئس من بيع علب المناديل الورقية فجلس على الرصيف.

لا أحد.

البنت جمعت عناقيد الفل حول ذراعها وارتكنت على السور.

لا أحد.

- مَن يناديني؟

لا أحد!

- أنا؟

اقتربت.

- تعالَ.

دنوت.

- مالك؟

نامت كفها على كتفي.. فسقط سدي المهترئ وقلت لها:

- كأنهم جعلوا قلبي مجاري لأحزان الدنيا.. كلما انفكت إصبع عن لحم قلبي قلت هانت.. ستحب وتفرح.. وتجري وتمرح.. وتسافر وتعود.. وتكتب وتجلس مع عز الدين شكري تحكي له عن مشروع بناء الهرم.. وتتحدث مع عمرو خفاجي عن دلالة اللون الأخضر في أفلام خيري بشارة السينمائية.. وتدخل ((روز اليوسف)) دون أن ينقبض قلبك، وتبتسم عندما تتحدث إليك أختك من عالم البراءة المغيبة.

ولكن لا شيء.. لا شيء.. أظل أحزن، أظل منقبضًا، أظل حمارًا، وأستمر في كل ما يجعلني حمارًا أكثر.

لفت وجهي في نظرتها الحالمة وأمسكت أصابعي المرتجفة:

- اسمع.. بكم تبيع حزنك؟! سأشتريه.. سأعطيك ما تطلبه ثمناً.. قلمًا جديدًا.. شيكًا بالدولار أو الفرنك الفرنسي.. ابتسامة استحالية.. قُبلة آمنة.. قميصًا فاخرًا، اطلب ما تريد.. فقط بع لي حزنك.. سأشتريه.

قلت لها جادًّا:

- إذا كنتِ مصممة، فسأبيع حزني بأي ثمن.. فقط خذيه.. أريد أن أخلصَ، والله العظيم ثلاثة زهقت.. روحي طلعت.. لا أفهم مَن ابن كلب صمم أن يضعني في خَلاط ((براون)) لجعلي كقِطَع الموز التي تذوب إلى عصير باللبن.. طيب لماذا نسي وضع اللبن؟!

وجدتها تضحك (نعم تضحك)، ثم ترفع يدها بالتحية لعابر في عباءة بيضاء بلحيته الأنيقة.

سألتها:

- من هذا؟

ابتسمتْ:

- إنه عمر بن عبد العزيز.

صرختُ:

- نعم! لا.. أرجوك.. لست ناقصًا.. كلما دخلت في قصة وجدت الحسين بن علي.. خرجت من حكاية رأيت عمر بن عبد العزيز. سافرت في قطار ألتقي بالنبي.. أمرُّ على صديق فألمح مريم..

لا.. أرجوك.. أريد أحدًا أعرفه.. أكلمه.. أجده معي صباح اليوم التالي.. أشكو له حبًّا ضائعًا.. ينظف معي مجاري قلبي.
لا.. أنا ماشي.

# أنا الميت هنا

((كتبنا وما كتبنا.. ويا خسارة ما كتبنا))

أبي

كان أبي واقفًا في الصف الأول.. عيناه ذابلتان كهشيم ورق شجرة الجوافة يحين خريفها، وأنفه أحمر من بكاء مرير ممزق، وكانت يداه ترتجفان تعتصران صدره حيث يضع كفه اليمنى فوق اليسرى في الصلاة، دموعه تحطم المقاومة تحت نصل الحزن الفاجع وهو يرى وسط ضباب البكاء وهشاشة البصر التابوت المسجى الجميل العذب الذي يوضع على جروح الناس فيشفيها وعلى جبين الزمن الملتهب بالحمى فيلثمه بالرقوة، جاء مهرولاً من غربة تعبر حدود مدينتنا الصغيرة فوق قضبان السكة الحديد إلى الإسكندرية إلى السلوم إلى صحراء تبلع مركبة ذات هواء (ليس كالذي نشمه في سمائنا)، تصافح المغتربين وتسلم على أبنائهم النائمين فوق أسِرة الوطن.

تحت ماء التحميض في حوض رخامي ضيق تهتز صورة

فوتوغرافية أبيض وأسود.. تصعد ملامح الوجوه فتركب رأسي وتمخر ذاكرتي.. فأرى ردهة ضيقة طويلة تطل على باب المطبخ.. وقفت أمي تعكف على صحون تغسلها بكفين مرتعشتين.. وأبي باكيًا مستندًا على الحائط، أمسك بتلابيب جلباب أمي وأسألها متلعثمًا في أسنان مسوسة وقامة قصيرة وخوف الأطفال في شوارع الغربة:

- لماذا يبكي أبي يا أمي؟

فتخبرني مهزومة:

- لقد ماتت جدتك.

وأبي لا يتحمل خبر وفاة كاتب في صحيفته الأثيرة - ربما كان الوحيد الذي يقرأ له ولم يرَ صورته أبدًا - لكنه إذ ما قرأ خبر وفاته.. تعجلت دموعه وحزنه، واحمر أنفه وتلعثم صوته وتعثر نَفَسه وترحم عليه ودعا له بالمغفرة.

وأبي ما كان يذكر أمه أبدًا إلا وترقرقت دموعه بعد ٥١ عامًا من وفاتها، أما جدي الذي توفي وأنا مضغة لحم في حجر أمي، إذا ما ذكره أبي انهمر في حزن صاعد استدعى شبهه الحميم به وكان يدعو له كأنه يدفع باب السماء للانفتاح أمام دعواته.

فماذا يفعل أبي الآن أمام التابوت الذي يحويني؟

يحوي ابنه؟

انكسر الظهر فجأة.. وشعر أبي أن صلاة الجنازة التي لا تمكث دقائق قد عبرت به إلى هوة سحيقة.. وكان الحزن يهرسه.. وصورتي

أمامه، داخله، فيه، وجهي طفلاً أصعد فوق مكتبه بزي ضابط، أسعى إلى حضنه قادمًا من المدرسة، ألثم ظهر كفه صباحًا، يقلق من صعوبة ابتلاعي لدروس الرياضيات.. يناقشني في حماس عن أمله في دراستي للطب. افتخاره بي صحفيًّا لامعًا - من وجهة نظره - إلحاحه أن أكتب في السياسة.. أمله أن أصبح مسؤولاً في صحيفة ((الأهرام)).. مكوثه دقائق إلى جانبي فوق السرير.. يدخل في ردهة حزني على فراق حبيبة رأى صورتها، وابتسم ودعا أن يفعل الله ما فيه الخير.. وفعل الله.. فتركتني محزونًا مكدودًا، يقترب مني، يشفع كلامه بابتسامة عن رغبته في أن يخطب لي.. ثورتي وغضبي وارتفاع صوتي احتجاجًا، مفاجأته من تصرفي.. مطالبته أن أهدأ، ولا أهدأ!

لم يطق أبي حزنه.. فارتفع نحيبه وانهمر بكاؤه، والأكف تقترب من التابوت تحملني فوق الأكتاف.. تتكالب الوجوه داخل المسجد، همهمات القدوم والقفول.. هدير المراوح الكهربائية.. بكاء أبي - انتظار الخارجين من المسجد والواقفين أمامه لظهور التابوت (أخضر فاتح مكسور الطرف)، اقتراب الناس من أبي - يسندونه ويمسكون بذراعه.

أشد ما في هذه الموتة ألماً بكاء أبي.

المجلة

كلهم قابلتهم أمس.. هكذا قالوا.

وهكذا كان ((م.ع)) و ((ع.ش)) و ((ع.ح))، وكل العينات

والميمات والنونات من الزملاء الذين عاشرتهم ضحكاتي وصيحاتي ومشاجراتي سنوات سبعًا.. هكذا كانوا، المجلة نصف هادئة.. كلها كئيبة، حين ذاع خبر وفاتي صباح الجمعة حيث لا يأتي للمجلة كثيرون في هذا الصباح المحايد، مات إبراهيم عيسى، يا نهار أسود.. ليس معقولًا.. كيف؟ انهالت الأسئلة دون أجوبة، ولا حتى انتظار أجوبة.

و.. مرت ساعتان.

ساعتان فقط.. كانت دقائقهما كافية لأن يتنهد ((م.ع)) ويطلق سخرية فيضحكوا.. وأن يقول ((ع. ش)) : ((مَن سيخلف إبراهيم في سكرتارية التحرير؟))، وأن يدخل ((ك. ج)) إلى مكتبه فيعرف بالخبر فيسأل: ((هل أرسلتم باسمي برقية عزاء؟))، وساعتان فقط كانتا كافيتين للبحث عن ((ع. ك)) كي يعد خبراً سياسيًّا للنشر، ويتصلوا بالقسم الفني فيرد ((ف. ف)) ويسألوه: ((هل جاءت الموضوعات من الجمع التصويري؟))، فيهبط بها إليهم ويقول - وهو يتألم بعينيه وشفتيه: ((الواحد تعبان قوي. ممكن تطلبوا لنا فنجان قهوة؟))، ويبحث ((ع. ش)) عن عناوين لموضوع لم يستكمل إعداده، ويدخل إلى رئيس التحرير فيعبر ((م. ت)) عن أسفه لوفاة هذا الشاب الذي كان بالأمس هنا.. ثم يضرب بكفيه على سطح المكتب: ((لا حول ولا قوة إلا بالله )). فيسأله ((ع. ش )) :(( ألن تكتب شيئًا عن إبراهيم عيسى؟))، فيقول: ((طبعًا.. أكتب حاجة))، فيدخل ((ع. ش)) إلى منطقة السؤال الحرج: ((أين نضعها في صفحات المجلة (في قسم الناس أم في البداية بعد الأخبار)؟))، ثم يبحثوا عن صورة لي ينشرونها

في صفحة ٣٦ مع عمود عن وفاتي.. ويجد زميلي ((أ. م)) الذي تكدر وجهه تمامًا، يجد صورة مرسومة لي تحت زجاج مكتبي (بجوار صورة لإحسان عبد القدوس ومحمود درويش ويوسف شاهين) ويتضاحك ((ح. ر)) ويقول: ((نزلوا مع الخبر صورة يوسف شاهين أو محمود درويش؛ لقد كان يحبهما جدًّا)). ولمحوا في اضطراب البحث عن اللاشيء لوحة صلاح عناني خلف مكتبي كأنها تبكي.

وعند الظهيرة خلت المجلة من الكثيرين وظلت مقاعدها وجدرانها وصمتها.. وفي صباح اليوم التالي، انتشر الخبر أكثر، وكان مَن عرف بالأمس أقل حزنًا وأكثر بحثًا عن تفاصيل جديدة وكيفية استقبال ((ع. ح)) لوفاتي. ومَن عرف في الصباح كلهم تمتموا وقالوا أشياء ثم نسوا.. وطلبوا شايًا من البوفيه وغضب البعض من طريقة نشر موضوعه في المجلة مع صغر حجم اسمه، وبذل ((ع. ش)) جهدًا في إقناعهم بحُسن نواياه، وجرى اجتماع في الظهر بينهم جميعًا، ودخل رئيس التحرير وقيل كلام.. ومضت الساعات.

وتألموا جميعًا لموتي.

ونسوا جميعًا موتي.

أقسى ما في الموت.. نسيان الأحياء للميتين.

باريس

كأن رصاصة ذابت في جلد عز.

كأن جرحًا قديمًا عبث فيه حد سيف مارد في لحم عمرو.

عز الدين شكري وعمرو الشوبكي كان كلاهما في مترو الأنفاق حين التقى بهما آخر وقال لهما إن إبراهيم عيسى مات.

تلعثمت الأسئلة طويلًا وتشابكت في الألسنة.. وتلاطمت في الأسنان.. لكنها لم تُسأل على الإطلاق.

كانت صدمة لا تصدق.. ومن ثَمَّ لم يصدقوا.. ظلوا هكذا حتى بدأ الحزن مثل سائل المنوم يدخل من إبرة طبيب التخدير، يعبر الجلد والعظم إلى القلب، فتموت كل الأشياء - عدا الموت مؤقتًا - كان عمرو متأثرًا إلى حد الارتجاج. هذا الوجه الوسيم الأبيض الناعس امتقع واهتز وجوده للحظة.. وسارت النوافذ الزجاجية تعبر المحطات ووجوه الناس والإعلانات الضوئية والجدران المظلمة وإبراهيم عيسى.. تجولنا معًا في شوارع مصر القديمة وخلف مسجد الحسين ووسط المياه المقذوفة من عبء التاريخ إلى ظهور البنايات، تناولنا وجبة العشاء أمام عربة الفول في أول شارع المعز لدين الله الفاطمي وقسم شرطة الجمالية نصافحه معًا.. وحديثه عن الحزب المنسي وشجارنا الهادئ حول أهمية يوسف شاهين، وتأكيده لي أنه لم يكن يدخل السينما بهذا العدد من المرات والنوبات إلا بعد معرفتي.. وضحكي وغمزي عن صديقته المدهشة التي تتصل به من الإسكندرية: ((والله إنك تحبها)). وابتسامته المركزة: ((يا ابني هذه مثل أختي تمامًا، ثم إنها خُطبت.. ولضابط أيضًا)). وأرد عليه مخذولًا: ((والله بنت مثل العسل، كانت ستصبح أفضل زوجة صديق في العالم)). وعمرو - الآن - مفطور بالحزن القاسي، يصعد سلالم

المحطة ويمضي إلى هناك حيث شارع باريسي متقاطع البلاط وسور حديدي حول مبنى عتيق وملصقات سينمائية وبخار في آخر الشارع البعيد حيث يرانا نسير معًا في شارع الجامعة تحت منزله في الفجر، وجلوسنا أمام النيل لساعات لم يقطعها سوى إلحاحي للعودة كي ألحق بصلاة العشاء قبل أذان الفجر، بحثنا عن بنطلون ((بيجاما)) نظيف دون اللجوء لإيقاظ والدته كي ألبسه قبل النوم، وصورة عبد الحليم حافظ معلقة على الحائط جوار المكتبة ترثي رحيله، كانت آخر ما يبقى تحت ضوء المصباح المعلق فوق السرير قبل أن أغلقه وأنام.. وعمرو يسأل نفسه الآن بعد وفاتي بأيام وبين صوته وقبري آلاف الأميال والأحزان: ((هل لو اقتربت منه في الصباح وأيقظته سيصحو مثلما كان يصحو، أم أن الموت آخره نوم بلا يقظة لحظة للنظر للأصدقاء؟ )).

وعز قد يبكي في أندر لحظات حياته، حيث يمكن أن تكون هذه المرة الثانية أو الثالثة بالكثير التي يبكي فيها (لا أعرف لماذا بكى في المرتين السابقتين)، يدخل مكانًا باريسيًّا وديبلوماسيًّا، يتماسك ويمارس حياته كما لو أن خبراً لم يلفح وجهه في مترو الأنفاق ولكنه ينفلت من الضيق البالغ إلى الحزن المتشفي فيه، في فرحة بباريس، دبلوم ((الإنا)) وقدوم زوجته المريمية العائشية - كما يصفها - إليه، جميلة زوجته نيفين، كانت تغار من تعلقنا بصداقتنا معًا، أنا هنا ميت وحدي في ظلمة القبر ورمة الجثة، وعز بعيد -جدًّا- في غربته يتذكر ليلتنا الأخيرة حين جلسنا - ومعنا خالد ورفاق آخرون - ليلة سفره في شقتنا المفروشة بالهرم، قلت له وأنا مكسور بالحزن: ((لقد صرت

قاسيًا وعنيفًا يا عز، وأخشى أن يطغى عنفك على علاقاتك بأحبابك وأصدقائك.. وبي)).

كنا لأسابيع لا يرى كلانا الآخر، لكن إذا ما التقينا كأن كل شيء لم يكن، كأننا لم نترك بعضنا أبدًا، صديقين، كنا وكان الزمن يدوس على أطراف علاقتنا ويطوي جوانبها، لكننا كنا - نتقاسم فهمًا وحبًّا وأشعار محمود درويش - مضى عز من شارع لآخر، ودخل بيتًا وصعد إلى باب ووجد زوجته تحمل طفلتها مريم، وجلس عز على مقعد في يسار المدخل، ووضع كفيه على فخذيه ثم على وجهه، وتذكر يوم صعدنا إلى الدور الثاني بالنادي الديبلوماسي وجلسنا على أريكتين متقابلتين، وجلس نفس الجلسة وهو يسمعني أحكي عن قصة فراقها لي، وكيف لم يأسف عز للخبر، وأعلن أنه لم يكن سعيدًا بعلاقتي بها، ولم يكن في الحقيقة راضيًا عنها، حكى عز لنيفين كيف مات إبراهيم عيسى.

وفي خطاب له تال من باريس طلب من خالد أن يضع مخطوطة روايتي التي لم يقرأهاً في الحقيبة الديبلوماسية القادمة إليه، وحين وصلته - بعد ذلك بأيام - قرأ إهداءها بخطي: ((إلى الذين علموني ألا أحبهم، ألا أحب، شكرًا)). وفهم عز مقصدي، وأقسم إنه لم يكن يعرف أنني كنت أحبها إلى هذا الحد.

أفجع ما في الموت.. الاكتشاف المتأخر.

الهرم

عمارات منتصر في شموخ الأسمنت أمام القلوب الجريحة، حيث بنايات مصبوبة في تطابق تام، النوافذ والمداخل والأعمدة والوجوه، وهذا الضجيج المستطيل الذي يرفعه إلى سماء (لا تعرفنا)، عنف الأطفال الكثيرين يصرخون ويلعبون الكرة ويجرون خلف رفاقهم ويلعنون حظوظهم وينادون أمهاتهم ويلاحقون خادميهم والبوابين ويشطرون أذن النائمين وينهبون أية محاولة للهدوء المصطنع، وخالد منصور يمسك بحقيبته في هذا الوقت المغربي عائدًا إلى شقتنا، هذا العبور الصلد فوق الجسر الهش للحياة، خالد معذب منذ وفاتي بالقرف، بهذا الإحساس المنتفخ بالفقد كان يعود آخر الليل، أو بالأدق أول الصباح من وردية ((وكالة أنباء الشرق الأوسط)) أو عمله الإضافي بوكالة ((رويترز))، وكان يدخل فيرى نور الصالة خافتًا فيعرف أنني تركت النور متعمدًا، ونمت، فأنا أخاف الظلام الدامس، يدخل إلى الغرفة فيجدني نائمًا مغطى رغم حرارة الطقس وخنقة الغرفة في الدور الأرضي. يشعل النور، يسمع آهاتي النائمة ومشاريع ((الشخير)) النحيل الذي يضج في الصمت أحيانًا، يرتبك خالد ويفاجأ حين يسمعني أتكلم، يكتشف أنني أتكلم وأنا نائم، لم تكن جُملاً مفيدة لكنها كانت كلمات تتناثر عن المجلة، عن الحبيبة، عن الله، عن أشياء إن تُبْدَ لكم تحزنكم.

وكان خالد ينام من فوره أو يظل مستيقظًا فوق كتاب أو تحت صحيفة، ولكنه الآن يدخل فلا شيء سوى الفراغ الموحش، أو وجود شقيقه الزائر من المنصورة يكسر حدة الموت الطعين، وكانا يتبادلان حديثًا قصيراً عني، وشقيقه يدعو لي بالرحمة والمغفرة، وخالد لا

يتكلم، خالد - بطبعه - لا يتكلم كثيراً، كان يسمعني أكثر، حين يجلس على المقعد الهزاز ممسكًا بسيجارته الآفلة وكوب القهوة عن يمينه، وأنا أجلس مادًّا قدمي فوق مقعد أو على أريكة مقابلة، مائلاً بجسدي كله، مستندًا على وسادة وأحكي له، أشكو إحباطي وعجزي والمجلة التي تقودني نحو تنازلات لم أردها، ولا أكذب عليه فأنا أستطيعها، وعن إحساس مقبض بالحب الضائع، وعن حلم إصدار صحيفة، وعن روايتي الجديدة، وكان يسمعني، أكثر الذين سمعوني في ليل القاهرة كان خالد.

وكان بعد وفاتي يرد على أسئلتي وكلماتي بالتفاصيل المملة لكنني الآن لا أسمعه.

أرذل ما في الموت ((رذيلة الصمم)).

لا أذكر بالضبط كيف مت!

أذكر فقط آخر ما رأيت قبل موتي:

في الطريق الزراعي السريع (٦٠ كيلومتراً ما بين قويسنا والقاهرة)، كان الجو مضببًا بالشبورة الصباحية، وكائن خفي كالدخان يملأ الوجود بمطلقاته، سماء وأرضًا وفضاء وسيارات وأشجارًا وأحياء، وكانت الرؤية صعبة والنظرة مشقة والسائق مرتبكًا في تماسك أخير، وفجأة توقفت السيارة وظهرت من بعيد نار مشتعلة، نزلت من السيارة في الطريق السريع الضبابي متجهًا إلى النار المشتعلة، حيث سيارة منقلبة والنار متأججة في المقاعد والركاب محترقون يحاول الناس إخراجهم بصعوبة، ولمحت في اتجاهي للسيارة نفسي ملوثًا

بالدم والنار، مسودًّا بالدخان، متدليًا من باب السيارة المفتوح والنظارة مهشمة والملابس ممزقة وحقيبتي البنية مفتوحة تتناثر منها الأوراق والصور والكتب والحكايات والعمر. التفت إلى الاتجاه المعاكس، رأيت وجهها الذي أعشقه، لمحتها قادمة حلوة كما لم تكن من قبل، ورائقة وضاحكة ونورانية ترتدي ثوبًا أبيض يتألق في الضباب، تقفز كالصبايا الحور تمسك حقيبتها، وتسمع أغنية صاعدة من جهاز تسجيل صغير في كفها.

خفق قلبي - نفس خفقتي حيًّا - لما رأيتها، حولها كانت وجوه بنات أخوالي جميعًا، أطفال كالورد الطازج، أمينة بفرحها، وإيثار بضحكتها، وداليا بغمَّازتيها، وياسمين بشعرها الذهبي، وريهام بعنف شقاوتها، وشيماء بطيبتها الآمنة، والْتففن جميعًا حولي، فأشرت لهن والجميلة تقترب وتبتعد حتى تلتصق مسيرتها بشوارع مزدحمة وميادين متسعة ووجوه وناس وأصحاب.. ودنيا أصيح عليها وأنا أرى أعضائي تتحلل وتذهب في رحيلها الأخير.

أما زالت قصصي في درج مكتبك مبعثرة مع حاجات من الثانويِّ التافه إلى الغالي المفتقد؟

أجمل ما في موتي.. الكف عن إزعاجي لكم.. ولها.

ولم أشعر بشيء أبدًا، وإذا بي أصعد مقابر قرية أبي؛ تلك التي عبرنا إليها في زياراتنا البعيدة القصيرة.. هنا قبر جدي وجدتي، وهنا أنا، ((هنا دفنوا إبراهيم عيسى))، ورأيت قبري فعلاً، فأمسكت حجرًا وكتبت على جداره حيث تتساقط أتربة وقشور طلاء.. ودموع:

**بسم الله الرحمن الرحيم**

**﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.**

**وأذكر أنني لم أسمع ساعتها سوى بكاء أبي.**

# صار بعيدًا

**قول للغريب**

**حضنك هنا**

**دربك قريب**

**من دربنا**

**بيتك هنا**

**أهلك هنا**

**حزن البشر**

**دا حزننا**

**...**

**...**

**بُكرة القلوب تفتح لنا**

**عبد الرحيم منصور**

# ١

# السفر

## الليلة نفسها والسفر ذاته

هبط أبي من السرير إلى السجادة المفروشة على أرض غرفة النوم.. كانت الفوضى مسيطرة على لجام الأشياء المبعثرة.

الحقيبة بنية اللون مفتوحة الجوف تتدلى منها الأحزمة المنتهية بحلقات من المعدن واسم أبي مكتوب بخطه المنسق الجميل متضخم الحجم، اسمه وعنوان منزلنا وجمهورية مصر العربية، حيث يحرص دائمًا على التعامل مع الوطن تعاملًا أمينًا دقيقًا مخلصًا حتى في فرد اسمه الثلاثي على بطاقات الحقائب وأظرف الخطابات وحواره عن الخلافات السياسية بين الأقطار الشقيقة، الحقيبة تتسع الآن لكفه تمسك بلفافة محبوكة الغلق، يضعها بأصابعه الخمرية المشوبة بحمرة خجلى وبنية رقيقة، ثم يرفع اللفافة مرة أخرى مسرعًا وهو يزفر في حدة جلسته المتعبة، أفترش فيها وسادة مستديرة غير محكمة الغطاء الأبيض الذي تكرمش تحتها، يعلن تذمره من كل هذه الحاجات

واللفائف التي أودعها عنده أهل رفاقه في الغربة - المدرسة والمدينة والسكن - حتى يوصلها إليهم هناك؛ كيلوات من الشوكولاتة وأخرى من الجبن، وغضب جدًّا من علبة مسلى بلدي إلى زميل شاب في مدرسته وضرب كفه على فخذه مذهولاً من سخف الموقف وضيق الأفق ويخاطب أمي في زهق - تصوري.. يرسلون معي كيلو مغات وثمرتين من اللوف.

أمي التي تيمنت أبي وجلست نصفها على الأرض العارية (تتجاهل الإحساس بالبرودة تمامًا)، ونصفها على السجادة ترفع كفيها للسماء وهي تتنهد بحرارة فيها من التعب والغربة وألم الفراق ما فيها.

- ألم أقل لك ارفض؟ هل فرضوا عليك أن تأخذ هذه الأشياء معك؟ أنت تريد مجاملة الناس وتتحمل ما يحدث.. هي عادتك أم ستشتريها!

ملامح أبي تتخذ طريقًا مستقيمًا للسكون والهدوء، ويبتسم ويقترب برأسه حتى كتف أمي، ويضع كفه على ظهرها أسفل عنقها بدقة، ويمسح حجاب شعرها الشفاف الذي لم تضعه جانبًا بعد انتهاء صلاتها و ((لمة)) سجادة الصلاة على حافة السرير.

- أهو، نحن نعمل الخير وربنا يضع لنا دائمًا أولاد الحلال في طريقنا.

تؤكد أمي حروفها.

- هذا ما نأخذه كل سنة.

الحاجات كلها متناثرة على الأرض بجوار السرير تحت قوائم

الصوان، أسفل التسريحة ملتصقة بالبوفيه: العلب الكرتونية، اللفائف، أكياس ورقية، أكياس بلاستيك محشوة ملابس مطوية بعناية يعيد أبي بعضها إلى الحقيبة، ثم يرفعها مرة أخرى حين تسد أحلام استيعاب الحقيبة لكل هذه الحاجيات، كان أبي مصراً على التعامل مع حقيبة واحدة حتى لا يشغل نفسه في الرحلة بالحمولة الثقيلة وتعدد الحقائب واللهث وراء الوزن والتفتيش والبحث عن سيارة من المطار، ثم إن أبي رجل دقيق حتى الوسوسة من تأخره عن موعد الطائرة (أو القطار حتى)، قلِق على الدوام من إمكانية العثور السهل على سيارة أجرة، متوجس من تساهل موظفي المطارات أمام حقيبته؛ ولهذا فهو - دون أن يدرك أو ندرك -يراجع جميع أوراقه ومستنداته عشر مرات قبل السفر وعشرات المرات في انتقاله نحو المطار، يفتح الحقيبة الصغيرة المخصصة لأوراقه، وكأنه لن يجدها، يفتش عنها كأنه لم يرها منذ دقائق، يطمئن على تمام أحواله واستكمال أوراقه حتى يجد نفسه أمام منفذ استطلاع الورق ونافذة ختم المستندات وبوابة العبور إلى الطائرة، لم أركب معه الطائرة، إلا أنني أظن أنه يعيد التمام عليها خشية الفقد بعد الركوب وقبل الهبوط وحين تقديمها.

يملأ أبي الحقيبة بكل الأشياء، يعبئها بحرص ودأب ويحشرها في استنفار لكل المساحات وعداء للفراغ مؤكد ثم يسحب الحزام من جانبَي الحقيبة الداخلَين ويشدها بعزم ويشبك الحلقتين للإحكام، يغطي الحقيبة ويمسك بالحزامين الخارجين ويجذبهما في قوة حتى يتأكد من تماس الأطراف بالأطراف، ينتهي من إغلاق الحقيبة فينهض على ركبتيه ثم على قدميه فتسقط صحيفة ((الأهرام)) التي كانت

مستندة على فخذه منذ ساعتها على الأرض فيلتقطها حتى لا تضيع بين قدميه والحقيبة، ويضعها على حافة السرير، ويمسك الحقيبة بأصابعه من مقبضها الغليظ المبطن بالمعدن والمغطى بطبقات من الجلد المتين وتبدأ أصابعه التي اشتد احمرارها وثنيات المقبض على أنامله تبدأ في استشعار وزنها وثقلها، ثم يصرح لصراخه بالانطلاق المنضبط.

- يا خبر أسود.. ستزن أربعين كيلو!

تفزع أمي بحسم قاطع.

- خلاص كما قلت لك.. رجِّع الحاجات لأصحابها.(وصول الحاجات لأصحابها مقدس لا يجب مساسه عند أبي فيهتف).

- طيب اسكتي والنبي، لا داعي لإفساد الثواب بالكلام.

آه.. ممدودة وموزونة وموجوعة وحارة ومشروخة ومصابة بالخيبة جدًّا.

- الحقوا انخلعت يد الحقيبة.. هل تنقصنا هذه المشاكل؟

نقوش تقليدية رصينة تزين أبواب ((الصوان)) الشامخ منذ ثلاثين عامًا حين وقف أمامه أبي، كان الضوء الواصل إلى رسوم الضلف نحيلًا وخابيًا، ورود وزهور بألوان بنفسجية فيها خلود الفراعنة دون الفناء، وخضار في ورق يخرج من أغصان ملتوية متشابكة تتمدد على مساحة من الخشب المطلي بإحساسٍ كاكي وخلفية طحينية مخبأة في الزمن، هذا الصوان يفخر به أبي دائمًا، حين دخلت معه ذات مرة إلى منزل اختفت أية صلة له بدماغي فيما عدا أشجارًا سليبة الأوراق،

وعتمة بغبشة غروب متواطئ مع الليل القادم، ونور مضعضع قادم من ردهة تنهي صعود السلالم الضيقة، وما زال وجه الرجل ضخم الهيكل بملامح مختفية في ثنايا ماض بعيد مرتبك في حواف عقلي، أكد أبي على أنه فنان عظيم وصانع مآهر، كنا الآن في باحة ممتدة فسيحة فيها ألواح وقواطع من أنواع متعددة من خشب خام ورؤوس مساند أسِرة وأبواب صوان معدة للتركيب ونشارة خشب تكتظ بها الجوانب.

كان الرجل ذا صلة دم وقربى، وكان صاحب الصوان نفسه الذي تردد في مناسبات شتى التذكير بالرحمة عليه والدعاء له من أبي في معرض الفخر بخلود الصوان وصموده أمام عتو الدهر الذي جعل من الصوان الجديد لغرفتنا تحفة في الانخلاع والتفكك الدوري كلما عنّ لأخواتي أن يُنفسن عن غضبهن بدفعة أو بعنف فتحة، فتتساقط الأضلفة والمسامير تتفكك، يصعد أبي فوق مقعد خشبي وتهبط كفاه من سطح الصوان بحقيبة كبيرة رصاصية اللون جلبها منذ عام حجه مع أمي.

- ياه، هل تذكرين يوم اشتريناها من المحل في المدينة المنورة؟ والله تحملت وواضح متانة صناعتها وليست مثل الحقيبة الأخرى الهزيلة.. أليس كذلك يا حاجة؟! (الجملة الأخيرة على بخار حب وتدليل، ورغم أن أمي حجت مع أبي منذ ثلاثة أعوام إلا أن أحدًا منا أو من أخوالي أو جيراننا لا يناديها - ربما لصغر سنها - يا حاجة فيما عدا أبي الذي يصر على ندائها والكلام معها وعنها مستخدمًا اللقب؛ الأمر الذي يجعلنا أحيانًا نستفسر منه عمن يقصد بالحاجة فيندهش غرابة السؤال وتوهة العقل

وفقدان التركيز.. الحاجة.. وبعدين! فنعرف).

كانت ليلة سفرهما إلى الحجاز أجمل لحظات حياتهما على وجه الإطلاق، الفرح الطهور والبسمة المبرأة والعيون المزغردة، ورداؤهما الأبيض الناصع الذي ذهبا لأجله إلى المحلة الكبرى فاشتريا ملابس الإحرام؛ جلاليب بيضاء ورداءات أمي الناصعة، وكانت حريصة على تقليب الملابس ودعوة الإخوة والأقارب إلى مشاهدة الثياب، وجربا الملابس في تأهب واستعداد قبيل السفر، وكان أبي بشوشًا، أكثر من عادته، طلوقًا بالبهجة يربت الكتف ويداعب الأطفال ويخفف التوترات ويحنو على الغاضب ويستمهل المتعجل ويغري الزاهد للالتحام في الفرح، ويعرب عن بلاغة آية قرآنية حين تمس أذنه يعزف عن متابعة الحلقات التلفزيونية، ويكرس الوقت كله لقراءة وتلاوة القرآن في مصحفه البني الصغير (استبدله بعد العودة من الحج بمصحف يوزعونه على الحجاج هناك)، ومداعبة أمي، زاد فرحه واندثر همه وذاب كربه حين تمكن أخيراً من مصاحبتها له في الحج بعد عراقيل عدة نغصت همته وعثرت فرحه حتى الأيام الأخيرة للسفر، حيث ذهبنا معًا إلى شركة الطيران مستهديًا بخبرتي في شوارع وسط المدينة لكنني تهت معه، ثم وجدنا المقر فدخلناه فاستبشر بأناقة المكان وحسن نظامه ولكنه - لما وقف أمام موظفة الشركة - استوحش التعامل الرسمي وبرودة الموظفة التي لم تدرك عن حلم حجه ومصاحبة زوجته شيئًا، فأمسكت جواز سفره والتذاكر في ثلجية لزجة ورأيت لحظتها دموعًا تحفر شارعها في عينَي أبي والتهام دعاءات متهدجة لله أن يتم الأمر ويزيل العقبة لتأشيرات الدخول وزحام الحج

واستبدال التذاكر وعقد لم نعد - تحديدًا - نتذكرها، وحين وقفنا في المطار نودعهما كل العائلة أنا وأخواتي الأربع، وقفنا في صف مستقيم وأكتافنا في الأكتاف مع اختلاف الطول والقصر، وكان أبي وأمي في ثيابهما البيض وفرحتهما اللامعة ونورانية فذَة تكسو ملامح المكان بأسره ونلوح لهما بالأصابع وللمرة الأولى في سلسلة طولها سبعون ذراعًا من أحزان الوداع وسلامات الفرقة وأحضان الغربة والمسافات الفاصلة بيننا وبين أبي حين يتمم إجراءاته ويدخل إلى ما لا نستطيع الدخول معه إليه، لأول مرة أراه يضحك ويبتسم جدًّا في موقف كهذا متأبطة ذراعه أمي ونحن ضاحكون باسمون ندرك ببساطة تعجز عن البيان أن الله سيغفر لهما بمجرد أن تطأ الأقدام حدود مكة.

وعدنا بالإحساس ذاته إلى المنزل حيث كانت الأسرة الكبيرة: الجدة والعمة والخالات والخِلان والأطفال يسعون في أرجاء المنزل الواسع في ألق وبِشر.

ها هي عمتي تدخل في تؤدة يفرضها عشرون نوعًا من الأدوية، تتعاطاها لعلاج أمراض متكاثرة يمكن حصرها بفرز علب الأدوية من كيس بلاستيكي محشو بها يخرج معها أينما كانت، نفس حال جدتي التي لا تترك الكيس أبدًا، وتدرك في ذكاء مواقيت كل دواء ولونه وشكل حروفه الإنجليزية والرسم الخاص بالشركة المنتجة، وتطورات سعره، وموضع ندرته في السوق من وفرته، كلتاهما بوزن ثقيل ومرض أثقل، وخطو وئيد، وحزن مصفى وتحليق في فراغ، ودموع في مآق، ورعشة في صوت، ودعاء في غزارة، وتربع على أريكة أو راحة على سجادة تنتظران والدي حتى يخرج ببدلته الكاملة وحقيبته السوداء قبل

الركوب في السيارة والسفر إلى المطار.

رغم الضجيج الحادث من تدافع الأطفال نحو جدة وعمة (هي جدة لآخرين بدورها)، إلا أن رائحة الاكتئاب تحلق في سماء المنزل الفسيح فسحة نهر ينتظر إيزيس أو صياد مؤمن بأهمية النيل، الاكتئاب واسع مستشر في أجواء المكان، يركض بين القلوب والجوانح، يدفس رأسه في الحَنايا وينحشر في العيون، شيء يسحب الهواء من الأمكنة ويطلق غازًا خفيًّا عصيًّا يمرر ذراته في الأنوف والآذان والأنامل والشفاه العليا للصامتين، السفلى للمتكلمين، فيبدو البيت الذي لا يتوقف عن الزعيق والصراخ والمناقشات والحكايات وسرد الوقائع وتنظير المشاكل الصغيرة، يبدو في غمرة الاكتئاب محزونًا خاليًا على ناسه منسيًّا في عناوين الفرح، أنهكته القُبل القادمة مع أصدقاء أبي، يتحاورون في غرفة استقبال، يستأذنون فيُقبلون الوجنات، ويحضنون الصدر ويتمنون لأبي سفرًا موفقًا وعودًا حميدًا واختصارًا لشقاء الغربة، واستكما لغاية الاغتراب يودعهم أبي، وتخلو الغرفة إلا من أثاثها وأمي مستندة على تلفزيون قديم من طراز يجعله تحفة خيالية لا شيء فيه إلا الخيال، يضغط أبي على زر الكهرباء فتنطفئ نصف مصابيح الثريا ثم ينتبه فيعود ليضغط على الزر الآخر فتنطفئ الأنوار ويغلق الباب.

في الصالة غالبًا يستقبل المودعين من عائلات الأنساب: زوج أختي وخطيب الأخرى، مصطحبين بقية أفراد عائلة كلٍّ منهما، بطيبتهم وعذوبة أخلاقهم ووداعة لقياهم ووداعهم، ويندمج البيت في استقبال الأقارب القادمين من البلدة بجلاليب مختلفة ألوانها، ولكن

الأكف خشنة كلها سمراء مندفعة، والعناق من هناك حار حاد.

ومنذ اشترى ابن عمتي (والذي رباه أبي منذ صغره في منزله فنشأ أخًا أكبر لنا جميعًا وابنًا أكبر له)، منذ اشترى سيارته وهو يتولى مهمة اصطحابنا لاستقبال أبي من المطار ووداعه، وكان قبلها، معنا، نذهب للاتفاق مع سائق سيارة أجرة تَسَع سبعة ركاب، ونؤكد على الموعد ونركب مع أبي أنا وأمي وأخي الصغير وابن عمتنا، وبعض أقاربنا ثم تناقصت الأعداد مع طول المدة وتكرار الرحلة حتى لم يعد سوى أنا وأمي وأخي وابن عمتنا، وكان السفر الليلي أسوأ ما أعرفه عن الغربة حين كان المطر غير رحيم يعصف بالمدينة، والليل ظليم شرس، والوحشة تنفجر في كل متر تعبره السيارة نحو طريق رملي تدلف منه إلى ساحة صغيرة فيها منزل رفيق لأبي في أول سفر لهما، وكنا فرحنا بوجود صاحب في مشقة وتعاسة الرحلة الجوية الأولى للغربة؛ لذا اتفقنا على السفر معًا من المدينة للمطار، وكان المطر ثالث اثنين في رحلتهما، انتظرنا الرجل حتى هبوطه إلينا بحقيبته والمطر يغزل حزننا، وانهمار الدموع من المآقي، واستقرار لفراغ هادر في صدورنا، ونظرات تائهة وتمتمات شائهة. والزجاج محكم الغلق والليل محكم الظلمة، والضوء الذي يرسله مصباح السيارة ملقًى على الطريق يكشف فقط مترًا أو مثله أمام بيت الرجل الذي بدا الآن مع زوجته تحت مظلة تحملها له، وحقيبته بين كفيه وأمام ساقيه تشتركان في دفعها لثقلها، خلف السيارة يرفع السائق معه الحقيبة، فنسمع من الباب الخلفي لحقيبة السيارة المفتوحة طلقات المطر تضرب في الأرض وهمهمات الزوجة المودعة وظل الحزن أمام شعاع ضوء السيارة.

**انتهى أبي من تعبئة الحقيبة ثم قام لاختبارها، ثم لم يطمئن إلا عندما جرب أن يزنها على ميزان للبشر جلبه من سفر سابق له، وعندما خرج من الغرفة كان كل شيء مؤهلًا للتكرار؛ ليلة السفر، الليلة نفسها والسفر ذاته.**

# ٢

# الفرح

## مبروك يا قمر

كلما خطوت تعثرت فتوقفت.

الأجسام مندمجة الأعضاء، مذوية الحجم، مستلقية على الأرض فوق السجاد المفروش، فوق الأرائك الموزعة، أسفل مائدة طويلة بين زحام مقاعد، بانت أذرع وانكشفت سيقان، تكورت ظهور وتقلصت أقدام، ارتفع صوت شخر من الأنوف وأفواه مفتوحة ورؤوس مستندة على وسائد مصنوعة من تكوم أقمشة أو حزمة ملابس أو مساند أرائك سميكة غليظة.

تأوهات وتقلبات وانفلاتات و ((شخار)) وأصوات مبهمة ورائحة نوم ثقيل دافئ يسبح في الأمكنة، كلها داخل المنزل الفسيح الرحب الذي احتوى حشد الأجساد في هذه الليلة المفتوحة أمام الحنين.

منزلنا واسع المساحة ممتد الفراغ إلى الحد الذي علمنا فيه شيئين؛ الإحساس الملح بالبرودة والصراخ المستمر، وبرودته تنخر

العظم وتفتت حرارة الأبدان وتعبث في استقرار الدم، ورغم أن الجو في خارج جدرانه أو على سطحه يكون دافئًا أو برودته عند حد الكفاف إلا أن منزلنا يعني بردًا حقيقيًّا وغورًا عميقًا في البدن بريح وهمية فتتحول جميعًا إلى أكف أمام دفاية ترسل ضوءًا أحمر مشعًّا بحرارة علَّها تبدد ما يمكن أن تبدده من وجع البرودة، أو إخوة ملفوفين في أغطية ولعن دؤوب للبرد واختراعات متجددة لجلب الدفء. أما الصراخ المستمر فربما يأتي من بُعد المسافة بين غرفة وأخرى تستلزم صراخًا على شقيق أصغر أن يأتي، فلا يسمع فنكرر فلا يسمع فنصرخ، ذلك أن المشي حتى مكانه يضيع وقتًا ويذهب الحاجة فناء، أو الأم تنادي ابنتها في المطبخ فتهتف عليها ولا مجيب ثم تطور الصراخ من عصبية وتوتر إلى طبع مستأسد في الكيان وزعيق عادي، فننادي بعضًا بالصراخ ونضحك مع بعض بالزعيق ونعاتب أنفسنا بالهتاف ونحكي قصصنا بالصوت العالي، ونتشاجر قطعًا بالصراخ.

وقد أصابت العدوى كل أجهزة البيت، فالثلاجة ذات صوت موتور غليظ يقطع أية محاولة للهدوء، والغسالة آلة حادة لها هدير مدوٍّ يعصف بالسكون يلقينا بالصداع في اليوم المخصص للغسيل، والتلفزيون لا يكف أبدًا عن صوته المرتفع حتى أصوات تغاريد العصافير المزدحمة فوق أغصان أشجار حديقتنا تتشابك في صوت واحد يكفي لتحويل تغريدها إلى نحيب أو شجار خرافي.

لكن كل هذا الصراخ الطبيعي المعتاد كان خافتًا هشًّا مع وفود عشرات الأقارب والأحبة في هذه الليلة، ليلة فرح الأخت الكبيرة التي دفعت العمر كله للتكاتف في المائة والسبعين مترًا مساحة منزلنا، في

كل قطعة فراغ هنا بعض من الأهل وقدوم من الماضي وإشراق من أفق بعيد واقتراب لبعاد ودنو لمرتحل كما يصير البرد منفيًّا تمامًا مع أنفاس الناس والذكريات وملامح الوجوه المحملة بالحب المفروشة بالأماني الملونة بالصدق الشفيف لا يحجب الحقيقة ولا يخفيها.

كلما خطوت تعثرت في ساق ممدودة من أسفل أريكة أو كف مفرودة فوق مقعد أو جسد متقلب يحوي داخله جسدًا صغيراً لطفل يغطس في أحلامه، تتحاشى قدمي الضغط على جسد أو دوس طرف فأتحسس بنظري الضعيف مساحة فراغ أو مسافة فاصلة بين جسدين، أمرُّ عابرًا الصالة التي كسيت بالأغطية والمفارش والأجساد المبعثرة والأصوات الناعسة وفواح الدفء، من غرفة الجلوس تبدو أجساد أخرى تنام على السجادة ملتحفة بغطاء خفيف لا يكفي احتواء الأطراف كلها (على قصرها)، وفوق الأريكة ينام عضو هام في عائلة تتوسد الأرض، وفي غرفتي عدد من شباب القادمين، ينامون متقابلين على السرير حتى يتسع لهم، وقد وضعت ملابسهم المؤنقة خصيصًا ولفائفهم فوق المكتب وعلى المقاعد وظهروا جميعًا بملابس نوم لي ولأبي، فطالت على واحد وقصرت على كثيرين وبانت طرافتها عليهم جميعًا وهم يخوضون نومًا متعبًا من السفر، أما الغرفة الكبيرة لأخواتي فقد امتلأت عن آخرها بهن وسيدات العائلة، وقد نمن متأخرًا جدًّا بعد ثرثرة تنازعت شفاههن نزعًا طويلاً من الليل، حكَين فيها من فوق الأسرة المتقابلة وبضحكات مكتومة ثم رنانة قصصَ شهور مضت ونوادر سنين فاتت، ثم انفردت إحداهن بأختي تتناوبان أسئلة وأجوبة عن الحال فيمَ قضاؤه؟ والإحساس ما طعمه؟ والرؤى ما شكلها؟

والمستقبل أي ألوانه؟ ثم يأخذهما الضعف والنوم إلى إجازة مؤقتة عن الحكايا والأسئلة.

أما غرفة أبي فلا يمسها أحد ولا يقربها سواه وأمي، وفيها سهر طويل وانشغال مقيم بالغد وترتيب فائق من الأم عن احتياجات الإمداد بالطعام والغطاء وأمكنة النوم ومدد الإقامة ووسائل الهدايا وطرق الانتقال لمكان إقامة الفرح، وعن الذين سيأتون من القرية ظهيرةً عند كتب الكتاب وعقد القران، فهم الوفد الثاني الذي لا يبيت لقرب المسافة وتوفر المواصلةَ السريعة.

والنوم المستخف بزحام محيط هو ما أحسه بعد ساعة من تقلب رأسي في مخلوقات السعادة والحزن الداخلي وعن دقات متعجلة منضبطة (...) لذكرى عاطفية وحلم عذب، أعلم أنه عند الصحو إذا بالمكان سيكون خلية نحل وسعي نمل، الوجوه كلها في توهج الصباح وألق اللقاء، من الإسكندرية جاءت عمتي وعمي، ومنها أيضًا بنات عمتي بأطفالهن يتدافعون ويلعبون ويضربون الآخرين، ويلتقون بوجوه يعرفونها من سابق الزيارات المتبادَلة فيستأنفون لعبًا لم يتم وشجارًا لم يكلل بفوز، ويصحب الزوجات أزواجهن يتعاملون برقة آمنة وترقب أليف، ويتفق أحدهم مع خالي في مزاح تدخين الشيشة فيجلبها خالي إلى شرفة منزلنا ويضعها على مساحة من البلاط ثم يغير ماءها ويضبط عود الغاب بها ثم يحرق فحمًا في إناء صفيحي قديم كدسه بالتراب الذي اسودَّ بالنار، ثم يرص المعسل بعد فضه من ورق أبيض في علبة كرتونية خضراء رسمت عليها رسوم بدائية، ويضبط الشيشة في عشق، ثم يسحب أنفاسًا من الدخان يخرجها من أنفه

وفمه، ثم يضرب على صدره في صوت متضخم متمثل عَظَمة المماليك قائلًا

- صحة وعافية يا راجل يا سبع.

وأطفال العائلة كلهم يتابعون تحركاته ويقتربون من ناره ودخانه في فضول شيق وأخواتي والبنات يتابعن في ضحك وسخرية أحداثًا شديدة الموسمية في منزلنا، ويأخذ خالي بين أصابعه عود الغاب يمسحه ببطن كفه، ويقدمه إلى زوج بنت عمتي الذي يتسلمه ضاحكًا شاكرًا ممتنًّا فيضعها في فيه ويدخن وقد سُر فعلًا من تعاملنا مع هذا الطقس العادي بشيء من الدهشة وكثير من المتابعة كان يراها لأول مرة.

ثم ينطلق الأطفال بعد ملل المتابعة إلى صخبهم المدوي يجرون في كل بقعة من المنزل وألحق بأحدهم وهو يقرر تصفح مجلد ((البداية والنهاية)) لابن كثير، فيمسك بغلافه فيشعر ثقل الكتاب عليه ويكاد يسقط فوقه وهو مذهول في غرابة، أنقذ الكتاب وأعيده، تلمحني أمي فتصرخ فيهم ألا يقترب أحد من المكتبة. أحسن عمكم... ثم تتوقف عن التهديد حتى لا تفسد هناءَ اللحظات مكتفية بإشارة من يدها،يعدو الطفل إلى رفاقه متجاهلًا الموقف برمته، لكن آخر يقف أمام مرآة طويلة في غرفة النوم ويبدأ إلقاء الأمشاط وفُرَش الشعر وعلب الكريم وشرائط كاسيت منسية على الأرض في بساطة، وطفل يعبث في كل مفاتيح التلفزيون، وتسرع أختي في غلق باب غرفة الجلوس وتمنع أخرى اثنين منهم من اقتحام غرفة نوم أبي وصلا حتى العتبة ورأيا أبي جالسًا يقرأ القرآن وأمي تبحث عن نقود في مكان

تحفظها فيه، تأتي أختي من خلف الطفلين وتربت على ظهريهما النحيلين طالبة منهما التراجع للصالة التي امتلأت بأطفال كثيرين، أنادي على واحد منهم باسمه فلا يرد فأكتشف أنه ليس اسمه بل وليس واحدًا من أطفال العائلة على الإطلاق، بل هو ابن الجيران في نهاية الشارع التقطه طفل من العائلة ولعبا معًا ثم دخلا إلى البيت ليشاركا في الاحتفالية، أطلب منه محاولاً أن أكون عطوفًا الخروج حتى لا تقلق عليه أمه، أوصله إلى عتبة المنزل فأجد طفلاً من العائلة يقف أمام الباب مع طفلين غريبين ويدعوهما للعب معه في الداخل.

والأمهات مشغولات عن رعاية أي طفل فضلاً عن أنهن لا يستطعن رعايتهم في هذا الضجيج أصلاً، فالأمهات كلهن في المطبخ الآن، جاء أولاد عمتي من المحلة الكبرى ومعهم صحبة أخرى من الزوجات والأطفال يتفرقون إلى الأماكن الطبيعية، الأطفال إلى الهرج والنسوة إلى المطبخ لإعداد الطعام حيث ازدحمت عشرات من الصواني والأواني المعبأة بالباذنجان المقور والأرز معصور في حمرة المحشي، والأصابع تمتد وتعبئ وتصُف، وأوان فوق الموقدين المشتعلين بكل عيون الغاز، البطاطس تلقى علىٍ الصلصة وأصابع الكفتة تغرق وهي بُنية محروقة إلى الآنية فتحمر بالصلصة السائلة، ودوائر الغليان تتحلق في الأواني وتصدر وشيشها المستطاب وآلاف من قطع الخيار والطماطم في سلطة تملأ صينية كاملة في شكل هرمي متكتَل، وتقطعت مئات من قطع الخبز الساخن الذي جلبه خال آخر بعلاقاته مع عمال المخابز، جاءت الأرغفة بالمئات ساخنة مفرودة موصى عليها محملة في أسبتة اندفعت نحو المطبخ فور حضورها مع

مقارنة كل العمات وبنات العمات وزوجات أولاد العمات بين الخبز في مدنهم اللون والشكل ومدى العناية ومسافة الرعاية وسهولة الشراء ونصيب صناديق القمامة من البقايا.

تقلب ابنة عمة بملعقة كبيرة صينية المكرونة، تغوص في الحمرة بقطعها الصغيرة المشكلة المضلعة، ثم تسأل أمي عن حاجة وقد تصببن جميعًا عرقًا واشتدت وجوههن بخارًا، ولكن مسحة بإصبع على جبهة تكفي لرنة ضحكة وحكي ندرة وقص طرفة وسؤال عن حال واستئناف لحماس نشيط صادق لأجل إطعام الأفواه المستضافة القادمة للفرح، وسط دعوات حارة لإتمام الأمر على خير وعقبال الأولاد وإلحاح لتزويج الابن الكبير (أنا) وترشيح ست الحسن والجمال، أو ملاك قادم من السماء، أو فتاة مهذبة جميلة جارة لإحداهن، تعتقد أنها النموذج الوحيد للجمال على وجه البسيطة، خصوصًا لو كانت في كلية الطب أو الهندسة،ثم فتوى من إحداهن: لن أتزوج سوى صحفية مثلي، ثم تخوف من أمي عليَّ، فطمأنة تتبرع بها كثيرات.

أحد الرجال القادمين إلينا يريد الخروج من باب الغرفة المطلة على الحديقة إلى الصالة، ثم إلى باب المنزل للذهاب لمشوار عاجل، يلتبس عليه الأمر، فيدخل إلى المطبخ بدلًا من ردهة باب الخروج فتضحك النسوة ويشرن له إلى الباب.

من الشرفة يكون أحد أبناء العمومة يعد في تمام حرص ودأب حب وإخلاص متفان كل لزوم زينة الكهرباء على واجهة المنزل وفوق البنايات المجاورة وعلى الأعمدة والجدران، ويتباهى به أبي لحرفته

في الكهرباء والتي يشتهر بها في المحلة الكبرى وكيف أخلص إلى حد جلب هذه الأشياء إلى الفرح: ماكينات كهرباء ومئات من المصابيح الملونة وعشرات من النجوم الكهربائية المستديرة، وحوله أبناؤه الصغار الذين يربيهم على الصنعة وشرب الحرفة وصبيانه العاملون عنده، يصعدون سلالم ويتسلقون أسوارًا ويركبون شرفات ويهتفون على بعض ويربطون أسلاكًا ويعلقون مصابيح، وهناك تحضر سيارتان لابن عم للمشاركة في انتقال المدعوين، تملأ الأضواء الشارع كله فتطلق فيه نهارًا عاجلًا. في نهاية الشارع، يبدو ابن عمة ماتت منذ سنين طويلة كافية لئلا يبقى في ذاكرتي لون بشرتها أو سمة ضحكتها أو طعم ملمس كفها على كتفي، أخبرني أبي أنها ماتت ولم أستقص للآن سن وفاتها وأخبار موتها وكيفية رحيلها عن البلدة أو غياب ابنها عنا سنين، كان قدومه فيها نادرًا ندرة إدراكنا لعدد أبنائه منذ خروجه من الجيش بعد معركة 1973 حيث أصيبت أذنه بمرض ما أضعف السمع وأرَّق الجسد وخبره عندنا قليل وحضوره لدينا مبتسر يجيء من نهاية الشارع ملمحًا دون وجه كامل وصحبة دون معرفة وافية، وحين يدخل إلى ردهة المنزل يدب فينا حنين دفين وذكرى مغردة وعصف لتراب سقيم علق على جدران قلوبنا، فتزاحمت العائلة الوافدة من كل صوب كي تلقى الابن العائد بعد غربة (يبعد عن مدينتنا عدة كيلومترات فقط)، يحضنه أبي بوفر من الدمع والتصاق للصدور وقُبل موزعة على الخدين.

- كيف حالك يا خالي؟ لك وحشة والله العظيم، ألف مبروك.

ثم تندفع إحدى خالاته إليه فتأخذه في حضن افتقد جسده النحيل

ووجهه الشاحب وجلبابه الوسيع وشاربه القصير وهدوءه الرزين وبسمته الوادعة، وينام برأسه المندهش فوق كتفها القصيرة البضة اللينة وهي تبكي متشنجة جاذبة ذكرى أختها البعيدة وابنها الوحيد في صدرها بعد فرقة، ثم يقدم لها أبناءه وزوجته الذين أُخذوا بحرارة اللقيا وزحام المشاعر وارتجاج الأحاسيس فوق الوجوه، في العيون المشوشة بالحمرة والدموع والفرح وخلط غير مدبر من العواطف.

الأطفال الهادئون يتعلمون الصخب، والأقارب مستغربو المكان يندمجون في المكان والزحام والجسور البعيدة السميكة بين الناس تعبرها الكلمات والمشاركات، في ارتباك وتوجس من خطأ ما قد يثب في أي مكان ما في الدائرة الواسعة من العالم الخاص بنا، يسأل ابن عم هل اطمأن أحدكم على استعدادات البرج؟

بسرعة وحماس تتشابه الآراء حول ضرورة الذهاب للاطمئنان؛ فهو الفرح الأول في العائلة الذي يقام بعيدًا عن سطح منزلنا الذي شهد أفراح أخوالي وخالاتي وابن عمتنا حيث كان السطح يمتلئ بالمقاعد الخشبية ذات القاعدة الخضراء والنقش حول المسند باسم صاحب محل الفراشة ويقيم العمال أيضًا مكانًا عاليًا قليلاً بألواح من الخشب، فوقها مقعدان للعروسين، وفي آخر لحظة دائمًا نسرع إلى طنطا بسيارة أحد المعارف لشراء باقات من الورود لوضعها خلف المقعدين وأمام ملاءة فاخرة مطرزة كبيرة كنا نستخدمها فراشًا لليالي العيد على سرير والدي، وعندما تطورت علاقاتنا بالأفراح صرنا نذهب إلى المدرسة الزراعية بالمدينة ونشتري من بستانها الورود والزهور بحرص من أحد أصدقاء العائلة الودودين والمخلصين حيث يعكف

على هذه المهمة الخاصة، وكان دائمًا ما يباشر تأكيداته لنا بأنه كفيل بها وبأن كل شيء على ما يرام، ثم يشرح - فيما لم يطلبه أحد منه - أنواع الورود التي سيأتي بها وأهميتها وأفضليتها على الأصناف الأخرى والحكمة من بقائها طويلًا والعامل الذي يمت له بصلة ما لا نعلم كنهها الذي سيولي إعداد الباقات عناية فائقة ولن يفرق أبدًا عما نأتي به من طنطا وبنها، ثم يضيف طبعًا أن الورد خسارة في العريس والذي يكون أحد الأخوال، فيجب أن نضع وراءه جميزة أو نخلة حيث إن هذا مقامه، ونتلقى كلامه في ضحك مرتج بينما يعالجه العريس بكلمة ساخرة أو بلكمة ساخرة أيضًا.

وكانت الفرقة الموسيقية التي تعزف فوق السطح جديرة بالعزف فوق السطح، فهي مكونة من بعض الشباب يقودهم جار لنا محترف في فرقة الأفراح، وكان أحد أصدقائي عازفًا بها، ويمكث طيلة صداقتنا يعاير أبناء العائلة أنه الذي زوج آباءهم وينادي على صبي منهم في لهجة آمرة حاسمة.

فلا يطيعه الصبي فيقول في حسرة:

- شوف العيال، أنا يا ابني الذي زوج والدك.

وكانت الفرقة دائمًا مثار جدل حول الإتيان بها وكفاءة القيام بمهمتها وأجرها الغالي، لكنهم كانوا دائمًا يأتون بها وتقوم بمهمتها ولا يكون أجرها غاليًا حتى بدأت الفرقة تبعًا لقفزات الدنيا تقفز في الآلات فتجاوزت جارنا الطيب الذي أصيب بمرض السكر وصار صديقي أحد نجوم فرقة أخرى من العازفين على الآلات الحديثة مع فناء النقوط الذي شبعنا أثناءه ضحكًا على ما يفعله أحد أخوالي بهم،

فقد كان يتبارى في الرقص يؤدي رقصة طويلة شرقية رائعة فيها ليونة الحركة وخفة القفزة ورشاقة الالتفاف وانثناءة المحترفين وروح مرح يفتقدها كل راقصي مصر، ويقترب بصدره نحو العريس مقلدًا أمهر الراقصات فنضج بالضحك، ثم يداعب والدي الجالس في وقار واتزان فيبتسم الوالد فيعد الخال هذا نصرًا فينطلق بين الدوائر التي تتسع حوله مصفقة مهللة محيية، ويجذب منهم تصفيقًا حارًّا ومجنونًا أحيانًا حتى يقرر التوقف في لحظة مجد، ثم يطلب وهو مهدج الصوت لاهث الأنفاس سيجارة من أحدنا، ثم يمسك بطفله ويرفعه على كتفه ضاحكًا ويطلب منه مواصلة الرقص بدلًا منه فيقلده ابنه في انطباق يدعو للدهشة والضحك.

وكانت سهرة الفرح دائمًا معلقة بحكايات بين المقاعد وعلى درجات السلالم عن الزفاف ونحن نتبادل إشارات وتلويحات مفهومة من الجانبين فيضحك من يفهم ويسايرنا من لم يفهم، ويبرز أحد الحاضرين بحكاية الصديق الذي أخذَنا صبيحة عرسه إلى شرفة الشقة حيث كنا ثلاثة يتوسطنا وأمال جذعه على إفريز الشرفة ومضغ كلماته في خجل وتردد وخوف يحكي عن ليلة الدخلة وكيف لم تطعه رغبته وخذلته قوته، لعن رهبة الموقف وقلة الخبرة ومفاجأة الانفراد بأول امرأة لأول مرة في حياته، وكان لا يدخن ومن ثَمَّ تابع تدخين بعضنا بشغف التنفيس، ثم استطرد في بطء أن زوجته كانت طيبة هدَّأت روعه وحاولت مساعدته حتى إنها خلعت ثيابها كلها عنها وربتت عليه وأنامته على صدرها وأسرَّت له أن هذا شيء عادي، وأنها لن تلح عليه فهي أمور تحدث دائمًا، وكان يسألنا هل هي أمور تحدث دائمًا؟

وتركنا للمتزوج فينا أمر الفتيا فأرسل فيه اطمئنانًا جادًّا وأعلمه أنها مسألة طبيعية جدًّا ولا داعي للقلق، ودعاه لسيجارة فلم يستجب فأكمل أن الليلة حاول مرة أخرى بهدوء، ثم أحال هذا كله إلى طهره وعفافه من قبل، وأن المرأة عادة تكون أكثر فهمًا ودراية وأمومة في مثل هذه المسائل ثم نكمل جميعًا القصة وبضحكات عالية مدوية تلفت أنظار الفرح إلينا حين يصعد هذا الصديق مع زوجته وعلى كتفه طفله قادمًا نحونا ونحن من فرط الضحك تعمى عيوننا عن رؤية ابتسامته المستفهِمة وتوعده لنا بطلوع الروح.

حلقات الأصحاب والأصدقاء في هذه الأفراح فوق السطح كانت مميزة ومتميزة جدًّا فقد كان كل عريس على موعد مع أصدقائه بعد زفافه، فقد أسرع أصدقاء أحد الأخوال إلى شقته في الدور الأرضي بعد أن دخل هو وزوجته بعشر دقائق وبدأوا الدق على النافذة بعنف الصراخ والضحك، ثم الرقص والغناء، ثم عودة إلى الخبط على الجدران والنوافذ في رعب بوليسي ساخر ومضحك، لكن الخال لا يجيب حتى لا يتمادى الأصدقاء في دعابتهم الثقيلة فيتدخل أقارب عاقلون لفض هذا الضجيج ويرحل الأصدقاء في ضحكات متفرقة منسحبة وثنائيات مبتعدة وهمهمات منتهية.

أما حلقة من أصدقاء خال آخر فقد اكتملوا ثمانية ومضوا جميعًا إلى الشارع الذي تقع فيه شقة العريس وتحلقوا تحت الشرفة العالية المغلقة وأخذوا في إصرار ودأب وصوت عالٍ ينادون عليه:

- انزل يا أحمد.

فلا يستجيب لهم فيرتفع صراخهم حادًّا وضجيجهم مدويًا:

- انزل يا أحمد يا جبان.

وينحني أحدهم إلى الأرض فيلتقط حجرًا صغيراً ويقذف به نافذة أو سور الشرفة، أما الآخر فيضع كفيه حول شفتيه ويُنغم النداء:

- أشوفه...

ثم تبدأ الحلقة في التفكك قليلًا على انفراط الإصرار وثبط العزيمة ويتدرج رحيلهم ثلاثًا والآخرون وراءهم، لكن أحدًا ينتبه ويصرخ:

- إنه يفتح الشباك.

فيجرون نحو الشرفة فلا يسمعون حسًّا ولا خبراً ويدركون اللعبة فينتقم بعضهم من صاحبهم، أما الآخرون فيلقون حصوات على الشرفة محبطين من هزيمة صبر العريس.

كانت الغرفة ملأى بصديقات أختي التي تتوسطهن في ثوب عرسها جميلة متألقة مثل القمر بعد أن أخذت زينتها وصعدت فرحتها إلى عينيها وشفتيها واحمرار خديها ونور جبينها وثوبها الأبيض المطرز وغطاء شعرها الاحتفالي، اقتربت منها وهي منشغلة بنفسها عن الجميع وبفرحتها عن نفسها، أمسكت بيدها فنظرت مبتسمة لي فقبَّلت كفها داخل قفازها الأبيض ((الدانتيلا)) الشفيف فأخذَتها الدهشة والفرحة.

وقلت لها:

- مبروك يا قمر.

# ٣

# الأهلي والزمالك
# النخل لم يعد نخلنا

عبرت الردهة المؤدية إلى الصالة فارتج شيء داخلي، الصالة خالية في المنزل الكبير، انسحب منها الضجيج وانطوى تحت إبط النوم.. ونام؛ عبثت عيني في الفراغ، أضواء ناحلة تفرزها ((وناسة)) خضراء معلقة في السقف.. ساعة الحائط أُخليت لها الضجة والصخب تمامًا دقاتها تحفر الجلد وتبقر الآن الأذن بأن شيئًا ساحقًا اسمه الزمن هنا ينظر وينتظر، أصوات ازدحام أرجل الفراخ والطيور فوق السطح تجري واحدة وراء أخرى، ويزعق ديك أعمى - ظن أنه الفجر - ثم اشتركت حمامة في ((المنور)) فطارت مرفرفة فاصطدمت بعلبة من الصفيح تستخدم عشًّا لها فيتعثر الصمت مع القش المتساقط من العلبة، فأغلقتُ النافذة المطلة على ((المنور)) واستدرت ناحية الأريكة المفروشة بالخَضار ومسند يتوسطها ومساند أخرى ملقاة هنا وهناك على الأرض، بجانب الأريكة المقابلة آثار فوضى المشاهدات المستغرقة لشاشة التلفزيون، انسل صوت أخي متسللًا من غرفة النوم

المفتوحة على الصالة متقلبًا على فراشه ثم سائلًا في يقظة ظننته يتحدث مع نفسه إلى أن أفقت على وضوح السؤال من غمغمة النوم:

- أين ستشاهد المباراة يا ((أخوي)) ؟

يقول ((أخوي)) برنة حب وزهو والتصاق يفتح صدري ويسكنه و...

يضيف وطقطقات السرير وقرقعة الخشب من تقلبه الثقيل المتمرد يضفي على إضافته صيغة الفزع:

- هنا أم في القاهرة؟

أجبت في حدة غير مبررة وألم يخشى فضيحة الدموع (التي ستأتي ستأتي).

- لا أعرف.

أحس أخي خيبة أمل في الإجابة، فتفرغ لجلب النوم وتركتني كلماته مستندًا على الأريكة نائمًا فوقها متقلبًا عليها بعد شعوري بوجع كتفي النائمة.

التفت، فوجدت أمي تدخل من باب المطبخ إلى الصالة حاملة صينية معبأة بأكواب ((الحلبة)) الصفراء تصعد منها الأبخرة وتفترش بقايا مياه غسل الأكواب على سطحها، وبابتسامة تشق طريقها في زحام الأحاسيس والمشاعر والانتباهات المحدقة في الشاشة، أشير لها أن تتحرك قليلًا لأني لا أرى جانبًا من المباراة، أما أبي فيصرخ عندما تتحرك أمامه:

- هل هذا وقته؟

فتحاول أمي ضاحكة أن تحضن روعه.

- هذه ((حلبة)) هدئ أعصابك.

يشيح أبي بكفه:

- يووه.

أبخرة ((الحلبة)) الساخنة مدموجة مع تنهداتنا جميعًا، نملأ الصالة نزدحم أمام الشاشة نلصق عيوننا فوق أقدام اللاعبين وننحشر في حشائش المساحة الخضراء المترعة باللهث والجري والكرة البيضاء ذات الرقط السوداء تشعل فينا الوهج.

كانت الصالة مزدحمة بهم جميعًا - أيام كانوا هنا جميعًا - أبي جالس على فرشة محشوة بالقطن مستطيلة لينة على مبعدة أقل من متر من جهاز التلفزيون ووضع جانبه تحت ((البوفيه)) كوب ((الحلبة))، وكل لحظة يشير إلى خالي الجالس على مقعد خشبي ملتصق بالتلفزيون تمامًا حتى نرى ظلال أضواء الشاشة وحركات اللاعبين فوق أنفه الطويل الأبيض واللامع يشير له:

- حاسب.

يخشى أبي تحرك قدم خالي صاحب الجسد الضخم والطول الفارع والعنف الفطري الجميل الذي يثور في لحظة ويهدأ في الدقيقة التالية لها، أو يعاند معنا فيستمر في عنفه - لمجرد أن يستمر ولمجرد ألا يشعر أنه لم يغضب لسبب قوي - وكانت جلستهما أمام الأهلي

والزمالك محل اعتبار لكليهما دائمًا، فخالي هو الوحيد الذي يشجع الأهلي في عائلتنا كلها، كلنا نستحم في حب الزمالك والتعصب له والانتماء إلى انتصاراته وانكساراته وغمة النفس التي يصيب بها مشجعيه دائمًا، ومنذ اليوم الأول الذي شعرت فيه حب الزمالك جنينًا في صدري وأنا نادم على حب هذا النادي، في الحقيقة كلنا نادمون على حبه ولكننا جميعًا أيضًا نقول ما باليد حيلة، ثم نعود لحبه والتعصب له والتطرف لأجله والنقمة عليه وسبه وقذف كل لاعبيه بالرعونة وقلة الانتماء مثل أي عاشق يعبد حبيبته ويعود لها رغم أنها تخونه عند أول ناصية يتركها عندها.

والبيت كله ينتفض بالزمالك في هذا اليوم، فالأخوال كلهم وابن العم وأنا وأخواتي البنات وأخي الصغير كلنا نزدحم أمام الشاشة، خالي الآخر يجلس على الأريكة في المقابل واضعًا ساقه تحت فخذه والساق الأخرى مدلاة على الأرض حيث يجلس خال ثالث متربعًا في تحفز وفي كل لحظة نطلب جميعًا من أبي ألا يتحرك حتى نرى الشاشة كلها، وخالي الجالس على الأريكة يرفع كوب ((الحلبة)) إلى شفتيه حين تقذف كرة قوية فتهز الحلبة فتسقط فتسرع أختي المنتبهة إلى المباراة تلتقط قدميها من الأرض، ثم يتكاسل الكل عن القيام لإحضار قماشة لمسح السائل المنسكب، بينما يلتفت أبي فيرى الموقف فيزعق في خالي:

- لماذا هذه العصبية؟

فنضحك جميعًا، ويطلق خالي الأكبر بشاربه المنمق وشبابه المزدهر رغم تجاوزه الأربعين:

- حلاوتك يا أستاذ سيد.

ثم يقفز على ظهره في حركات سيرك ويتقلب حتى يصل لأبي الذي عاد لهموم المباراة فيدفعه أبي بعد المفاجأة ويبعده عنه:

- بطَّل، ألن تكف عن هذه الحركات؟

فيدفس خالي الممثل القديم ذقنه في عنق أبي وظهره في محاولة منه لجره بعيدًا عن المباراة ولمعاكسته - حتى دون سبب سوى أن خالي خفيف الظل يضغط على غدة الضحك عندنا جميعًا بحركاته - أما خالي الجالس على الأريكة فقد قفز الآن فوقها وهو مفزوع كأن تمساحًا خرج من بطن حشو الأريكة:

- ضاع هدف أكيد، هذا لاعب حمار، كان المفروض يضربها بجانب قدمه اليمنى فتلف وتدخل في سقف الزاوية.

ينتبه أبي له فيقول وهو في نصف قيام لرؤية مجريات الكرة جيدًا:

- لا.. كانت بعيدة يا سيدي.

أخواتي يتحركن في ملل الآن، الكبرى تستعجل النصر ثم تُفتي في الكرة بشكل يدفعنا كلنا إلى الصراخ فيها:

- والنبي.. يا سلام.. والله.

فتصر على رأيها أن الزمالك سيئ، وأن أحسن لاعب هو أسوأ لاعب نراه نحن جميعًا.. يقوم أخي الصغير من الأرض إلى توسط الصالة فنضج جميعًا منه، ثم ينطلق إلى الشرفة وبعد لحظات نسمع كلنا ضربات الكرة في الجدار وخبطات القدم على البلاط وصيحات

وتأوهات فوز وأهداف وهمية فيضحك خالي الكبير:

- شادي قرر يخلص نفسه ويحرز هو الأهداف في الحائط.

يبتسم أحدنا ويضحك آخر ويلعن ثالث مجريات اللعب البطيء، بينما يفيق أبي من تركيز انتباهه وعمق اهتمامه ويسأل:

- ما هذا الخبط؟

فتنادي أمي أخي في حزم وصراخ:

- تعالَ هنا يا شادي.

فلا يسمع، فهو أساسًا لا يريد أن يسمع، مندمجًا في إحداث نصره الذاتي وتحققه الفردي في فوز يصنعه هو لنفسه وبنفسه بعيدًا عن لاعبين يصيبون إخوته وأهله بالشلل لجراء عجزهم عن هدف، وتستمر أهداف أخي في الحائط حين يقفز خالي الأهلاوي من مقعده بعد هجمة ناجحة لفريقه على مرمى الزمالك ويصرخ:

- ياه.. هدف أكيد.

يتنفس أبي براحة آمنة بعد ضياع الفرصة ويلكزه بكفه:

- قال يعني الولد لاعب قديم في الأهلي، يمكن مشترك في النادي الأهلي ونحن لا نعلم يا أخي.

يغضب خالي من المداعبة فينفس الهواء من أنفه دون أن يملك حرية الغضب المتبادل حتى يضيق بحصار أخوالي الآخرين:

- بالذمة أنت فاهم حاجة؟

- لا عليكم.. أهلاوي ماذا سنفعل له؟ هذا خلقة ربنا.

تحاول أمي أن تناصر أخاها مهتز الموقف:

- يا بني ما الذي يجلسك معهم؟

يضرب خالي بكفه على فخذه:

- كي يعرفوا ماذا سيحدث لهم، أصل لو قمت من مكاني الزمالك سيضع أهدافًا وأنا لا أريد لهم ذلك.

يقوم خالي الكبير إليه مندفعًا ويضربه على ظهره ويضغط على كتفيه ويكاد ينام فوقه بجسده النحيل:

- لا.. اجلس هنا.

ثم يواصل الضغط وخالي المُعْتَدَى عليه مستسلم في ابتسام:

- أجلس لما نرى هزيمتكم وخيبتكم.

يقيم خالي ظهره فيسقط الآخر على الأرض في حركة تمثيلية بديعة ويهتز بقدميه وساقيه في رعشة الراقصين.

- قلبي(ثم بالجيم) جلبي.

ثم ينهض في خفة ويسأله:

- ماذا تضع في يدك؟ ((دشم)) أسمنت؟

وحين تندفع هجمة ضد الزمالك يصرخ فيهم أبي:

- وماذا بعد؟ (وفي ضيق بالغ) لا نستطيع أن نتابع المباراة منكم، خلاص نروح نتفرج في مكان آخر.

حرارة الجو محكمة بعد أن قررت أختي الوسطى أن تغلق كل منافذ الضوء وتصبح الصالة معدة لمشاهدة حقيقية للمباراة كأنها قاعة عرض سينمائي، يحتج أبي ويقوم مسرعًا فيفتح نافذة الصالة ثم يعود لمجلسه، وقد تحرك شيء فينا؛ قلق وترقب وتسرب جاد في شرايين الصدر يؤخر دقات القلب المفزعة وارتفاع في نبضات متدفقة تبدو في تحرك الأكف، توتر القدم على الأرض، اشتعال الخدود والوجنات حمرة، أنفاس قلقة تهتز أمام أنوفنا، قيام وجلوس، يمنة ويسارًا، ضربة بالكف على الأرض، إمساك الأصابع بالرأس، طرد الأطفال - أي طفل - لحظة قدومه نحونا، صراخنا ضد كل من يعبر أمام الشاشة، أنين المقاعد الخشبية تحت مؤخراتنا، وجع الأرائك من اهتزازنا، زحام وتشابك والتئام وتوحد واعتصار وانصهار ومعانقة ودفء صاخب ساخن.

حين يدخل صديق العائلة في مرحه المعتاد وتشجيعه للأهلي الفرح يضج خالي الكبير مازحًا في وجهه:

- ما الذي جاء بك هنا يا ولد؟

ونتبعه: ((هي ناقصة؟ )).

- يكفي وجه عكر واحد هنا.. لازم ثانٍ يعني!

يدخل ضاحكًا متلفتًا إلى خالي رفيق أهلاويته:

- يعني ليس هناك أحد معي سوى هذا ((الأتوبيس)) يشجع الأهلي!

يلقيه خالي بمسند الأريكة الخشن.

يتلقاه قبل أن يحطم نظارته وفي ندم ضاحك:

- خلاص أنا آسف، أنا عيل.

ثم نقوم فزعين جميعًا قومة رجل واحد حيث ينفرد لاعب بالمرمى لكنه يطيح بها في السماء، يجري خالُ ممسكًا كتف الصديق:

- شفت.. الولد رقَّص واحدًا (ثم يحرك جذعه راقصًا) والثاني (يواصل الرقص) ويعدي من الثالث (يميل بقدمه وساقه كأنه يستدير بكرة) وبسن الحذاء كرة مقشرة مثل الصاروخ.

فيبتسم الصديق في أسنان تكشف ضحكة غارقة مكتومة:

- طيب ثم ماذا بعد؟ ماذا حصل يعني؟

ثم يشير إلى الشاشة ويضيف:

- يا حبيبي الكرة ضربة مرمى، هل هناك قانون جديد في كرة القدم أصدره الاتحاد الدولي اسمه أن الزمالك لما يجيب ضربة مرمى تحسب له هدفًا؟

فلما يشتد في سخريته، تعالجه أكفهم بضرب خفيف يسكته.

خرير الماء صاعدًا من زاويتين في المنزل والحمام الكبير، وحوض الماء أمام الحمام الصغير، يغسل قلقنا ويضوي في وضوء نصفنا - على الأقل - نلحق بصلاة العصر في استراحة المباراة وسط حفيف التوقعات والتعبيرات عن خيبة الأمل في مستوى المباراة، وضحك متأخر عن حادثة حصلت، ومتابعة لإعلان ما على الشاشة،

وسؤال حول موعد بعد المباراة ومكالمة هاتفية يجريها خالٌ، وبحث عن ورق رسمي في حقيبة بنية ضخمة يطلبه صديق العائلة كي ينهي إجراءات خاصة بالنقابة لأبي، وأحد الأخوال يقف في الشرفة، وأخي يواصل لعب الكرة، وأنا أقلب في صحيفة أو أكمل فصلاً من رواية، وأخواتي يذهبن إلى المرآة أو المطبخ أو الجنينة، وهناك يجلس والدي بعد الصلاة يداعب الشجر وينغمس في الزهور ويهندس الخضرة وكأنه لم يكن منذ لحظات مضبوطًا في توتر واهتزاز، وحين تبدأ اللحظات الأولى من الشوط الثاني يسعى والدي إلى الصالة عابرًا سلالم الجنينة، الشرفة، الغرفة، تلفت نظره فوضى ما أو عبث بيتي فيطلب تغييره وهو يجلس أمام الشاشة، والأخوال والأهل يعيدون جلستهم ويتقاطرون من أمكنتهم، ويتمطى القلق مرة أخرى فوق الصدور وتحت الجفون، ويشير أحد الأخوال إلى مكان ما في مدرجات الجماهير:

- هذا هو صاحب العملية كلها، يقف وينادي الجمهور فيهتف خلفه ويغني وراءه، عندما حضرت المباراة في الاستاد (وهي مرة حكى عنها خالي كثيرًا) كنت جالسًا بجواره، وكنت فاكر نفسي كبير المشجعين، طلع مجنونًا فعلاً، والله العظيم لا يرى المباراة على الإطلاق، طول الوقت ظهره للملعب ووجهه للناس يصرخ فيهم ويسبهم ويقذفهم بأنيل النعوت ويتهمهم بتشجيع الأهلي وليس الزمالك ويحثهم على الهتاف، هذا الرجل وراء الزمالك في أي مكان يذهب له.

يلتفت الخال الأهلاوي الوحيد إليه منقذًا نفسه من وضع المتهم:

- ولم تقل يعني ماذا حدث لك وأنت راجع من المباراة!

يضحك الخال ويقاطعه:

- لا داعي.

يهز الآخر رأسه منتصرًا وهو ينظر لنا:

- أكل علقة ساخنة ومعتبرة.

يقفز أخي إلى عنق خالي:

- صحيح يا خالي؟

هذا الخال متطرف حتى النخاع في تشجيعه حتى إنه بعد فوز الزمالك أحيانًا يقف على سور شرفة منزل خالتي في الدور الثاني العالي وهو يجلس فوقها أو يسير على حافتها، هاتفًا للزمالك مناديًا على مشجعي الأهلي - ومعظم الجيران من مشجعي الأهلي - ويناديهم واحدًا واحدًا بينما يختفون جميعًا، يطلب منهم الخروج وعدم الخوف، وينادي في حسم بهتافات تشجيع للزمالك ويذكر اسم لاعبيه وكلًا بحسناته طيلة المباراة سواء أحرز هدفًا أو غازل لاعبًا من ((الخصم)) أو أتى بحركة فنية جديدة، يأخذ في رقصه ونحن نتابعه ونضحك ونُحمسه وأبي يطالبه - وهو في داخل الصالة لم يره - أن يهدأ ويكُف، وأحيانًا ما يشتري خالي - في لحظات اليُسر المادي - قطَع حلوى وشوكولاتة زهيدة الثمن وافرة الكثرة ويوزعها على جميع أطفال الشارع في مناسبة حصول الزمالك على بطولة ما من فك الأهلي، ويمسك بعشرات قطع الحلوى ويلقيها من الشرفة وسط الأطفال المتهافتين عليها ويصرخون عليه:

- زمالك.. زمالك.

ثم يدخل إلى المنزل هادئًا مرتاح البال مبتسم الوجه وقور الهيئة تمامًا ويرتدي ملابسه النظيفة المطوية بعناية أو يدعو أحدنا بربع جنيه - أن يكويها - إلى أن يدخل هو الحمام ويصلي أو يغسل رأسه أو يستحم (أيًّا من هذه الاختيارات)، ثم يرتدي الملابس المكوية ويخرج لاستكمال انتصاره على رفاقه وأصدقائه خارج منطقتنا وهم أيضًا لا يغفرون له على الإطلاق حال هزيمة الزمالك (وهو كثيراً ما ينهزم)، وأحيانًا ما كان يأتي أحد أصدقائه الحميميين ومنافسه الأكثر خصومة في تشجيع الأهلي راكبًا سيارة نصف نقل (نبذل جهدًا في استنتاج طريقة الحصول عليها)، ويدعو كل صبيان وأطفال المدينة من مشجعي الأهلي (وهناك طبعًا من غير مشجعيه لكن يشجعون فقط ركوب سيارة واقفين وصارخين وقائمين بعملية تبدو حربية)، ويقتربون في هتاف وصراخ وعويل حقيقي ورايات حمراء وهتافات حمراء جدًّا، ويقفون أمام منزل خالي مطالبينه بالخروج وما كان يخرج أبدًا وربما خرج مرة واحدة ضربهم جميعًا ثم دخل إلى المنزل.

ذهبوا الآن جميعًا.. راحوا هناك إلى حيث لا نستطيع أن نلتم كلنا كما كنا أمام الشاشة فوق النجيل الأخضر على شاشة تلفزيون منزلنا الكبير، صار لكل خال منزل وتلفزيون وأولاد وحياة، وسافر أبي وصار يتصل هاتفيًّا عقب لقاءات الزمالك أو أثناءها:

- كيف حالكم؟

- كيف حالك يا أبي.

وفي جملة تتصدر السطر الثاني من كلامه يسأل:

- ماذا فعل الزمالك؟

الصوت يأتي من بعيد والنبرة المترقبة المتوجسة (غربة الهزيمة أقسى ما يخذل المهزومين)، وكانت أمي دائمًا تدعو أن يفوز الزمالك حتى لا يحزن أبي فوق حزنه.

صار خالي بعيدًا عنا أكثر من مائة كيلومتر، يأتي أيام الإجازات الموسمية ولا يعبر علينا إلا لمامًا، وربما لم نعد نتحدث أبدًا في الزمالك، وأجرى صديق عائلتنا عملية جراحية، ثم عملية ثانية وما بينهما تحليلات وكشوف وخمود وحزن وفتور حماس، أما الصديق الأهلاوي لخالي فسافر إلى دولة عربية، ونراه على استحياء وبتحيات رسمية متعجلة وهو مرتدٍ غطاء رأسٍ أبيض وينادونه يا حاج.

وسافرتُ أنا أيضًا وابتعدت في القاهرة، وصارت مشاهدة لقاء الزمالك والأهلي مشقة أمامي كلما حل عليَّ في القاهرة، أبحث عن مقهى أو صديق يرضى النزوح خارج منزله ساعتها ومرافقتي، أو أن يضيفني في عنف هذه اللحظات العائلية لمشاهدة المباراة، فأمضي الوقت متحرجًا معزولاً عن كل طقوس، مغتربًا عن ((حلبة)) أمي وهتاف أبي وشجار العائلة وضحك الأخوال، وأحيانًا كنت أذهب إلى ((الاستاد)) أجلس في مقصورة الصحفيين وحين تمر كاميرا التلفزيون أمامنا أتساءل هل سيراني أبي وأخوالي والعائلة التي مضت، كلٌّ بتلفزيونه وحياته بعيدًا عن صالة منزلنا؟ أين هم الآن؟ ماذا يفعلون أمام الشاشة؟

وحين كانت حبيبتي تقرر أن تصبح حبيبتي فعلاً كانت مهمتها أن تحب الزمالك مثلي، تقترب من هذا الفريق كما أقترب، وتحزن لهزيمته، وتتابع نتائجه وتسأل إخوتها، أو تفتح التلفزيون لحظتها وتطمئن هل فاز الزمالك؟

وكنت معها يومها حين كانت المباراة قد اقترب موعدها وقررتُ أن أعود إلى منزلنا القاهري الضيق يبلعني وحيدًا أمام الشاشة ((أبيض وأسود)) أتابع المباراة، لكنها أبت وقالت لي تعالَ معي، وذهبنا إلى قاعة ملحقة بمكتب تعمل به، كان هناك رجل أنيق مهندم عليه مسحة الأجانب ووقار علمي محايد يجلس في نهاية القاعة ووجهه إلى الشاشة، وجلسنا أنا وهي على أريكة بجوار التلفزيون، وبذلت هي جهدًا في ضبط الصوت وإظهار الصورة ودقة الألوان، ومالت برأسها جانبًا على مسند الأريكة تمشي وراء عينيَّ المحدقتين في الشاشة، والتفت لها ورأيت عينيها الواسعتين ووجنتيها عليهما حمرة خفيفة، وعلى شفتيها تغزل ابتسامة وعنقها نحيل يغري بالتماس، وكنت أريد أن أعانقها، أن أضعها على صدري وألثم شعرها الأسود الناعم وأضم أصابعها في كفي، لكن لا أعرف ماذا حدث يومها فانفتح حوار ما أثناء المباراة بيني وبينها، وقالت أشياء غضبت لها، أفقدتني كل روحي المحلقة، هبطت بالروح إلى قواعد الأريكة الخشبية، تحت السجادة المفروشة، ومستها في الأرض، هاجمتها بقسوة مذهولاً بما تقول مفاجأً مما تحكي، وغضبنا وتركنا اللاعبين على المساحة الخضراء يضربون الكرة، يحاولون الإتيان بنصر ومنع هزيمة، وسِرنا في حديقة محيطة بمكتبها وهي تشعر بالاختناق يضيق على عنقَها،

**هذا الذي كنت منذ لحظات أتمنى معانقته، وشعرت بأنفاسها مكبوتة تريد الانفراج، وطلبت أن تنصرف وتذهب إلى بيتها، فارتبكت، أحسست أنها تضيع مني، كانت الأشجار تصدر حفيفًا خفيض الصوت والعمال يرشون مياهًا على الأرصفة الحاجزة بين الشجرة وخضرة منقوشة يعكف عامل على تهذيبها بمقص حديدي ضخم (أين شجرة الليمون في منزلنا؟!)، الفروع الزائدة والأوراق المهووشة تسقط على الأرض بعد كل قرقعة مقص وداست أقدامنا على الأرض وأنا أحاول أن أبث فيها فرحًا - وأعتذر عما أعتقد الآن أنه ما كان يجب عليَّ أن أعتذر عنه - حتى هدأت أو هكذا قالت واستكانت، وشربنا عصير ليمون لي و ((جريب فروت)) لها؛ حيث لم نجد عصير طماطم، وحين أوصلتها قلت لها بشيء من المرارة:**

**- ألم يكن ممكنًا مشاهدة المباراة كلها؟ أكان يجب أن نتشاجر أمام الأهلي والزمالك، وكان الزمالك قد انهزم؟**

**وحين كنت فوق السطح رأيت حديقة منزل جدتي تظهر الآن خاوية إلا من نخلتين (إحداهما فسل لا تبلح)، والأرض جرداء خالية من شجر زمان، وخضرة الماضي حين كان الزمالك ينهزم، وأنا لازلت طفلًا فأجري إلى هذه الحديقة وأنزوي فيها باكيًا الهزيمة، تأملت الحديقة التي أحاطها مالكها الجديد (اشتراها منذ أسابيع من جدتي) بسور سد كل منفذ لها على منزل جدتي، وبذر فيها بذورًا جديدة وقسم أرضها بزروع أخرى لكنه ترك النخل، لكن النخل لم يعد نخلنا.**

## ٤

# رمضان

# مراعاة فروق التوقيت

أقف في الشرفة الواسعة الخالية إلا من علبة كرتون كبيرة تحمل كتبًا ومجلات قديمة عبثت فيها رغبات الهواء والغريزة الجنسية عند التراب، استندت على حافة الشرفة في منزلنا، نطل على الشارع، لأول وهلة، لأول نية، الأسفل مفروش على سطح الرؤية حين كان الشارع ترابيًّا كان عميقًا وسور الشرفة بعيدًا لا تطوله أصابع أولاد عائلتنا حين يرفعون كعوبهم ويتشبثون بأظافرهم ونحن نتابع لهثهم دون عتاب ودون عون، إلى أن يبدو منهم التعب أو الجنون فنتدخل نرفع أذرعهم ونحضن صدورهم ونأخذ بخصورهم فإذا هم فوق الحافة ضاحكين متوهمين أنهم نجحوا.

الآن بعد أسفلت عارم أنقذنا من التراب وسلمنا للضجيج المستمر مع مرور السيارات النقل والأجرة ذات أحد عشر راكبًا رسميًّا والعشرين فعليًّا، غطى الأسفلت عمق الشارع حتى صارت عتبات

بعض البيوت العالية كأنها مداخل لأقبية تحت الأرض، وأمكن للأطفال الجدد في العصر الأسفلتي أن يصعدوا فوق السور للشرفة بعد أن كبر أطفال العصر الترابي.

ولكن الشارع خال تمر دراجة متعجلة تصفر صخبًا ثم تصمت، يخرج أطفال خالتي إلىٰ شرفة الدور الثاني في المنزل المقابل (منزلنا القديم) بسمرتهم الجميلة وأصواتهم ذات الجلبة الأكثر جمالًا، ثلاثتهم يحتلون الشرفة بأجسادهم النحيلة للغاية، أكبرهم يقف على الأرض يظهر صدره وراء السور، أوسطهم يقف مستندًا برجله على مقعد تقف فوقه أختهم الصغيرة ويصيحون بأذان الصلاة، يخرج تكبيرهم حادًّا نحيفًا صاخبًا مع ((الله أكبر)) ثم يضجون بالضحك المقرقع الذي ينتقل صداه للشارع الخالي بمرحه وطفولته وشقاوته.

كانوا يستعجلون أذان المغرب للإفطار.

وكنت أقف في نفس الشرفة أصافحهم بعيني وألوح لهم بيدي، ويتابعون هم اهتمامي بأذانهم المتعجل، وصوت الشيخ محمد رفعت يأتي لنا من صالة منزلنا ونوافذ جيراننا يؤذن لصلاة المغرب حسب التوقيت المحلي لمدينة القاهرة، أما المقيمون خارجها - نحن - فمكتوب علينا الانتظار، وها هي أضواء خجلى تنبعث من مصابيح الأعمدة العامة في توزيع غير منتظم وغير عادل، فالأعمدة بلا مسافات محددة ولا مساحات معينة ونصفها لا يضيء أبدًا ونصفها الآخر يضيء بلا طائل، شجر قديم كان هنا في المسافة التالية للمنحنى، لكن أصحابه قطعوه وصارت المساحة معدة للبناء فبنوا أو باعوا، ما أعلمه أن الشجر راح، ظله على الأرض وحفيفه على السمع وخضاره

في أفق يبدأ بمزارع تتقلص كل يوم في آخر شارعنا المؤدي إلى محطة السكة الحديد حتى شجر الكنيسة الكاثوليكية في ناصية الشارع البعيدة، راح بعد تطورات المباني والتوسعات المعمارية التي ابتلعت أشجار الكافور السامقة.

يتردد مؤذنو المساجد في تحمل مسؤولية إفطارنا فيتأخرون دومًا عن الدقيقة الفاصلة بيننا وبين القاهرة؛ لذا.. ما إن يبدأ واحد منهم حتى يعقبه الجميع وتختلط الأصوات حلوها وغليظها ومنغمها وصارمها، لكنني أنسحب من الشرفة إلى الغرفة وفي طريقي للصالة أصيح على الأسرة:

- أذَّن.

كم مرة قطعت هذه المسافة بين الشرفة ومائدة الطعام الممدودة أمامنا بمقاعدها السبعة (قبل سفر أبي)، مقاعد حمراء مبطنة ذات مساند خشبية طويلة منقوشة بزهرة غريبة. كم مرة؟!

هذه الأمتار الصغيرة التي أعبرها فيعبرني الزمن ويغسل وجوهنا من آثار المرور استسلامًا ورضًا (وليس استسلامًا راضيًا)، وكنت أعرف منذ ظهور وجه المفتي على الشاشة ليعلن فتواه في رؤيا رمضان، كنت أعرف أنه ((الهم)) اللزج الذي ينساب تحت ردائي كلما جاء رمضان، وهو نفسه الذي يأتي كلما رحل رمضان.

وأنني سأحمله في صدري وعلى ظهري وأعبر المسافة إلى الصالة.

موقف أحمد حلمي شرس في هذه الليلة حيث تزدحم مناكب

البشر وتتوزع حقائب المسافرين وتتكتل جماعات المنتظرين وتتكاثر على الجانبين حيث يخلو الموقف من سيارات بينما يظل الكشك الخشبي الأزرق صامدًا أمام الإحساس، فيه شخصان أمامهما بونات السفر للسيارات التي تأتي إحداها فيجري العشرات خلفها، لكن السائق أحكم الغلق وأقفل الأبواب وسد المنافذ إليه، وهو يشير بكفه أن لا. لا لماذا؟ لكل أسماء المدن التي تخرج من أفواه المتلهفين على مقعد للوجود الجميل في ليلة السحور الأول عند الأهل في حضن البيوت الكبيرة والعائلات الدافئة، وتبدو مظاهر رمضان المحتفية في سرادقات أمام الموقف ومقاعد كثيرة أمام مقهى وباعة جائلون للبلح الرديء ومحلات الفواكه كلها تعلن عن بضاعتها بفوانيس وزينة رمضانية ورقية ومزركشة ولوحات بدائية، أهلًا رمضان، والأغاني نفسها وحيدة في الإذاعة تنفرد بالليالي كلها، رمضان جانا.. أهلًا رمضان، فيها طعم المناسبات، وأغان محملة بالذكريات وتقليدية المشاعر المسافرة، وأصوات تنزل علىً دماغنا بأغانيها وأناشيدها (تصد قلبي عن التفاعل معها)، تُذكرني بصفحات مخصصة لرمضان والدين في الصحف المصرية بكل ما تحمله من مُعاد مكرر وسخف يومي في الصور والزركشات والبدائية الخالية من وهج الصدق، أخشى هذه الليلة في موقف أحمد حلمي؛ لذا فإنني أخلص نفسي من مهامي وأتعجل أشيائي وأسافر قبل ليلة الرؤية حيث جلوسي مع أهلي وإخوتي أمام المفتي ننتظر ونترقب، ويتوقع البعض أن رمضان غدًا ويتبنى آخرون أنه بعد غد، ولا دليل واحدًا لدينا ولا مبرر لانفعالنا في رغبة تحقق التوقع، فإذا ما قال المفتي إن غدًا المتمم لشهر شعبان، أو إنه أول رمضان قفز الفريق المنتصر من فوق الأرائك وصفق، وسمعنا

أصوات تصفيق من الشارع أو ربما من جمهور الحاضرين أمام المفتي، أما الفريق المهزوم فيصمت، وغالبًا ما أكون منضماًّ إليه، دائمًا أريد لرمضان أن يتمهل في حضوره ليوم واحد، وتنتشي في البيت غرة رمضان، النوم يتأخر مع غضب موسمي على سهرة التلفزيون في هذه الليلة، وأمي تلح على أخي الصغير أن يدخل للنوم حتى يتمكن من الاستيقاظ للسحور ويعرف ((يأكل)) لأجل الصوم.

وأبي يبدأ صلاة التراويح وقراءة القرآن على الأريكة، متابعًا بعينه أحداثنا (الصالة - التلفزيون- الردهة - الشرفة)، وأقوم في أهبة - مضى شهر على هذا النحو - إلى الماء لأتوضأ وكلي قلق على قضاء رمضان، التوفيق بين التواجد الدائم للإفطار مع عائلتي حيث طبخ ساخن وحنان دافئ و ((لمة)) ذات بركة ومودة وروح، بينما هذه الإقامة في القاهرة وعملي البغيض ينغص ويشتت ذهني، وأبحث عن تقسيم الأسبوع وتوزيع الليالي والسفر لستين كيلومتراً والسهر في رمضان، وتتقلب الأفكار في رأسي مثل قطع بطاطس تقليها أمي في صينية ذات زيت متأجج على نار الشعلة الكبيرة أتحرق وأتوضأ، وأبدأ ب ((البقرة))، بينما يظلل البيت الهدوء، وتنعس العيون ويمشطني الليل من مقاومتي فأنفرد وحيدًا على السرير في غرفتي، هذا أفدح ما في رمضان المقيم، تفرغ لنفسي وتفكر في أمري وسرد لتاريخي ومناقشة لعمري ومحاكمة لأحاسيسي ومقاضاة لمشاعري، أسأل نفسي وأعاقبها عن عمر فيمَ أفنيته، وعن حب فيمَ قضيته، وعن وجل متى أحسه، وعن امرأة لمِ أعشقها،وعن سفر كيف كان، وعن قاهرة كيف قهرت، الشارع له ((ونسه)) وألفته في ليل رمضان، حركة مطمئنة

وأصوات حوارات، وتمضية وقت، وصوت المسحراتي الخشن بطبلة

ذات ضجة وخطوات منتظمة (ولا غناء على الإطلاق) ينادي على سكان الشارع ويدخل صوته غرفنا وآذاننا بالاسم، يدعوهم لليقظة كلهم، فيما عدا منزلنا فهو ينادي على منزل أخوالي بأسمائهم تفصيلاً فهم أكثر شهرة لديه، وكان أبي قبل خمسة رمضانات سبقت يبتسم حين يذكر اسمه أو حين نذكر أنه فعل، حيث إن أبي لا يسهر ولكنني إذ أسهر الآن لا أسمعه أيضًا ينادينا، اللحظات الوحيدة التي يغني فيها المسحراتي تكون في الليالي الأخيرة من رمضان حين ينشرخ صوته ويتهدج أداؤه:

- لا أوحشنا الله منك يا شهر الصيام.

وأشعر كآبة رحيل رمضان تحط على صدري، أأتلف مع الأشياء والأماكن والشخوص وأحبهم، وحين يرحلون أو أرحل عنهم أموت ألمًا وأعتصر جراحًا، لكن لا الأشياء والأماكن ولا الشخوص تعير ألمي أو تعزي فَي حزني.

وحين تغفل عيناي أخيراً، أجده (أبي) يوقظني إلى السحور، ينادينا همسًا ويحرك كفه فوق الغطاء على قدمي، فأصحو منتبهًا، أزحف حتى حافة السرير وأهبط إلى الأرض، تعود الصالة إلى الأضواء الزاهرة و ((الطبلية)) على السجادة وضعتها أمي، ثم تدخل إلى المطبخ، بينما يدخل أبي إلى غرفة أخواتي، فيناديهن في عتمة الغرفة التي بددها ضوء الصالة فيتناقلن ويمضغن النداء ويواصلن النوم، ثم يعود أبي إلى الصالة وهو يردد أسماءهن مُعليًا نبرة صوته متجهًا نحو المذياع يحرك مؤشره إلى القرآن الكريم بتلاوة الفجر من

الإذاعة العامة، التي تنقل شعائر الفجر من مسجد سيدنا الحسين، فيقول أبي: ((رباه سنسمع صوت الشيخ الجميل ثانية، اللهم أدمها علينا نعمة وتوفنا مسلمين)) .

تعود أمي حاملة طبق الفول الرئيسي حين أخرج من الحمام فتهتف بي أن أوقظ أخواتي مرة أخرى، وترفع من نبرة صوتها إلى مقدمات الغضب وهي تطرد آثار النوم الذي تبدد منذ سمعت جرس الباب يضغط عليه خالي يوقظنا للسحور، فتذهب كل مداعبات النوم من عينيها وتصحو إلى المطبخ حيث تُخرج الفول من ((الدماسة)) المشتعلة طول الليل ثم تتحرك نحو ((الخيار)) فتغسله وتقطعه، وتُخرج ((القشطة)) من الثلاجة، وترفع غطاء العيش الطري المخبوز في منزلنا، وتبلل العيش الناشف حتى يرق ويجف، ثم تقشر البيض المسلوق وتضعه في السمن بطبق واسع ومعه ملعقة من يريد منا أن يهرس نصيبه، وحين تنقل كل الأطباق إلى ((الطبلية)) تكون أخواتي قد استيقظن: واحدة منهن تعيد إحكام غطاء الرأس، وثانية تبدأ في قضم لقمة، وثالثة نصف نائمة (في كل مرة نذكرها ماذا فعلت على السحور أمس)، أما أخي الصغير فيكون السهر قد أضعف شهيته وخفض قابليته للطعام، وربما يستعيد كل هذا وربما لا (لكن في الغالب يستعيد)، وتنهض أمي لإحضار الشاي وتصبه لنا في أنصاف أكواب لأننا لا نكمله أبدًا، فيما عدا أبي الذي يواصل يقظته حتى أذان الفجر، يحاور أمي ويحتسيان الشاي، وقبل الأذان يأتي أبي لنا فيسقينا شربة ماء بعد أن نفيق لوهلة، ثم يعود إلى أمي (تسلمت هذه المهمة برمتها بعد سفره)، ثم يتعجلنا لأذان الفجر، ونصحو مرة أخرى وأكون

قد فشلت في استعادة النوم وننتظر نهاية الأذان ثم يبدأ كل منا صلاة النفل - خير من الدنيا وما فيها - ثم ننتهي جميعًا وننتظر أبي، أنا بجوار أبي، وأمي وأخواتي خلفنا (وأخي نائم لا يصلي الصبح بتدليل قديم من أبي)، يستغرق أبي في صلاته ونحن نتململ باحثين عن دفء السرير، وطي الصلاة، يسلم أبي فأقف وأؤذن لإقامة الصلاة، ويدعو أبي دعاء الأذان ثم يكبر ونضع أكفنا فوق سرتنا، بينما تجذب أمي أختًا لي كي يستوي الصف، في الليالي القديمة كان أخوالي يأتون لنا للصلاة خلف أبي، وكنا أحيانًا لا نستطيع أن نكتم ضحكاتنا من وقار أحدهم المصطنع، فيضج الخال الآخر بهمهمة نعلم منها أنه يكتم ضحكة فيزغزغ فينا حواس الضحك، ونقاوم مستميتين خائفين من أبي (في الحقيقة)، ولكن عندما لا يستطيع الخال مقاومة كف الآخر التي تجذب بنطاله كي يسكت، ينطلق في الضحك فنضحك كلنا ونسلم خارجين من الصلاة،وأحيانًا يلقي أحدنا بنفسه فوق الأريكة خشية السقوط من الضحك، ونقعد نشير إلى خالي الواقف للصلاة ونحن نغلق أفواهنا بإصبعنا حتى لا يضحك هو الآخر، بينما أبي يواصل الصلاة بصوت رزين مستقيم خاشع وغاضب، أمي تلحق به بعد تماسك سريع، ونبدأ جميعًا في العودة إليه بعد هدأة الضحك واكتشاف حرج الموقف فنعود واحدًا وراء الآخر وعندها يحس أحد الأخوال أنه سيرتد إلى الضحك فيتصنع الجد و ((يكح)) ويضع كفه على فمه ماسحًا بلل الوضوء، ويكون أبي قد ركع أو سجد ونحن خلفه، وحين ينتهي من الصلاة نسلم وراءه منتظرين غضبه، لكنه ينظر إلينا في عتب ويقول متوجهًا بكلامه للكبار (الذين لم نكن نحن وقتها):

- أهذا يصح؟

فيعتذرون ويلقون بتبعة هذا الضحك، كلٌّ على الآخَر، ثم يضحكون ثانية ونحن معهم، أما أبي فوحيدًا يبتسم.

منذ سفر أبي وأنا أؤم أخواتي وأمي في صلاة الفجر بذات طقوسها، وعند سفري وإقامتي أيامًا في القاهرة، تؤم أمي الصلاة، وأحيانًا تبقى وحدها، بعد سفر أختي الأخرى وكسل الثانية ونوم الأخيرة - تبقى وحدها تصلي الفجر وتبتهل على نفس ((البطانية)) التي نفرشها دائمًا بدلاً من سجادات الصلاة الصغيرة، وأمي دائمًا بعد الصلاة وحين ندخل جميعًا إلى النوم (أعتذر له وأحاول استرضاءه كي يرحم قلقي ويأتي) تجلس في الصالة حيث الأضواء قد أخفقت، والصمت قد حل، والمذياع قد أغلقناه، وتدعو الله بصوت عال بعد صلاة شكر يومية وتنادي الله أن يوفقنا وتَذكرنا واحدًا واحدًا وتَدعو لنا؛ كلٍّ على انفراد بدعوات حارة، وتبتل خاشع، وصوت مرتجف عال وتوسل مخلص، وكنت دائمًا أسمعها - آخر من ينام أنا - وقد دمعتَ حين ذكري وألحَّت عند الدعاء لي، وكنت دائمًا أسأل الله أن يتقبل بينما أكون قد غُصت في همومي الخاصة التي تخرج بأسنانها وتكشط كل شيء - أمامها - حين الانفراد بنفسي قبل نوم أو وسط فراغ أو عند تحليق في كتاب، فتنبسط أحزاني وأسئلتي ولومي لنفسي وكرهي لروحي وضعفي أمام الناس، فكلما حضرت إلى سريري واستدفأت بغرفتي وتوضأت بماء منزلنا وسمعت حرارة أمي، استوحشني البعد واستحضرت الوجوه التي أحبها هناك في القاهرة، فإذا هي حسب التوقيت الرسمي لمدينتهم، كأني أحبهم ولا يحبونني،

كأني أذوب في هواهم ولا يريدونني رغم أنهم - جميعًا - حولي وبرغم أصحابي وأصدقائي ونجاحي والخطابات القادمة من البلاد البعيدة، تخبرني عن الأحوال وتسألني أحوالي وتستغرب حزني وتندهش لطوله وعرضه وامتداده، وتستفسر عن كل مقومات سعادتي التي أمتلكها ولا أعمل بها أو لها، أجلس على المائدة بجانب أمي، أدعية الإذاعة الدينية، الطعام المفروش بالمائدة، أطباق الأرز - بوصاية خاصة لي - أسئلة عن زيادة السكر في العصير، كمية الملح في الشوربة، شجار بسيط حول ما يريده بعضنا من أجزاء الدجاج أو البط، وحين يكون أبي غائبًا يظهر في رنين الهاتف قويًّا سريعًا قبيل الإفطار فنسمعه قادمًا من البلاد البعيدة يهنئ برمضان ويسأل عن الصحة والأحوال، وفي كل مرة نسأله:

- متى تفطر يا أبي؟ ياه بعدنا بساعة؟ أخبار الجو هناك؟ من يعمل لكم الإفطار؟ تفطر مع مَن يا أبي؟

شرب الماء، قعود المائدة، تذكُّر الأب، تساؤل حول إفطاري غدًا،أفي القاهرة أم هنا؟ تعليق على مسلسل إذاعي، تسرُّع أخت إلى الوضوء قبل رفع أطباق الطعام، تشاجر آخر بسيط حول هروبها من حمله، جوابها من بعيد أنها جلبته وعليهم رفعه، رقرقة الماء من الحمامين، اصطكاك الأطباق على المائدة وفي المطبخ، وشيش نسمعه عند اقترابنا من المطبخ للشاي يحاول الغليان، السجاجيد تفرش لصلاة المغرب، في غرفة أخرى، غطاءات الرأس على الأرائك، أعكف على طبق الكنافة، تقليب في محطات المذياع، اختلاط صوت الإذاعة بصورة التلفزيون يُفتح الآن، أكواب الشاي في بخارها الأخير

على الأرض، تمتد الأيادي لها تضمها هنا على مائدة صغيرة أو في زاوية ما، ضحكات تنطلق من الأفواه صادقة حول برنامج مرح في التلفزيون، أذان العشاء، كان أبي يقف مرتديًا جلبابه الأنيق ويتأمل التلفزيون في عرضه لفقرة ما حتى يأتي الأذان بشارته المعلومة فيلقي التحية ويمضي للصلاة، بينما ألحق به بعد دقائق أكون قد خرجت من الحمام، عليَّ ماء الوضوء وأعبث تحت السرير باحثًا عن الحذاء.

المسجد كبير متسع رحب متلألئ الأضواء، مشرق الجوانب، أخضر الفُرش، مزدحم عن آخره، في تكالب الناس وتدافع المصلين يلحقون بالإمام قبل الركوع، كان المسجد ممتلئًا إلى نهايته، يبدأ هكذا في اليوم الأول من رمضان ثم يتقلص الزحام وتنسحب الصفوف حتى يفرغ المسجد إلا من صفوف قليلة تخط حظ الناس من الحماس والصبر.

وتؤشر لرحيل رمضان،وكان أبي دائمًا في الصفوف الأولى، وكنت دائمًا أخرج بعد صلاة التراويح قبيل الوتر، في حين يستكمل هو الصلوات كلها ويصحب أصدقاءه ورفاقه مشيًا في حوارات العمل ودعابات الكبار وفتيا السياسة وآفة الخلاف العربي، بينما أعود إلى البيت وحيدًا إلى تلفزيون، كتاب، كتابة، هاتف إلى القاهرة، إجابات باردة تلقاني، تخذل ترقبي للصوت الآخر، تهزم دقات قلبي وتلم خسارات الدنيا إلى كتفي اليسرى، تسير جنبًا إلى جنب.

تطلب أمي ألا أرحل غدًا فنحن مدعوون عند خالتي، الدعوات سمة رمضان في العائلة حين كان والدي موجودًا في رمضان، فالكل يدعو الكل، وهرج الأطفال وتزاحم الأنفاس والضحكات ونوادر

الأعوام الماضية، وإلحاحنا على خالي الكبير بأن يدعونا فيقول بلهجته الحاسمة الضاحكة:

- طبعًا بإذن الله أنتم مدعوون عندي يوم ٣١ رمضان وعليكم خير!

نضحك ونتهمه بالبخل، فيجيب:

- بخل؟ يا خبر أبيض، ربنا موسعها علينا والفلوس كتير، أنا لا أعرف ماذا أفعل بها يا شيخ.

ثم يضيف مستدركًا:

- معك ثلاثة جنيه سلف؟

ويمد كفه حتى صدرك ثم ينغزه فيك مبتسمًا:

- أنا بخيل، طيب أمك اسمها إيه؟!

أطباق مكرونة متخمة، أرز مبعثر تحت الأطباق، امتداد الملاعق وتفاوض حول من يقوم بتوزيع قِطَع الدجاج، والطلب من أمي أن تقوم بالمهمة، فتمتنع، وتدعو ابن عمتي صاحب الخبرة المدهشة في الطعام، فيقدمها عليه، أنه لا يصح وهي موجودة، فتتفرغ للمهمة في حرص وسؤال دائمين عن فلان هل أخذ؟ فلانة هل نسيتك؟ وتركز على الأطفال الصغار، مَن فوق حجر أمه، أو بجوار أبيه، أو مَن يتسلق كتف جدته، أو مَن يتصنع الوقار ويتابع توزيع الأنصبة خفية، أو مَن يتشاجران معًا على مكان فارغ بجوار أمهما، أو مَن يرعاه أبوه بشكل خاص وتدليل مفرط، ثم تمسك بالصينية الفارغة في يدها وقد ظهرت

قطرات مرق على يدها:

- هل أخذ الجميع؟

فتهتف جدتي:

- وأنتِ يا ابنتي أين نصيبك؟

فترفع أمي في سرعة لتهدئة قلق الجدة قطعة صغيرة:

- أهو يا أمي.

فتغضب جدتي بعينها لأن أمي قصَّرت في حق نفسها:

- طيب هل هذا يصح؟

وتمد يدها إلى قطعة أخرى تعطيها لأمي فترفض، ويتحاوران بينما أرفع الملعقة إلى فمي محلقًا في فراغ نهاية الصالة التي نجلس فيها حيث باب يؤدي إلى الجنينة، وحيث صورة قديمة جدًّا تملأ تاريخ العائلة، تضم أفراد العائلة من كل شرق وغرب منذ عشرين عامًا أو يزيد، جلوسًا وقيامًا ووجوهًا صغيرة، فتية وشيوخًا وشبابًا، وابتسامات ووقارًا وتسلقات رؤوس من بين اَلأذرع، وصعودًا فوق مقاعد للظهور في الصورة، تلك التي تمزقت أطراف نسخة منها، وبقيت أخرى لدينا، وإذ بي جالسًا على ركبة جدتي، ومن الناحية الأخرى أختي الكبرى، كنت أرتدي بذلة ظهرت بها نفسها في صورة مستندًا على كتف أمي فوق أريكة، تلك الصورة التي أراها أمامي وحولي في ضلعي الأخير الأعوج حين أمشي في مغربية القاهرة قبيل الأذان، ومعي صديق أو رفيق، ونبحث عن مكان نفطر فيه، نتداول،

وإحساس كئيب يتملكني، يخيط جروحي بمسمار يسحب أنفاسي إلى الدخان، القاهرة في هدوء لا يعاني منه إلا الغرباء، أشم رائحة الطعام المطبوخ على سلالم بيت، أو في ردهة إلى مكتب، أو من نافذة واطئة، أتوقف شاعرًا برودة ورعدة ويأخذني الحنين إلى بيتي، وإلى دار برائحة الطعام وتوزيع الأطباق على المائدة، وأخي يطيح في الفراغ بالضجيج، وأمي تنادي على أختي، وهاتف يرن، وتلاوة قرآن المذياع، والشارع الفارغ، ولحظة الوقوف في انتظار فروق التوقيت، والأطفال يُكبرون لتعجل الأذان في الشرفة.. ولجلسة ما بعد الإفطار أمام التلفزيون...

أدخل إلى محل عميق الاتساع مزدحم بالوجوه الغريبة والأجنبية والمصرية فاطرة رمضان، هؤلاء الذين بات التعامل معهم عاديًّا والنظر إليهم طبيعيًّا، منذ غروبي عن المدينة الصغيرة لم يعد فاطر رمضان خاسر دينه، ربما لازال هناك دين ولكن لا يوجد إلا الخسارة فقط.

يخسرني الفرح..

يخسرني منذ أمد، منذ تعلقتْ فرحتي بالآخرين، حين انسلت روحي من جروحي وتركت ضمادتها لدى وجوه لم تعد كما كانت، لم تعد أصلًا، وحين أعود إلى المدينة يخسرني الفرح.

حين أستكين للهزيمة وللوحدة، وتذكرني وجوه الأهل الدافئة بوجوه أخرى باردة ثلجًا، رائحة البيت تجذبني إلى تذكر رائحة تركتها في القاهرة؛ رائحة احتراق لحم على نار، وحين أقف عند حديقة منزلنا الصغيرة، أقفز السلالم المؤدية إليها فتفزع العصافير المحتشدة على الشجر فتقفز هاربة، تاركة زهر الليمون على الأرض، وأوراق الجوافة

الجافة البنية، حبات الجوافة الرطبة، ووردة حمراء مهتزة على عودها، وحبة برتقال صغيرة مغطاة بالورق الأخضر، وأحس لحظة المغيب القادمة، وتدفئني في الشعور بالرحيل، أكره الرحيل حتى ولو كانت الشمس في مغرب رمضان، أكاد أبكي هذا البكاء المر الذي ارتوت به جفوني في ليلة القدر، حين قال الإمام إنها ليلة تُفتح فيها أبواب السماء، فحاولت الدخول إليها، البيت كله وشوشة تلاوة وأصوات تكبيرات متداخلة والأفراد كلهم يصلون في الغرف، حتى غرفة الاستقبال، وأبي في الصالة والتلفزيون مغلق تمامًا، وأمي في غرفة النوم وأخواتي متوزعات، وأنا فوق سجادة صلاة خصَّتها أمي لي حين أخرجت سجادة صلاة جديدة لمَّا تعذر الاكتفاء بما هو قديم، وكان الدعاء الذي حفظناه جميعًا: ((اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعفُ عني))، كانت السيدة عائشة رضي الله عنها قد سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم يردده في ليلة القدر التي نلتمسها في العشر الأواخر من رمضان، والتي رآها حسب حكايات العائلة القديمة خال أمي عندما خرج إلى السطح في البلدة فانكشف عنه بصره فكان حديدًا، وطلب من الله فتحقق.. هل أنجب بعد توقف؟ هل اغتنى بعد فقر؟ لا أذكر لكنه رأى ليلة القدر، ومن ثَمَّ فنحن يمكن أن نرى ليلة القدر، هكذا كنت أقول لأبي وهو يحاول إقناعي أن مسألة الرؤية متعذرة، وأن القضية انكشافٌ روحي ومغفرة إلهية، ولكنني دعوت وبكيت وانسابت دموعي أنهارًا ساخنة، وختمت تلاوة القرآن كله ليلتها ولم أرَ ليلة القدر!

ولم أجرب المحاولة مرة أخرى.

## ٥

# المطر

# القطار الخاطئ يصل المحطة

السيارة تفر من السكون إلى سرعة وئيدة وهنة في ليل مطير حالك لا يكسر ظلمته سوى أضواء السيارات الوجلة، تمر على أرض أسفلتية زلقة في الطريق الزراعي السريع، الضباب يغلف زجاج النوافذ، والمسَّاحتان تحاولان في جهد آلي متواضع إزاحة حبات المطر المتراكمة المتعانقة في غلظة حاجبة فوق زجاج السيارة الأمامي، تسقط صفوف من المياه المتكتلة على أسفل الزجاج ويبقى مستطيل نظيف من ورائه يبدو الطريق والشجر المعلق في السماء على الجانبين أهرامًا من العتمة وحفيفًا يضيع متلاشيًا في أصوات عجن العجلات للبرك المائية المفروشة بفعل المطر، وهواء ضار ينفذ من سنتيمتر وحيد تركه السائق مفتوحًا في النافذة المجاورة له، يلَّسع أنوفنا ويرجف شفاه المسافرين المتقلصين في ملابسهم وخوفهم.

يعبر السائق سيارة ما من اليمين، ثم يسير متمهلًا ثم يلمح خلاء

من السيارات والمطر فيدفع السرعة للصعود فيكتشف سيارة على اليمين فيشق طريقه إلى يسارها بجانب الجزيرة الرملية والحجرية المفروشة بشجر ناحل يتوسط الطريق، لكن سرعته تخفت وبطء يسيطر على السيارات كلها حتى التوقف، فيهتز السؤال في أجسادنا مع تمتمة وارتباك مؤقت، ثم تبين مسافة للعبور يجتازها السائق لكننا نلحظ جميعًا سيارتين مصطدمتين في الجزيرة وأبوابًا مفتوحة وأسقفًا محطمة وجثثًا ملقاة ودماء تسيل وأنات حادة تخرط آذاننا لشابين نائمين على أرض المطر الأسفلت ينطقان الآهة محروقة موحلة بالمطر والطين.

سائق السيارة المصطدمة منحشر بين مقعده وعجلة القيادة، صدره منطبق وعنقه ملتو ورأسه مدلىًّ على كتفه وناس متحلقون حوله ينزعون باب السيارةً المنطبق، ويلقون به إلى الأرض ويدخلون بأيديهم وأذرعهم يرفعون عجلة القيادة عن صدر السائق، ومطر متسرب من الواجهة المنكسرة إلى عجلة القيادة إلى رأس السائق المصاب - يبلل الدم والماء أيدي المنقذين - وتخفت أضواء قادمة من سيارات على الجانبين.

هو المطر...

تناديني أختي وهي واقفة على عتبة الشقة تنظر إلى السلالم المؤدية إلى طابق تحتي، بينما السلم مكشوف للسماء، له سور صغير رفيع ويطل من الناحية الأخرى على الممر الضيق المؤدي إلى بوابة البيت (بيتنا القديم الذي كنا نسكن إحدى شققه)، أسمع صوت أختي بالفرح المدهوش، وهي تلمح قدومي وتعود برأسها من فتحة الباب

إلى الداخل تنتظر تحمُّسي.

ينفتح الباب على ضلفتيه فتنهمر أجنحة الهواء مرفرفة على أجسادنا تحتل موقعنا وصالة البيت من ورائنا.

- انظر، هذا مطر غريب علينا لأول مرة فيه ثلج، والله ثلج، انظر جيدًا.. هنا.

لا تتضح أمامي الأشياء والبرد يفك أعضائي ويسلمها للمرض فتهبط الأخت السلالم حتى سلمة رئيسية مستطيلة، وتمسك بأصابعها الصغيرة حبات دقيقة من ثلج هش وتصعد وقد بللتها الأمطار وأغرقت كتفيها وغطاء رأسها وجوربًا ترتديه في قدميها.

- انظر.. هذا هو الثلج.

هو المطر.

هبطت من السيارة معي حمولة أحزاني كلها وفوق رأسي المطر والبرد والعتمة، آثرت ألا أهبط إلى الطريق المختصر بين الحقول المفضي إلى شارعنا في دقائق حتى لا أعبر ظلمة مخيفة وطميًا مغرقًا في هذا الليل، مضيت نحو المزلقان عابرًا إشارته التي تطن برنين منتظم وضوء أحمر مدهون بالماء، وأسير متعجلاً فوق حديد القضبان وحجارته وإلى ميدان المحطة الصغير، مشبع بالمطر والطين، تخطه عجلات السيارات فتصنع من الطين المتراكم شوارع وأزقة مرتفعة ومنخفضة، مستقيمة وملتوية، تبني أشكالاً من معمار غريب يفصح عن خرافات للعيون المحدقة، يفضح رموزًا للعيون الوجلة، الصمت يركب المدينة والشوارع خاوية في هدوء قبوري، لا شيء سوى

وشيش المطر الذي يهدأ لحظات ثم يعاود هجومه الليلي على الأرصفة الصغيرة يغطيها ماء يبرق مع بصيص النور المنسكب من مصابيح معلقة على أبواب الحوانيت، ثم على الشوارع بطينها المصنوع من تراب ثقيل منهمل وبرك غويطة متسعة تمنع عبور القادمين إلى الأسِرة الدفيئة، أحتار أيَهم أسلك، أين أمضي؟ أبحث عن ممر يمكن تجَاوزه، يستطيع الحذاء أن يفوت فوقه دون الغوص حتى الرسغين في الماء العكر، قطعة حجر - مثلاً - موضوعة وسط بركة تسهل قفزها إلى أمن الطين بعد خطر الغرق، المطر يسري في أقمشة الملابس، أنسجة الثياب، جلد الحذاء والحقيبة، يعبئ كتفي ماء ويتسلل إلى صدري من فتحة غير محكمة، ويلف عنقي ويحمر له أنفي مقاومًا انفكاك المخاط، قطر الماء المنهمر ينزل من شعري الخشن اَلمبلول فوق نظارة عميت عدستها الزجاجية وجعلت المشاهد كلها ممزوجة ببروك الضباب على عينيَّ.

أكاد أنزلق بجسدي كله وتترنح الحقيبة في يدي فتلحقها رعشة الكف، ثبات المحاولة وتماسك البدن في اللحظات الأخيرة لكن الماء الملوث يغطي جانب البنطال والحذاء.

لمدينتي الصغيرة في أيام المطر رائحة الصمت، طعم الانكماش، حين تغفو الأبنية والبشر وتتقلص الحيوات كلها إلى حركة مكتومة خلف باب، وشروع مبكر للنوم تحت غطاء سرير وكمون مطلق للموجودات جميعًا.

أختصر طرقًا نحو شارعنا فتخذلني الحنكة؛ فالطريق مصيدة للتزحلق والطين في طزاجة الهطول الأول للمطر ينتظر الأقدام المتعبة،

وجبن مشروع - وسط المطر والظلام والصمت - أن يكون هذا الخط الطويل الملتوي من الطين ثعبانًا أسود في الظلام ينهب قدمي ويجرني إلى الموت في وحل الليالي، أو ربما تتفكك بحيرات الماء عن أيادٍ غليظة مكسوة بالطمي والماء المتصبب وعروق نافرة فتشدني إلىّ حفر عميقة وضحك ملجوم وأصوات مدفونة، ونباح كلاب يعزز الخوف بالارتباك، فجأة يخرج الرعب المنتظر من ناصية ماء.. كلب شريد يهتز بطنه المكسو بطين نام فوقه وأرجله مغروسة في وحل ينتقل به في ماء وبرك، والمطر يقطر فوق جسده ووجهه غير مكتمل الملامح في ارتعاشَ النظارة على الأنف كأن المثلث لا بد له أن يكتمل؛ المطر والظلام والكلاب، حين جريت إلى أمي كان كل شيء قد استقر في التاريخ، مررت من الفرن إلى بيتنا أحمل حقيبة بلاستيكية محملة بدورها بالخبز، وحين لامست قدمي شيئًا طريًّا لينًا عرفت أنها المأساة؛ كلب ضخم نائم عكَّرت نومته فنهض مفزوعًا ينبح في قسوة، وعدوت بكل ما في جسدي من خوف لكنه لحق بي، أمسكَتْ حوافره أخيراً ببنطالي وحين أدرك أنه ينتقم مني كنت قد عبرت أمتارًا في قفزة، وكان قد تمكن من البنطال فمزقه وأنا أبكي وجيران من الأبواب والنوافذ صرخوا عليه وجروا نحوه، لكنني صرت الآن وحيدًا أمامه، في المطر والليل، وكانت عيناه مثبتتين- هكذا شعرت - عند حقيبتي وكفي.

غاصت قدماي في برِك المياه ووحل الطين وتخبط الحجارة وغموض الأمكنة وعتمة مَسيطرة على مسافات متباينة، رأسي يأخذ زاوية حادة نحو الكلب، ولهثي يزداد والمطر يسكن لثوانٍ والبلل

يغرقني ويثقل حركتي، وخطوات الكلب منتظمة دقيقة تئن فوق الطين وتثير ماء في اصطدامها بالبرِك وتخط آثارها على الشارع الموحل، على يميني سور لبيت كبير ومدق ضيق ناحل خال من الماء أسير عليه فتنهرني انحناءاته ولكن الكلب يسير جانبي موازيًا لي فوق الماء المفروش على الأرض.

هل اقترب بيتنا؟

لا أحد في الشوارع؟

(كأن كل شيء انسحب للمواجهة الوحيدة بينكما).

على غفلة من إدراكي، هلعت، كانت حلقة من كلاب على ذات الوحل والطمي والماء والتشرد قد تجمعت مع الكلب الأول وساروا جميعًا جواري، خلفي، بموازاتي وأنا مرعوب حتى توقف الرئة، مدفوع بعار الهزيمة، مجلل بمرارة شرسة تعطل تفكيري عن أية محاولة للفكاك.

الأقدام ثقلت بالطين على الطين، ترنمت خطواتها بالمطر على الماء، وتكاثرت وتكتلت والتصقت أجسادها واختلطت سيقانها واهتزت ذيولها في وعيد رعديد، وفكرت لوهلة أن أقف لكنني لم أجرؤ، ظننت أن الموت جوار بيتنا أكثر رحمة من الموت بعيدًا عنه، وأن ملائكة مرسلين من الله سوف يأتون عند بدني، فيتدافعون، ملائكة الفرح مع ملائكة الحزن أيهم يحملني إلى نهايتي، حتى يفصل بينهما حل وسط فيعدون المسافة بيني وبين بيتي، فإن كانت أقرب من مسافتي إلى ناحية الشارع أذهب إلى موت فرح وهدأة جراح.

عبرت الناحية والتفت ثانية فلم يظهر كلب خلفي، فاشتعل في صدري الهدوء، ثم جريت بأقصى ما في قدميَّ من سرعة، يلوثني الطين والماء وأكاد أتعثر وأسقط وأستند على جدران بيوت متشققة بالمطر مبلولة مغسولة يهترئ طلاؤها وتتهاوى قشرته على الأرض مدغدغة تمامًا، مسحوقة في الماء والطين الذي يكسو أسفلت الشارع وحفره التي صنعتها التطورات الطبيعية لكل ما هو مرصوف في الوطن.

أحس في انفراد مدهش عرقًا يمتزج مع مطر على جبهتي ووجهي حين ضغطت على جرس البوابة فدق صوته، أعرفه رنينًا نبيلًا في الصالة، وحين تحركت قدمان خلف الباب تسأل مَن، أجبت في زهو، خرجت أمي ملفوفة في دثارات شتوية ثقيلة وأصابعها تمسك بالمفاتيح، تتجاوز الأحذية الملوثة بالطين الموضوعة أمام باب الشقة، تعبر السلالم الصغيرة المؤدية إلى البوابة الخضراء، تدوس على آثار المطر على مدخل بيتنا.

- حمدًا لله على السلامة.

وحين ظهر وجهها من خلف البوابة واضحًا نقيًّا محمر الخدين من دفء مصنوع في الداخل، ظهرت عند الناصية قافلة الكلاب تجري في سرعة سيارات لعبة الأتاري نحوي، ضغطت أمي على مقبض البوابة فأصدر صوته الأليف، ودفعت البوابة وأنا ألتمس من عين أمي إنقاذي من سعي الكلاب النابحة خلفي، انزلقت في حضنها وهي تعيد البوابة إلى الانغلاق وتسأل:

- يا ساتر ما كل هذه الكلاب.. هل كانت خلفك؟

كل هذه الكلاب - وغيرها - كانت خلفي، لكنني أستبيح الصمت على الهزيمة. أدخل بيتنا، هذا الشتائي العجيب، الذي يشارك البرد علينا في ربح لا نعرف من يتقاضاه، رائحة المطر تغلف كل جدران البيت، أختي تنام ملفوفة في أغطية أمام التلفزيون، وأخرى تجلس على وسادة مستطيلة أمام مدفأة من الغاز تقليدية الطراز وأنيقة المظهر تشع دائرة من دفء يصدر من رأس سلكية حمراء تشبه نصف قرص الشمس في المغيب، أخي يضطجع على سجادة فوق الأرض رغم تأنيب أمي المعتاد، وأبي فوق الأريكة المقابلة ناعس يرتدي ((روبًا)) مخططًا أخضر وحول عنقه كوفية بنية، وفوقه غطاء صوفي يكسوه كله وعند التقاء الصدر بالعنق يضع مذياعًا صغيراً بحجم الكف يصدر أصوات بقايا نشرة إخبارية أو تحليل ما ويواصل بغناء، وكلما حاول أحد أن يغلقه طالما أن أبي نائم وبما أنهم يتابعون شيئًا في التلفزيون، يستيقظ أبي مفاجأً ويرفض هذه الفعلة لأنه يتابع البرنامج الإذاعي، ثم يرفع صوته قلي ردًّا على ما حدث ثم يستجيب لإلحاح أمي أن يبتعد عن البرد وينام في غرفته.

عندما أدخل يحتضنني البيت ويحميني - وفي البيت رب يحمي - كلهم تدرعوا من البرد بالثياب الثقيلة، وحين أخرج من الحمام الساخن، أجدهم قد تفرقوا إلى النوم، ومن بقي يبدأ مرحلة البحث عن المطر، فأخي يقف خلف نافذة المنور يتسمع صوت دقاته على الأرض، فإذا تواصلت وانتظمت فهذا مطر خفيف، أما إذا اندفع واشتد ومسح الصمت تمامًا فيلتفت بصوت عالٍ وخطوة بقدميه ولهفة للإخبار بالجديد المنفرد:

- مطر شديد جدًّا، غدًا ستكون الشوارع ألعن من اليوم.

أما أختي الأخرى فتحاول التأكد فتذهب إلى الشرفة المطلة على الجنينة حيث تعرف من اتصال المطر بالشجر ومن اهتزاز الورق الأخضر من هدير الريح، كم المطر وكيفه، وتوقع غده.

ثم يُفتح باب غرفة نوم أبي المطلة على الحديقة وتخرج منها أمي:

- المطر غزير، الدنيا غرقت.

يرد أخي:

- حلو.. لن أذهب للمدرسة غدًا.

فيأتي صوت أبي قويًّا دافئًا مملوءًا بالنوم أيضًا:

- يا حلاوة! ما هذه الفوضى؟

لكن أمي تستسمحه:

- لا أحد يذهب للمدرسة في يوم مثل هذا، أنت ناظر وتعرف!

- أولاد أي أحد لا يذهبون، لكن أولادي يعرفون قيمة المدرسة.

تدفع أختي صدر أخي بكفها:

- هل يعجبك ذلك؟

يضرب قدميه في الأرض:

- لن أذهب، الفصل يكون فارغًا وزملائي كلهم يغيبون، بالذمة هل يعرف أحد التحرك في شوارع غرقانة وكلها طين؟!

حين يهبط المطر من سماء مدينتنا إلى أرضها، تتجمد أشياء كثيرة فيها إذا كان غزيرًا متواصلًا، ليلة واحدة من المطر كافية وكفيلة بسقوط البلد تحت طائلة العجز، وكنا لا نذهب إلى المدارس، فمعظم التلاميذ والطلبة يأتون من قرى صغيرة تبعد عدة كيلوات عن المدينة في سيارات لأحد عشر راكبًا، أو دراجات فقيرة، ورغم افتتاح مدارس كثيرة في القرى إلا أن الثانوية العامة لم تزل تحتفظ بوفود القرى لها، كما أن البعض كان يفضل مدارس المدينة.

ولما كان المطر ثقيلًا، كانت المدارس تخف تمامًا وتخفت جدًّا، فلا صفوف ولا طابور صباح، لأن لا أحد يقيم صفين، الأفنية ملأى بالماء، والأحذية الملوثة دمرت النظافة، والماء يفرض دوائر على أسقف الفصول ويبلل المقاعد والأدراج، ومدرسون كثيرون لا يأتون من القرى أيضًا أو يتكاسلون في المدينة، فنضجُّ في فوضى منظمة ومعروفة تُستثمر في العبث والانتظار والندم على عدم مشاهدة فيلم الصباح في التلفزيون أو مذاكرة درس ما، وكان والدي يعود من المدرسة فخورًا دائمًا بأن أقل نسبة غياب في مدارس المركز كله كانت في مدرسته لحرص المدرسين والطلبة على الحضور والانتظام رغم أي ظرف صعب، وأنها المدرسة الوحيدة التي أتمت يومها الدراسي دون اختصار أو ابتسار.

لكن أكثر ما يثير الضغينة ضد المطر هو انقطاع التيار الكهربائي في ليال يشتد فيها هطوله حين ينخطف النور من المصابيح ونصاب جميعًا بخيبة أمل الظلمة تبددها ابتسامة أبي أو ضحكة أخي، لكنها تظل ظلمة تمنع عن القراءة والكتابة ومصافحة الوجوه أو الاستسلام

للتلفزيون، تقوم أختي نحو المطبخ تبحث عن عود ثقاب، يأتي بهوت النور الخافت من هناك، تبحث عن لمبة جاز تجاوزناها بعد مرحلة وأحضرنا مصابيح برتينة وتعمل بالغاز، وكنا نبذل جهدًا في إحكام إشعالها، وحين ((تهب)) شعلتها في هذه القماشة البيضاء الملتصقة بها مثل الإصبع أو كمثرى الثريات تضيء المكان بنور مستمد من ليالي القرى القديمة وسرادقات الأحياء الشعبية تنادي على الأهل أن يشاركوا، وكان وشيشها جميلًا فوق المكتب ونحن عاكفون على تدارس أو مذاكرة ووهج ما من الدفء ترسله من خلف الزجاج المحيط بالرتينة، وخضار جسد الكلوب يبرق مع النور المشع منه، وفي ليلة كهذه سمعنا نفير سيارة تتمهل أمام منزل جدتي واحتكاك عجلات بأرض ومطر على سطح سيارة واقفة، وخرجنا لنرى خالي واقفًا مع السائق يعطيه أجرته، فاندفعت نحوه بصغر جسدي ونحول بدني، كان مرتديًا جاكت يُصدر صوتًا يشبه صوت كرمشة ورق شفاف حين تلمسه الأيدي أو تحتك به الأصابع المرحبة المعانقة، وكان خالي قد أطلق له شاربًا دقيقًا بنيًّا فوق شفتيه لأول مرة، تذوقت دفء صدره الذي عاد لي بعد غياب شهور قضاها - وهو الطالب الجامعي - عاملًا في إحدى الورش في الأردن، وحين جاءنا في البيت كان ضوء الكلوب ينسكب على زاوية من وجهه أحاول أن آلفها، غربة علقت بخده وحزن ما ركب فوق شفتيه (فيما بعد وحين يمر أحد عشر عامًا سيقول لي خالي إنه لم يدخر في هذه الغربة إلا مائة وخمسين جنيهًا مصريًّا فقط لا غير، تعذب هناك ظانًّا أن شيئًا ما قد يحدث وهو طالب غرير يريد الادخار لزواج من يحبها، وتزوجها، دون أن تسهم غربة هذه الشهور ولا المائة والخمسون جنيهًا).

لكننا استبدلنا هذا الكلوب في شتاءات تلت بلمبات الجاز، ثم جئنا إلى أقصى تطورات الإضاءة في ليالي النور المنطفئ، هذا الصباح الذي يشحن بالكهرباء وحين تنقطع ينير لنا ويرسل أشعته المدخرة المشحونة.

وكنا أحيانًا نستغني عن هذه الإضاءة كلها ونجلس كسالى في الصالة نلعب ألعابًا شفاهية أو نلقي نكتًا قديمة أو يحضرنا أحد الأخوال فيضاحكنا ويتلو الذكريات بعضها مُعاد ونجلجل ونستدفئ بالمرح، وكان ابن عمتنا يحكي عن خوفي من لعبة قديمة كان يداعبني بها صغيراً حين يلعب بأصابعه أمام نور المصباح فيرسل ظلالاً لأصابعه على الحائط فأظنها شيئًا مخيفًا يسير عليه فأخاف وأرتج، ويضحك معنا وهو يعيد ما كان يقوله لي كي أهدأ بالًا وأعود من خوفي.

هو المطر.

حين عدت من عند صديق لأبي سافر له وكان المطر عنيفًا غليظًا لم تعرفه المدينة (في كل مرة نقول إن المدينة لم تعرف مطرًا كهذا، وفي كل مرة تعرف المدينة مطرًا أكثر من هذا) أوقفت سيارة نصف نقل كانت تعبر المزلقان وطلبت منه أن يوصلني معه إلى شارعنا، الطلب غريب في مدينة صغيرة، لكنه عادي في مطر كثيف يعطل السير ويبطئ السرعة ويشن ضجيجًا للسيارة العابرة، وودعت الرجل وصافحته شاكرًا، وحين دخلت إلى البوابة أخبرني أخي أن أمي ذهبت لتوصل أختي إلى محطة القطار لتركب إلى الإسكندرية، فانطلقت تحت مطر غزير عنيد ألبسني الماء وكساني ولمحتهما تسيران في

مدق بين الحقول نحو المحطة، كان كل شيء غارقًا في ضباب وضوء نحيل وشمس مختفية وزروع مهتزة من ثقل المطر واشتداد الهواء، وكانت الأرض ملوثة طيناً وماء، وكنا نعجن بأقدامنا بعد فقدان الأمل في الحفاظ على آخر بقايا النظافة في الأحذية والثياب، وناديتهما فلم يسمعاني، أمي تحمل حقيبة أختي الخفيفة وفي يدها مظلة نسائية أخرجتها من الصوان بعد لأْي من البحث والغضب، ترفعها فوق رأس أختي لتغطيها تمامًا بينما تكشّف جزءًا من رأس أمي للمطر الساحق، يهبط فوق كتف معطفها الأسود، أختي تحمل حقيبة ملابسها وأشياء الكلية الثقيلة، لم يسمعاني فتعجلت السير حتى أوشكت على التزحلق وقد اختفت تفاصيل كثيرة من عدسات النظارة فكنت أمسحها بكفي وأصابعي حتى وصلت إليهما، قبل التماس رصيف المحطة ضغطت على كتف أمي فانتبهتْ وسألتْ في حنان عاتب:

- ما الذي أتى بك يا حبيبي؟ كنت قعدت ترتاح من مشوارك.

ضاحكت أختي ونحن غرقى في حزن السفر الأسبوعي السخيف وزاد المطر من بلائه وسخفه، صعدنا للرصيف واحتمينا بالمظلات الأسمنتية وحين تأخر القطار قلقنا وأعلنت أختي أن لديها محاضرة هامة جدًّا (الذي هو السبت في العادة)، ولمحت البرد على خديها حمرة، وحذاءها يدق على الأرض، وأمي جالسة واضعة كفيها على حجرها وأنا أتلفت وصرت مطالبًا بجواب عن أسئلة: هل يأتي القطار؟ متى؟ ماذا نفعل؟ حال هيئة السكة الحديد في مصر، لماذا لا أكتب عن تأخر القطارات في مجلتي؟ وأداعبهم حاكيًا مقولة صديق سفر أن الاسم الحقيقي لرمز هيئة السكة ((س ح م)) هو: سكك حمير

مصر، فتنتزع أختي ابتسامة وتهز أمي رأسها، وحين يدخل القطار بطيئًا إلى المحطة لا يتوقف وسط اندهاشنا، وتقذف أمي حقيبة أختي الثقيلة عند باب عربة ٧ حيث تذكرتها المحجوزة، يصرخ عامل محطة فينا على الرصيف:

- هذا ليس قطار أربعة إلا عشرة.

يستيقظ رجل على صدمة أمي من تورطها بقذف الحقيبة، ووسط ارتباكنا والمطر منسي في هزيمتنا يقذف رجل واقف على باب عربة ٧ بحقيبة أختي فأجري لها وأجيء بها وتهمس أمي:

- الحمد لله.

ويأتي قطار الرابعة في الخامسة والربع طبعًا، وأعود أنا وأمي تحت مظلتها في المطر، تسألني عن صديق أبي.

وحين يأتي صباح اليوم التالي للمطر تفزعنا حقيقة أن علينا الصعود إلى السطح كي ننزح المياه الراكدة عليه والمعسكرة في منخفضاته حتى لا تتخلل السقف وتسقط في البيت قطرًا وبللًا.

نصعد أنا وأمي وأخواتي مدكوكين من البرد وضامرين جدًّا رغم الملابس الثقيلة التي تنكشف الآن عن أرجلنا، شمرنا حتى ظهر بطن الساق وأمسكنا بالمسَّاحات، أدفع الماء عند منخفض وأمي في مثابرة وإيمان تخرج الماء من فتحة الشرفة على السطح إلى الشارع فنسمع انسكاب الماء بعد ثوان وعلى وجوهنا علامات الجد والصبر والجهد المرهق الذي يثني ظهورنا ويحني أعناقنا، والسطح كبير متسع والماء غزير لا ينتهي، وحين نيأس من دفع الماء نلجأ إلى دوارق المياه

البلاستيك نملأها بالماء ثم نسكبه في إناء أكثر اتساعًا حتى يمتلئ ثم نرفعه من أذنيه إلى حافة السطح فنلقيه على أرض الشارع المبلولة سلفًا.

وكانت أخواتي قد كففن نهائيًّا منذ فترة عن دفع الماء نحو الجنينة محتفظين بتوصية أبي المسافر ألا نلقي ماء من فوق السطح، حتى لا ينكسر فرع شجرة أو تسقط ثمرة قبل أوانها حين يصطدم الماء المندفع بالخضرة الغضة الحنونة، وكنا فقط ننظر من فوق السطح على الأخضر الزاهي في الجنينة بفعل المطر وقطرات من الماء تبلل الأوراق والفروع، والأرض طمي حقيقي والحشائش الصغيرة منكفئة على أوراقها بفعل قوة المطر.

وكانت على السطح المقابل نفس الوجوه المتحدية للمطر في ابن عمتي وأبنائه الصغار الذين يمارسون عشق معاونة أبيهم (حين نكون صغارًا فقط) في دفع الماء عن السطح.

وكنا نتبادل معهم وهم مشمرو الأقدام ممسكو المسَّاحات ضحكًا ومداعبات تنقلها نسائم الهواء البارد وتدافع الدفء من الصدور إلى الصدور، وعلى مساحة الرؤية وحين تتجاوز سطح منزل نرى سطح منزل جدتي المنخفض وقد تبلل تمامًا وغرق جدًّا حين انكشفت أغطية البلاستيك التي وضعوها في شتاءات سابقة تحمي السقف الطيني الخشبي من الغرق، تآكلت الأغطية وتعرى السقف المعبأ بأعواد القطن البنية الناشفة ولفائف الحطب، كان المطر قد أغرق بيت جدتنا تمامًا ولجأوا إلى بيتنا حيث اشتكت جدتي من غرق المنزل وسقوط المطر على الأسِرة وتآكل طلاء الجدران، وابنة خالي تمسك

**بأعناقنا بلهفة تحكي كيف أغرق المطر سرير والديها وقد بدا عليهما القلق والتوتر، وأصر خالي وزوجته على أن يبيتا ليلتها في غرفتهما، بينما نامت جدتي في سكون حزين في غرفة شقيقاتي، تتكلم عن ضرورة تقوية السقف وتغطية السطح، ثم تتحسر على الفراش الذي تبلل والمطبخ الذي غرق والطلاء الذي سقط.**

**كنا ندفع إناء الماء على حافة السطح ونحن نستعد لإلقائه في الشارع حين ظهرت في أول الشارع سيارات مجلس المدينة البلدي تحاول شفط مياه المطر التي صنعت بحيرة كبيرة عميقة منعت العابرين من المرور في الشارع، وكان جرار يكحط الطين من فوق الأرض الأسفلتية وهمستُ إلى أمي:**

**- غدًا يمكن أن أسافر للقاهرة.**

## ٦

# العيد

# هل وجدت الكرة؟

وحدانًا.. وكان الشارع الأسفلتي يمتد تحت سفح الندى الصباحي المغزول برائحة العيد - الذي هلَّ- الخلاء في الشارع ممزوج برهبة الصباح المبكر، السادسة إلا الربع صباحًا والكائنات لا تزال تتمطى خشية النهوض المفاجئ من أسرة الثبات، وأمي تقف في الشرفة الأرضية تتابع سيرنا المتعجل، أناَ وأخي، قامته باتت في صعودها لتجاوزي وبسمته الطفولية لا تزال تزين وجهه الذي يدخل إلى الصبا بقوة، فيه ملامح جميلة من أمي، وفيه سمنة طفولية عذبة لا سيما وهي مشتبكة مع طيش وحمق صبياني يثير الحنق أحيانًا والضحك التالي للحنق دائمًا، كنا نسير معًا وحدَيْنا ونظرات أمي تدثرنا من لسعة البرد التي تخز الأجساد في صباح العيد، تشكنا فتسري فينا بقدوم العيد وضجته - وربما فرحته - وإحساس البرد - كما بالنوم - فوق مشجب قلوبنا، لم ننم نومًا بالمرة، تقطعت عادتنا طيلة شهر رمضان في السهر والنوم بعد الفجر، وكان البيت مقلوبًا على عقبيه ليلة

العيد، حين صار قدومه غدًا مؤكدًا وفتواه معلنة فتحركت الأقدام والسيقان والأذرع والصراخ والضجيج والمناداة بالتقصير والتأخر ووشوشات الهاتف وتدافع الزائرين لاستعارة شيء أو السؤال عن أمر، وتركبنا عصبية كما تركب المقاعد مائدة الطعام الطويلة حيث تتعرى الأرض من السجاجيد وقطعة الموكيت المستحدثة الزرقاء، وتوضع الأحذية فوق المائدة تحت أقراص المقاعد في غير ترتيب، وترفع الأرائك العارية من الأغطية الظاهرة بنقرات الخيوط فيها وتطريز الإبر في أعلاها، وبقايا أثر سقوط الشاي على بطن الأريكة، وصوت اندلاق الماء من قطعة الخيش التي تمسح بها أختي في غرفة مجاورة يصطك مع صوت صراخها على تلويث قدمَي أخي لما نظفته، والماء القادم متسربًا من تحت باب غرفة ثانية يدل على انشغال أخت أخرى في العمل الدؤوب، وأبي في غرفة الاستقبال يجلس على الأريكة الكبيرة يضفر الستائر بعد أن غُسلت في موسمها الرسمي ويشبك مشابكها في الخشب المزين المعلق في الأسقف وهو واقف فوق سلم خشبي كبير يستند على الجدار في ثبات تشك فيه أمي دائمًا، وأنا أبحث عن مكان يليق بقراءة كتاب أو صحيفة بعدما تعطلت مشروعات البقاء خارج المنزل وانزوت احتمالات الركون إلى الأصدقاء وإحساس واضح بكوني بلا أهمية في ليلة العيد، اللهم إلا شرف عدم تلويث البلاط بعد تنظيفه والماء منهمر من الصنابير في الحمام أو المطبخ أو في كليهما، واصطدام الأطباق والصحون والأواني من رف إلى آخر، وحفاظ أمين على عدم الاقتراب من ((حلة الترمس)) المكدس في الماء المملح، والغطاء الشفيف يكسو أصابع الكفتة المحمرة الغزيرة الموضوعة فوق آنية كبيرة للطعام.

أغنية ليلة العيد - التي آنستنا - يطلقها بث التلفزيون في إلحاح يتمم الشعور بالعيد مع صوت أم كلثوم القادم من أسطوانة مكرورة فوق شريط من الصور القديمة الرتيبة لمظاهر احتفالات مبهمة في ميادين القاهرة.

وحين تقفز الساعة إلى الواحدة صباحًا فجأة تبدأ نصاعة البيت كله في الانطلاق: نظافة متألقة ورائحة عطرة عبقة، وأغطية جديدة لامعة ذات ملمس بكر فوق الأرائك، والمساند والأسِرة والأرض مفروشة مزدانة، والحمام في لمعان نقي ينطق بجهد أختيَ التي أوْلته اهتمامها، والمطبخ منظم مرتب، ومائدة الطعام مهندمة ومنظومة بمفرش جديد نظيف، والجدران خلت من آثار تراب أو غبار واغتسلت بالصابون والماء ورغوتهما المنتشرة و ((المكرميات)) تتدلى من الأسقف بعد غسيلها فلمعت وابيضت، واغتسلت الفواكه الصناعية فوق طبق نحاسي أزرق من آثار البيت العتيقة، وازدهرت ورود بلاستيكية في جوف ((المكرميات)) التي صنعتها أختي على يديها.

وتتداخل الرغبات في الاستحمام، كلٌّ قبل الآخر، ونسمع من الصالة وشيش الماء وانسكابه، ونشم البخار الزاحف فوق المناشف الخارجة على رؤوس الشقيقات، وأخي نتحايل عليه للاستحمام مبكرًا أو النوم مبكرًا فلا يستحم مبكرًا ولا ينام مبكرًا، وسهرة التلفزيون التي غالبًا ما نستسخفها ونشاهد بعضها - تبدأ في ابتسامات مصطنعة تؤدي دورها على أسوأ ما يجب - كأنهم على الهواء مباشرة، وعشرون ألف ممثل ومطرب يخرجون على الشاشة فقط ليقولوا لنا كل عام وأنتم

طيبون والأمة الإسلامية بخير وأمان وسأغني لكم بمناسبة العيد حاجة جديدة، ثم النعاس يستولي على العيون من فرط التعب ولهث الجهد ويتسرب الجميع إلى الأسِرة إلاَّي، حيث أقضي بقية الليل بحثًا عما يُفعل دون أن يخرب هدوءَ نفسي ويستحضر حزنًا غير دفين كلما عنت له وحدتي ركبني ورماني أرضًا ثم أتى فعله.

نائمًا بغير نوم حتى أذان الفجر وقرآنه وهبوب زحام خفيف على الشارع، ثم ما إن أنعس حتى توقظني أصابع أبي لصلاة العيد، مبتسمًا هادئًا مرتديًا جلبابه المكوي الجديد، ذقنه الحليق اللامع ونظرته المستشفة وحنان كفه وتعجله الدفيء، ثم بحثه عن تمرة تعطيها له أمي في خروجها من المطبخ إليه في هذا الحضور الباكر الأخضر، مرتدية ثوبها اللائق بالعيد - طرَّزته أختي بعد أن تشاركتا في تصميمه، ومداعبة أبي لها وتهنئة بالعيد لخدها:

- كل سنة وأنتِ طيبة.

ثم يقضم التمرة:

- اللهم لك صمت، وعلى رزقك أفطرت، وبك آمنت، وعليك توكلت، ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر بإذن الله تعالى.

ثم يأكلها مُرددًا كل مرة:

- سبحان الله الذي حرم الحلال وحلل الحرام.

ويحثني على الإسراع حين يصر أخي على مصاحبتنا فنخرج إلى الشارع مبكرين جدًّا، يدق أبي جرس ابن العمة، وأنادي خالاً من وراء

باب جدتي الخشبي الأحمر المؤدي إلى مدخل البيت، أسمع انفتاح بابه الداخلي وخروجه، ثم قدوم ابن عمتي بأولاده الصغار متسربلين بجلاليب بيضاء نقية، وطلة فرحة مشقشقة وأكفهم في أصابع أبيهم، وظهور خال ثان مورَّد ضحكاته الساهرة، والتندر على نوم خال ثالث حتى هذا الوقت واعتلاله المزعوم قبيل صلاة العيد، يلوح جيراننا عابرين بوابات البيوت فنسلم ونصافح ونهنئ ونغذ المسير ونتفرق حلقات متتابعة، وأبي يقود تهليلاً خفيضًا يتابع تهليلات وتكبيرات المساجد المتلألئة في السماء الصغيرة:

((الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً))

وكنت أحب جدًّا الشارع الأسفلتي الطويل المؤدي إلى المسجد في نهايته، يلوح ناس في هرولة نحو المسجد وحث لخطى الآخرين وظهور من منحنيات إلى الشارع الرئيسي، وطلٌّ من نوافذ، وسلام من بعيد، واقتراب لتهنئة، ورائحة زكية مغموسة في الكلمات.

((لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون)) .

ثم نغمات أسطورية احتفالية تنظم تكبيرنا حين نصير جميعًا في المسجد الكبير المكتظ بالأبيض تمامًا بجلاليب للمصلين، وتدافع الأطفال وتحلُّق الإمام وصحبه حول ميكروفون المسجد يهتفون في أغنية عشق إلهية:

((اللهم صلِّ على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، وعلى

أصحاب سيدنا محمد، وعلى أنصار سيدنا محمد، وعلى أزواج سيدنا محمد، وعلى ذرية (نسرع في الكلمات وندمج أحرفها) سيدنا محمد وسلم تسليمًا كثيراً )).

((الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله. الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد)) .

حين صحوت علمت أننا تأخرنا، وأن بعض الأخوال رحل إلى القرية، وأن ابن عمتي وأولاده سبقونا مع صاحب له، وانطلقت أنا وأخي إلى الشارع وحدنا، وكانت نساء مرتديات ثياب الحداد الأسود حاملات أسبتة وأوعية ينطلقن نحو المقابر، وكان أخي يسألني:

- لماذا يفعلون ذلك يا أخويا؟

أحب طعم كلمة ((أخويا)) منه لكنني لا أُحِير جوابًا، ناسيًا تكرار التكبيرات مع صوت المصلين القادم من المسجد البعيد.

الهدوء الرؤوف في البيت كله يُضمخ صباح العيد حين نعود محملين بجميع الصحف اليومية، تكون البنات قد صحين، يُقبلن أبي ويدخلن إلى زهزهة العيد الفَرِح، المذياع في برامجه الخفيفة وأغانٍ قديمة محببة، وأمي مع أختٍ لي في المطبخ يلقين قطَع الكبدة في السمن ويقطعن الجبن، وتعد واحدة صحنًا كبيراً من السَلطة، وتنادي أمي على أخرى كي تُخرج الخبز الذي انتهين من خبزه الليلة الفائتة (في الفرن داخل الجنينة)، وأنا وأبي نجلس في الشرفة نتصفح الجرائد وأهتم -جدًّا- بصفحة ممتلئة بملصقات الأفلام السينمائية وإعلاناتها، بينما يتابعني أخي في حرص، وأتذكر هذا اليوم الذي ذهبت فيه مع ثلة

من الرفاق إلى عاصمة قريبة من مدينتنا نشاهد فيها برنامج أفلام ثلاثة في دار عرض ضجت بالصخب تُطلقه حناجر وضحكات وحركات ومشاجرات مئات الشباب صغار السن يملأون المقاعد كلها، وكان الفيلم بعيدًا على الشاشة بينما الصيحات تقهر كل محاولة للمتابعة، وأقدام تستند على ظهور المقاعد التي نجلس عليها، والسجائر خرجت من جيوب وقمصان، الجميع يدخنون في لهفة وشبق ووحشية ويلقون بالأعقاب في كل مكان منتهزين خروجهم من حزام الرقابة العائلية وزخم توافر قروش العيدية،وكانت هناك بنات مع إخوانهن في خوف من هذه الثورة الجنسية التي تقتحم دار العرض حين يُقبل بطل بطلته، أو تظهر ساق هنا أو هناك، أو ساعة تجعل الجماهير غولاً من التصفيق والصياح، وكنت أخشى على صحبة البنات بوجوههن البريئة المفزوعة وضاعت كل صلة لي بالفيلم وتعجلت خروجنا، ذلك ما حدث لي وحيدًا أيضًا في دار عرض في يوم من أيام العيد اضطررت فيه للتواجد بالقاهرة لعمل بالمجلة، وحين وجدت فراغًا في الوقت يحتاج إلى ملئه كانت دار العرض الكبيرة الضخمة تضع صورة نجم الفيلم هائلة الحجم، وتزاحمتُ مع الجمهور ظنًّا أنه فقط الجمهور، ولكن لحظة دخولي تمنيت انسحابي في ذات الدقيقة التي أشار لي عامل السينما بمصباحه الصغير إلى مقعد - أي مقعد خالٍ- كنت أهم بالرجوع فقد كانت المقاعد حافلة بالغوغاء الذين أطاحوا بكل شيء؛ الهدوء والنظافة والحياء، والفيلم بطبيعة الحال، وكان إذا ما أتى النجم بحركة للضحك ضجوا بالضحك عشر دقائق دون أن يسمعوا ما يتلوه من كلمات أو حوادث، وإذا ما ضرب واحدًا بعنف مستحب لديهم انهالوا بالتصفيق الحاد

الذي لا ينقطع بظهور مشاهد أخرى أو توقف صفع البطل للممثلين، وكانت هذه المرة بنات كثيرات في مقاعد ملتصقةلا يبدون إخوة، وقد اشتبكت أصابع وتحركت أيد وتداخلت أصوات الجالسين يسبون وينقدون ويلعنون، ولم أكن أخًشى سوى على نفسي.

ناداني أخي في أذني:

- سأذهب لمشاهدة فيلم اليوم.

صرخت عليه حادًّا:

- لا يمكن.

صوت أمي تستدعينا للإفطار - بينما جاء والدي من الجنينة في يده الصحيفة مفرودة عند صفحة مقال سياسي.

أشعر خدلًا في جسمي وخدرًا في بدني من قلة النوم وغياب راحة البدن، وكنت أحس في كل جزء من لحمي دبيب النمل يجري فيه ويغدق في سعيه داخلي، أحاول أن أختلس لحظة للوثوب نحو النوم، ولكن التحديق فيَّ كفيل بالتراجع،أخرج مع والدي للشارع بعدما زارنا الأخوال وبعض الجيران، ننهض من غرفة الجلوس جميعًا إلى الشارع في صحبة متماسكة متباسمة حيث نزور الجيران نبدأ بالمنزل المقابل، البوابة الصغيرة والسلالم المؤدية إلى باب الشقة، الصالة الضيقة وارتباك قِطَع الحلوى في علبة معدنية وابتسامات متبادلة وكلام في التحية مع وجوه مألوفة، ثم خروج إلى منزل صغير واطئ تحت أسفلت الشارع حيث جارة طيبة كانت تبيع البرتقال والطماطم تعيش مع أمها وابنتها ويحلق المرض والفقر والخجل، عندها شقيق يزورها

في الصباح، يستقبلون زياراتنا بحب شديد وقِطَع حلوى متواضعة فقيرة، وشكر جزيل وإلحاح بطول الزيارة، ثم كثير من الأرائك وغرف الجلوس والمقاعد الخشبية المبطنة القطيفة وقطَع الحلوى ودوائر الكحك والبتي فور والسكر المبدور وأطباق الفولَ السوداني والترمس، نرفض الاقتراب من التحيات حيث انتفخت البطون بمياه غازية وحلوى فُرضت علينا جميعًا قسرًا، ويودعنا الجيران حتى عتبات البيوت، ونسير مستكملين الرحلة ورائحة العيد تتجلى وتزدان بالماء الخفيف على شوارع متربة أخمد غبارها، وتمضي بنا المسافات، وحين يسري فينا إحساس مُضيِّ الوقت وقضاء الواجب تبدأ الانصرافات والسلام وتبادل التهنئة وتقلص أعضاء الصحبة.

الجنينة الآن مستعدة تمامًا، نظفها عامل نظافة الشارع، نفحَته أمي ثلاثة جنيهات بالأمس وأشرع وجودها كله للعيد، الأرض نظيفة، كُنست كل الأوراق الصفراء وبقايا الصحف وأعواد أقفاص وثمرات معطوبة قديمة، وهُذبت الأشجار وأخليت من ذوائبها، واغتسلت الأوراق الخضراء برش من خرطوم ينهمر بالماء كالمطر، فيسقط الغبار القديم والتراب الملون للهواء.

فرشت أمي سجادة قديمة على الأرض بين شجرتيَ الجوافة والليمون فبانت رقعة حمراء وسط حديقة صغيرة محاطة بالجدران العالية، ورفع خالي التلفزيون أمامي وحملناه معًا حتى المائدة الصغيرة الموضوعة إلى جانب الشجرة، ثم مددنا السلك الطويل من الشرفة المطلة على الجنينة حتى جهاز التلفزيون، بينما نبهنا إلى عدم المساس بالزروع، جاءت جدتي وتربعت على مسند قطني فوق

السجادة ترتدي جلبابًا جديدًا قماشه يلمع وتتحسسه بكفيها سعيدة مزهوة، بينما كان أبي يروي المربعات من الزروع الخضراء ويمسك بالمصحف بيمينه والتلفزيون بدأ بث برامج العيد، وهذا الغناء الموسمي الذي تطلقه مطربة ممثلة ترحب بقدوم العيد.

تنادي أخواتي أبي من فوق السلالم المؤدية للجنينة، يضحك مدركًا سر النداء الأليف في لهجة تمثيلية - لا تعنى بفهم الآخرين بأنها كذلك - يفهمنا أبي فيطلب من أمي حافظة النقود من جيب حلته الخضراء (وهي رصاصية لكن والدي يتمتع بأكثر الأمراض خفة ظل ومثارًا للابتسام والحيرة معًا ((عمى الألوان)))، فإذا بأمي لا تسأله عن حقيقة لونها بل تتجه إلى جيب السترة وتفتحه دون أن تغلق زر السترة؛ تلك الحركة التي يعرف منها والدي فورًا أن أمي فتحت حافظته فيسأل واثقًا:

- هل أخذتِ نقودًا من المحفظة؟

فتجيبه أمي توًّا سواء من المطبخ أو الردهة أو من فوق السرير:

- نعم أخذت عشرة جنيه لأجل اللحمة.

وأمي لا تتذكر أبدًا إغلاق زر السترة حتى لا يكشف والدي سريعًا تحرك حافظته وفراغها من مال ما، فأمي لا تهتم باكتشافه لأنها تخبره فقط، تتخير موعد ذلك بدقة، حين بسمة أو مداعبة، أو ضحك عال صاخب أمام موقف عائلي يتزعمه خالي الضاحك دائمًا (يعتبر هذا حسدًا ثم لا يهمه)، حيث إن النبي محمد صلى الله عليه وسلم يظهر له في المنام - الرؤيا - ويخبره رضاه عنه فنضجُّ منه:

- كيف يرى وحده النبي بدلًا من المرة عشرًا بينما لا يصلي الجمعة أحيانًا؟!

فيشيح بوجهه شفقة علينا من الجهل بالرضا الرباني الخاص به تحديدًا في العائلة كلها ويمسح صدره موضع القلب بكفه ويقول:

- المهم هنا نظيف وطاهر ومرتاح.

حين يصل الأمر إلى تبادل الاتهامات الدينية اللينة المرحة يقفز خالي على الأرض ويأتي بأفعال رجال السيرك إياها؛ حيث ينقلب على رأسه ثم ظهره ثم يستقيم واقفًا فجأة أمام ذقن أبي فيضحك جدًّا:

- ستظل طول عمرك مهرجًا.

تضيف أمي:

- أصبح لديه بدل العيل ثلاثة ومع ذلك لا يهمه شيء هنا.

أحيانًا تتسحب الكلمات حتى يصل إلى جنيهات أُخذت من الحافظة أو تذكير بأنها طلبت من أبي نقودًا تكفي شراء حاجيات من السوق أو أجرة درس شهري لأختي أو أخي أو كليهما، يهز أبي رأسه متمتمًا موافقًا.. ويستكمل قراءة الصحيفة.

تقدم أمي له الحافظة من النافذة المطلة على الحديقة حيث يقف تحتها مادًّا يديه فتهبط أخواتي يقودهن أخي نحوه في لهفة العيدية الأولى، يمد أبي أصابعه داخل الحافظة ويمنحنا العيدية بينما يستنكر أخي أنها لم تزد من العيد السابق، بينما تداعب أختي الوسطى أبي طالبة منه أن يرفع المبلغ قليلًا حيث إنها كبرت.

كففت منذ سنوات الجامعة عن الحصول على العيدية من أبي، حيث أصبحت صاحب دخل شهري من عملي بالصحافة، الأمر الذي جعلني - مبكرًا - أقوم بدفع العيدية إلى أخواتي أو بعض أبناء العائلة زعمًا مني أنني رجل، واقتناعًا منهم أنني كذلك.

الشمس لم ترفع رموشها عن أشعة دافئة مثل صوت هديل الحمام في الحوائط اللينة تمرغ صوتها في أوراق الشجر الأخضر المغسول وزوايا الجدران وأطراف السجاد المفروشة، وتلقي بظلال الشجر وأفرعه المتشابكة والمنطلقة على شاشة التلفزيون، حيث انضمت عمتي إلى جدتي وجلستا على السجادة، وتتابع العيون - دهِشة - متتاليات البرامج.

ويكون الوجود كله قد اندلع بالحركة الهستيرية باندفاع أطفال العائلة مطلقي السراح نحو كل شيء يخص الوجود في هذا الصباح، خالتي حضرت وزوج خالتي بابتسامته الأميرة المهذبة يمسك بكف ابنه الصغير محمد الذي لا يكفه عن محاولات التملص والانضمام إلى أشقائه الثلاثة الذين عاثوا في الهواء بأصابعهم وأقدامهم وعيونهم وحركة أجسادهم وأصواتهم، ينجح في الاقتراب من أخيه الأكبر سنًّا - طارق - يعود إلى الخلف خطوات ثم يرفع قدمه اليمنى في أقصى ارتفاع لها مقلدًا لاعبي الكاراتيه مطلقًا صيحاته التي يريد لها أن تخرق الأرض فتثير ضحكنا فيغتاظ، يمد ذراعه في قسوة وحدة مبذول فيهما جهد ليس هينًا، ثم يندفع نحونا فيسقط متزحلقًا علىَ الأرض فنضج بالضحك فيشاركنا فيه بريئًا، بينما أخوه الأصغر محمد أقصر أطفال العائلة رغم سنه يشب نحونا ويدور فينا لكمًا وتقتيلاً، ثم يعود جاريًا

إلى الخلف ممسكًا بحبة بمب في كفه يطبق عليها قبضته وينفخ فيها حتى نمَلَّ المتابعة فيفرد أصابعه ويلقي بها بقوة - يعتبرها مفزعة قطعًا - إلى الأرض فتزحف على البلاط دون أي شيء فيخيب تمامًا ويشعر بخزي ترتفع درجته مع ارتفاع ضحكاتنا، أما أخته الأكبر - ريهام - فهي مصدر الرعب الحقيقي للبيت كله خشية أن تموت أمام سيارة أو تحت قطار، كما يعتقد الجميع أن نهايتها ستكون مفزعة لفرط شقاوتها ورجولتها الغريبة وعنفها الفظيع فهي أكثر بنات وأولاد العائلة تعرضًا للإصابات والحوادث، قَطْع في جلد اليد، شرخ في قدم، جرح في جبهة الرأس، لا تتورع إطلاقًا عن الدخول في معركة غير متكافئة مع شلة من الأطفال ولا تملك أية قدرة على الخوف، فتقفز من شرفة إلى الأرض في الشارع أو تجري وراء سيارة أو تصعد فوق سور السطح، تمسك بأي شيء يصل إلى يدها ابتداء من الكهرباء وانتهاء بالسكاكين، تجري في أرجاء البيت بمعدل يكفيها للفوز بأية بطولة للسباقات الطويلة، ترد على أية محاولة للضرب، بالضرب والسب بالقذف، ترفع أطفال العائلة كلها إلى كتفها - قال يعني حنان! - تخلع حذاءها وتعدو حافية فوق الأسفلت أو الأرض الترابية، تتلقى تأديب والدها بصلد وجبروت يدفع أمها غالبًا إلى البكاء لعجزها عن فعل شيء معها، وصار ارتباطها بأي طفل أو طفلة مثار تعب قلب لأسرة الطفل، وكلما ظهرت ملامح الشقاوة على طفلة في العائلة كلها نطلق عليها لقب تلميذة ريهام زعيمة العصابة ونسأل أنفسنا - وغيرنا - هل يمكن أن تكبر زعيمة العصابة وتصبح فتاة ثم زوجة؟ ماذا سيفعل بها أطفالها؟ ويعود أبي إلى التذكرة بأن أمها - خالتي - كانت في طفولتها بنفس درجة عنفها وشقاوة ابنتها.

يتدافعون جميعًا إلى العيديات ناسين أحيانًا إلقاء الشكر فينبههم والدهم، لكن التداخل الشديد بين الأطفال الذين جاؤوا مع الأخوال والخالات يدع الكل ناسيًا لمعالم الكل.

تقترب ابنة خالي إيثار نحوي نازعة نفسها من الزحام وهي تراني أحاول إصلاح شاشة التلفزيون وضبط الصورة:

- أنت مالك بالحاجات دي؟ أنت مثقف بتاع روايات!

أنهارُ تمامًا من الذهول، هذه الطفلة التي لا تتجاوز أربع سنوات ما الذي أفهمها أنني ((بتاع روايات)) وليس لي في غيرها؟! أنادي خالي لأخبره فتمنعني بكفها الصغيرة الناحلة التي تمسح صدرها مستعطفة وعينيها الجميلتين العسليتين، وشعرها البني الذهبي يجعلني ذائبًا رهن إشارتها.

- إوعى تقول أحسن بابا يضربني.

- أبدًا يا قمر سيفرح بكِ.

تجري عندما تصدق نحو شقيقها الصغير على حِجر أمه فتداعبه، ثم تمسكه بقوة تريد تقبيله مندفعة فتمنعها أمها فتصرخَ:

- أخي حبيبي تعالَ يا حبيبي.

وتضمه إليها كالنساء الكبيرات، ثم تنطلق إلى البالونات المنتفخة التي ملأت الصالة والحديقة وأمينة ابنة خالي الآخر تجري وراءها نحو اللحاق ببالونة كبيرة، تتمرجح في الهواء ويتصارعان حولها عند هبوطها إلى حافة السرير حيث يمكن أن تطولها أصابعهما، تحتدم

المعركة حين مشاركة شيماء ابنة خالي الأكبر ولكنني أجري نحوهن مانعًا مجزرة الصداقة تحت ألسنة البالونات وأدفع البالونة عاليًا إلى الهواء فلا تطولها أي الأصابع الصغيرة اللينة فيضحكن مسرورات كأنها اللعبة، فأستمرئ ذلك فأضرب بالبالونة إلى الهواء صاعدة أمام نظراتهن المشتاقة حتى يجرين إلى بقية البالونات غير المنتفخة فيدفعن آباءهن إلى النفخ فورًا، بينما تصر إيثار على القيام بذلك بنفسها ثم تنفخ، لكن لا أثر على الإطلاق، بعض الصفير والرذاذ المنساب من فمها فتزهق وترمي بها أمام أخي:

- شوف مش أنت كبير وعامل راجل؟!

ينهرها والدها ضاحكًا فترد:

- يا أخي سيبني النهارده العيد.

أسألها:

- ماذا تعنين يا إيثار؟

تجيب صاخبة وقد التفت حولها عيون العائلة:

- كل شوية عيب يا إيثار عيب يا إيثار، هوَّ أنا ما اعرفش أعمل حاجة خالص؟ شوفوا حد تاني تتحكموا فيه.

فنضحك مهتزين من مفاجأة التمرد الطفولي.

يغوص البيت بالأطفال، تدافعهم وتكالبهم، سقوطهم على الأرض ثم صعودهم المفاجئ، قيامهم السريع، لهثهم المتدفق، صراخهم المختلط، ضحكاتهم المجلجلة، عراكهم الصغير بينهم كان

أحمد ابن خالتي مكتئبًا بقامته القصيرة وسُمرته العسلية وعينيه الواسعتين المحفوفتين بالدموع، جلس على مسند الأريكة دافسًا رأسه في القماش دون أن يتحرك، وكانت عيديته ذات الأوراق النقدية الجديدة حادة الأطراف نائمة عند فخذيه الصغيرتين، أحمد كثير الاكتئاب دامع العينين دومًا، حتى إننا بتنا نتعامل معه على كونه فنانًا والتمسنا عند والده (ابن عمتنا) أن يجد له متنفسًا لإبراز فنه، إنه يبكي ليالي طويلة وسط حيرة الأم والعائلة، ثم نفهم من أخيه الأكبر حسام سبب بكائه؛ فإحدى زميلاته بالفصل قد تغيبت لمرض ألمَّ بها، فافتقدها أحمد، وصار يبكي لأجلها حتى إن دموعه انقطعت بعد عودتها - محمودة - إلى مقعدها فاستقرت عندها عيناه ونبضات قلبه ودقة مشاعره، كما أنه أحيانًا يصحو من النوم يعاني غلظة الهواء على أنفاسه، وثقل الحياة وهمومها - كيف لا يعرف؟ - المهم أنه يبوح بقرفه من الدنيا والملكوت ويسأل - وهو صاحب السنوات الخمس - عن معنى الحياة، لذا كان طبيعيًّا أن تقترب منه أختي وتلتصق بجسده النحيل وتسأله مداعبة عن سر ألمه وامتقاع لونه وسكون حركته، ثم تمكث طويلًا في استجوابه وتمضي وقتًا في استنطاقه دون فائدة، لكن عند لحظة بعينها تنفلت في العائلة المشكلة الكبرى، فأحمد مكتئب لوجود أمينة بنت عمته وخاله (...) مرحها وجريها وقفزها كلها أشياء تثير لديه الحزن والوجع.

- لماذا يا أحمد؟

- أصلها شتمتني.

وتسري فينا ضحكات عنيفة تهز وجود الهواء حولنا، لولا أن

أحمد ينهمر في بكاء كثيف.

- يعني أنت يا أحمد لم تشتمها أيضًا؟

وتستنزف هذه القضية أختي تمامًا وتجري هنا وهناك وتزعق وتستجوب وتتهم وتدين أحمد وتعاقب أمينة، ووسط هرج العيد وخروج ودخول واندفاع وثبات ومشكلات صغيرة، مناوشات هنا وهناك، نلمح حسام في معركة حامية مع عبد العظيم، حيث يرفع حسام المسدس الأسود وهو واقف وراء حائط الباب بينما يحتمي عبد العظيم خلف الحائط المؤدي إلى ردهة المطبخ، وبينما يظهر حسام سريعًا ويطلق رصاصته، ويخرج عبد العظيم في جدية أفلام الغرب الأمريكي ويضرب بمسدسه الذي تعوزه قوة الصوت فيخرج عبد العظيم صوت طلقات الرصاص من فمه ليكمل المشهد، لكن مسدسًا آخر يظهر مع محمود الصغير الذي يحسم المعركة كلها، فمسدسه يطلق بالفعل سهمًا بلاستيكيًّا يلتصق بالحائط أو يؤذي الجسد فيخشى كلاهما من طيشه وضحكته المرتجة وهو يخوض بينهما بجسده الصغير الذي لا يصل إلى ركبهم إلا بالعافية ونسمع نحيب بكاء من الخارج، مندفعًا نحونا، تجري الأمهات راكضات لنكتشف أنها ضحية من ضحايا ريهام قد جاءت لتشكوها لنا، نفهم الموقف ونبحث عنها فيجري نصف الأطفال للخارج تشفيًا فيها وللبحث عنها، لكن حسام تسرقه أغنية قادمة من الجنينة فيقف على المائدة مطلقًا لصوته العنان، في صوته حلاوة ورنين مما يجعلنا نحبه، لكنه يستثمر هذا الإعجاب أسوأ استثمار حين يصرخ ويزعق بصوته كأنه يغني، فيحول صوته إلى آلة مزعجة، نطلب منه أن يكف، ثم نلح

عليه، ثم نهم بضربه، ووالده يحاول أخيراً أن يوقفه عن الاندماج.

تتوقف سيارة في الشارع مصدرة صوتًا زاعقًا علامة توقفها المفاجئ المرتبك، نسمع زحفات العجلات على الأسفلت، تلتاع أمي، تركض للشرفة:

- أحسن يكون واحدًا من الأولاد؟

يدخل أطفال كثار إلينا تتقدمهم ولاء بطيبتها وهدوئها البائن ونحافتها المذهلة وشعرها المعقوص في ذيل الحصان خلف ظهرها.

- ريهام كانت قصاد العربية.

ونسمع صوت ريهام صارخًا قادمًا من البوابة:

- كده يا ولاء! أنا أهو يا ماما.

تخرج لها أمها تقاوم أن يُغشى عليها.

- أنا ما عملتش حاجة والله.

أنسحب منسلًّا ومتسللًا إلى غرفة نوم داخلية، على السرير متوسدًا تعبي وغيابي عن راحة البدن، أضع رأسي بين وسادتين حتى لا أسمع هذا الصخب الشرس في الخارج، ينفتح باب الغرفة فأزعق رافضًا أن يقطع أحد نومي، يعود الباب للانغلاق وتتسرب نحوي وجوه أحبة، سأتصل هاتفيًّا بهم بعد يقظتي، أسمع صوتهم وبحة العيد في حلوقهم وغيابهم عني أيام الإجازات السابقة للعيد وبعده، لكن غرفة خالية تُثبت فيها حبال متينة بعرض الغرفة واشتبكت فيها ملاءتان كأنهما ستارة مسرح تظهر لي، وقد رأيت نفسي وبصحبة أختيَّ

الكبرى والوسطى، في غربتنا البعيدة، قامات قصيرة ومداعبات أمهات أجلسن حولهن أصدقاء الغربة وأطفال المصريين من زملاء أبي وأصدقائه وجيراننا،التمَّ الأطفال جميعًا في انتظار انفراج الستارة عني، دعوتهم يوم العيد إلى حفل أقيمه في منزلنا، أمثل مسرحية وأقول شعرًا وأرتدي - مع بعض إخوتي ورفاقي - ملابس تنكر، نقدم فقرات للعب.

كنت أقاوم رهبتي وإحساسي بالفشل وضعف خيالي وقلة المعاونة حين خرجت من وراء الستارة أمثل نشيدًا ما أو أحكي قصة مدرسية، ويبدأ الرفاق في الدعابات الغليظة والمحاولات البديهية لإفساد الحفلة، لكن الذكريات تتناثر وتبتعد، ولا أذكر - الآن - سوى وجوهنا خلف الأقنعة الكرتونية تحمل وجوه الشياطين والفرسان، وأختي الصغيرة تخاف مرعوبة من هذه الأقنعة.

ثم مسدس ضخم اشتريته بالعيدية واقفًا في منتصف الشقة ضاغطًا على الزر، فينطلق شرر من الألوان الحمراء من فوهة المسدس، وحين نصعد إلى السطح نلعب الكرة، تسقط كرتنا بعد حماس زائد للاستحواذ على اللعبة بيننا، فإذا بالكرة تنطلق في الفضاء ثم تسقط من بناية ذات ستة طوابق نراها في الهواء تهوي وقلبي يتقلص ويتآكل ويغيب عن الرؤيا. وفي الساحة الخالية أمام البناية يمسك بها أطفال من بلاد الغربة ضاحكين راكضين وأقدامنا ترتج فوق درجات السلالم، أصابع أمي تداعب كتفي:

- استيقظ يا حبيبي.. أبوك يتكلم.

أنهض متعجلًا.

أجري نحو الهاتف بعينين تائهتين من النوم، فوقهما ضباب الغفوة الطويلة.

أمسك السماعة:

- كل سنة وأنت طيب يا أبي.

يأتي الصوت من بعيد؛ صاعدًا من مستطيل زجاجي لغرفة الاتصال الضيقة في ((سنترال)) بعيد موحش:

- كل سنة وأنت طيب، كيف حالك؟

وأنسى - بعد عودة أبي للغربة عقب ثلاثة عشر عامًا كبرنا فيها عمرًا وحزنًا - أنسى سؤاله:

- هل وجدت الكرة؟

٧

# العودة

# الطريق البري

التصق أنفي بالزجاج، سور زجاجي طويل يفصل بين هذا الممر الذي أقف فيه الآن وبين الصالة الضيقة التالية لصالة الوصول، داعبت أصابعي الضباب المتكون من أنفاسي على الزجاج حاولت كتابة شيء، حرف ما (نون ربما)، أو كلمة، لكنها الرغبة باخت والمشروع تراجع مع يدي المنسحبة إلى جيبي ثم نظراتي الملقاة على الوجوه الجالسة في الكافتيريا الخلفية، مساحة من البلاط العاري، ثم مائدتان صغيرتان خلفهما حاجز خشبي منقوش كالمشربيات بتشكيل إسلامي قشري، أكواب للشاي على مائدة خالية منزوية عند نافذة تطل على منطقة من ساحة إقلاع الطائرات، حيث طائرة تبدو صغيرة متوقفة بمقدمتها التي تشبه منقار بومة، وأخرى تجر عجلاتها على الأرض، نشهد حركتها البطيئة المشرعة، يحرك ابن عمتي الذي يرافقني في الجلسة والانتظار أصابعه نحوها:

- ها هي طائرة تقلع.

حين يضج أزيزها يضطرب صدري ويخاصمني الفرح وتنقر كآبة خاصة بي قلبي، كأنها طراز معين من الكآبة أعملت فيه تكنولوجيا الأحزان كل طاقاتها في مصنع مرعب من الآلات والأسلاك والعبوات والمعاطف التي يرتديها المهندسون والأرقام الإفرنجية على الحوائط في ساعات لضبط الوقت، وأخرج المصنع لي وحدي صنفًا من الكآبة يليق بطلبي ولا يفك ولا تبدل قِطَع غياره حتى إذا عاد للمصنع ذاته، يطلقون عليه اسمي لأن عميله متميز طلب هذا الطراز وعكف على صناعته أعتى مصمميهم دقة وأعلى فنييهم خبرة وأكثر آلاتهم تقنية، كل هذا حين تطير هذه الكتلة ذات الشكل المسحوب (طائرًا معدنيًّا مقلدًا):

- أين أنت يا عباس يا ابن فرناس؟

تراجعت عيناي عن كوبيَ الشاي الفارغين إلا بقايا أخيرة خفيفة، واستدرت إلى الممر الضيق الذي احتشدت فيه العيون المنتظرة، كلنا نحمل لهفة على رموشنا ونأتي بها إلى هنا، الأكتاف متراصة والأقدام متعبة، لذا فقد اختار أصحابها الاستناد إلى بروز أسمنتي مقابل، يجلسون فوقه في اتكاء متعب وعيونهم فوق الزجاج أو على ظهور رفاقهم المنتظرين خلف الزجاج، قد يلمحون إقبال الأب، وفود العائلة، يضجون بالفرحة، فينتبه الجالسون، يقفزون إليهم ويتبادلون مع المقبل العائد تلويحات الأكف ويجرون نحو نهاية الممر، حيث التقاؤهم في المساحة الأمامية لصالة الوصول أمام ساعة الاستعلامات الإلكترونية المثبتة تتغير أرقامها وتتقلب عواصم العرب كلها في

خاناتها، حتى تستقر عند عاصمة بعينها، تأتي منها طائرة تقل قادمين للمنتظرين، وتزف فرحًا للقابعين في شبق التقاط دقائق للسعادة واستمهال عادة استحلاء الغربة وتعوُّد الرحيل واعتياد الفقد وائتلاف المسافات البعيدة.

كان أطفال يرتعون في الممر بين الجالسين تعبًا والواقفين تعبًا، أقدام الأطفال تدق البلاط وأصواتهم الصارخة تتداخل في الفراغ وأسئلتهم الملحة لأم واقفة، هل جاء أبوهم؟ لجد جالس، لماذا تأخرت الطائرة؟ ثم يعودون للعب ويلعب المنتظرون في صدورهم، سلسلة أخت أو مصحف معلق على صدر زوجة أو زر قميص شاب، ثم تدق أصابع على الزجاج وقد يأخذها تطرف فيهتز الزجاج في السور كله فتتجه الأنظار عاتبة إلى صاحب الأصابع العصبية، البعض اتجه نحو شباك زجاجي مطلي ببياض يمنع الرؤى لكن الأيدي قشرت الطلاء في أيام طويلة لينكشف زجاج النافذة الضيقة المطلة مباشرة على جزء من باب الولوج من صالة الوصول إلى الصالة الصغرى التالية لها التي نتعلق عندها، وكان الوقوف أمام هذا الشباك القاتل من هذه الكوة نصرًا للمثابرين الذين يعطون لأقاربهم الواقفين أمام سور الزجاج أو المتسكعين في الممر، يعطون صيحة قدوم المنتظر، عودة الغائب، فتسري فرحة مزقزقة في الممر كله وهرج فوضوي مثالي، أم تنسى طفلها فيعدو خلفها صارخًا فيمسكه خاله، جد يستيقظ من غفوته على كف يهز كتفه فيقوم بينما يكون الجميع قد انطلق خارج الممر، غطاء رأس يسقط مترنحًا من سيدة محجبة ملهوفة، حذاء ينخلع من طفلة ملتاعة للمشهد وللعودة.

وحين ينتهي كل ذلك نبدأ في الرجوع إلى الشباك والسور الزجاجي ننتظر ونرقب، ويصرخ آخر لثالث:

- بابا أهو.. أهو.

ولا ينتبه الأب العائد، عيناه محدقتان في المساحة الخالية غير متيقن من وجوه كثيرة تحملق فيه من وراء الزجاج وسيارات البضائع المتوقفة أمام باب السوق الحرة وحقيبة الأوراق في اليد الدافعة للسيارة وحقيبة ملابس تسقط فيتوقف ليعيدها موضعها، ثم تنفلت منه السيارة الصغيرة في انحراف عند استقامة السير نحو الخروج، ويعجز عن إعادتها لمسارها المستقيم فيتوقف آخر لمساعدته فيبتسمان متعجلين، وحين يفيق على خبطات الأكف على سور الزجاج يلمح وجه ابن أو أخ فيضحك ويتوقف بدلاً من استكمال السير إلى الخروج واللقاء بهم، يتجه نحو سور الزجاج ويصافح أكفهم خلفه، ثم كأنه وصل إلى محطة قلبه، يتوقف حتى يحثه المنتظرون على الخروج للتلاقي واللمس والعناق وحرارة اللقاء ونورت مصر يا بابا.

وحين يضع القلق إبرته في عروقنا، تبدأ أسئلة تقليدية عتيقة في الفرار من حلوقنا إلى آذاننا - جميعًا - معقولة الطائرة لم تصل حتى الآن؟ هل يتأخرون إلى هذا الحد في الجمرك؟ لكن كثيراً منهم وصل، هل تخلف ركاب آخرون؟ ثم نستمهل أحد القادمين في وثوب نحو الخروج، نستفهم منه عن بلد قدم منها وطائرة وصل عليها فنسمع صوته بالكاد يؤكد أنها الطائرة التي ننتظرها نحن، آخر من بقي في الممر، أفراد تعدهم أصابع اليد الواحدة مرتبكين ومندهشين وقد فرغ الشباك الصغير لنا نلمح فيه فراغ صالة الوصول وخلاء النوافذ

الجمركية وصحراء الأسوار الحديدية الصغيرة القصيرة الفاصلة بلا أحد، ساعتان من الانتظار بعدها نشكك في كل شيء، ربما لم نسمع منه في الهاتف رقم الرحلة جيدًا! ربما أخطأت أختي في معرفة يوم الوصول بالضبط هل قال الثلاثاء أو الأربعاء؟ من الذي تلقى مكالمته؟ هل كتب البيانات فور سماعها؟ هل أرسل أبي معلومات وصوله في خطاب بخط يده؟ طيب لماذا لم يتصل إذا كان قد أجل الرحلة؟ وعشرات من صفوف النمل تصعد إلى رؤوسنا وتحتل المخ وتعبث في جلودنا، ثم نعرف أن كثيرين تخلفوا على الرحلة لعدم وجود أماكن.

ثم...

نتصل بالبيت من ((السنترال)) الضيق القابع في دور سفلي للمطار أمام المسجد الصغير بجوار فروع بنوك شهيرة، ودورات مياه وأجهزة الهواتف ذات القطع المعدنية معلقة على الأسوار، أدخل إلى السنترال، أستبدل قطَعًا فضية، أدخل حجرة زجاجية ضيقة ألمح منها موظف ((السنترال)َ) ملولاً وإيصالات المكالمات ملقاة على الأرض، ومنتظرين - أيضًا - على مقاعد بلاستيكية حمراء.

وتظهر أرقام هاتفنا على شريط معدني شفاف في جهاز الهاتف الرصاصي، ويأتي الخط مشغولاً فأكرر المحاولة، لكن قطع الفضة تسقط من جوف الهاتف، فأعيدها، فتظهر قيمتها على الشريط نفسه، ثم يعود رقم هاتفنا بكود المحافظة إلى الظهور، ثم وجه في الخارج ينتظر فراغي من المحادثة وقلق ما يعزف في عينيه... فأستعجل الاتصال مرة ثالثة،أدفع بحذائي جدارًا مبطنًا ثم أحشر قدمي في زاوية

التقاء الجدارين، ثم ألتفت إلى جدار مقابل، أضرب الجهاز بأصابعي، أعيد قراءة رقم الهاتف.. ثم صوت الحرارة طازجًا.. رنين منتظم أكاد أراه في بيتنا حيث زحام انتظار عودتنا مع أبي من المطار وروائح الطعام وقدوم أقارب وحوارات صاخبة، وفرش في أعلى درجات نظافته للأرائك والأسِرة ثم صوت أختي عاليًا.

- نعم اتصل هنا وقال إنه لم يجد مكانًا في الطائرة وسيعود في الطريق البري.

... البري!

عندما عدت كان كل قلب مجهزًا لأبي، لنفير سيارة بيجو، واحتكاك بأسفلت وتمهل قبيل توقف، وخروج كالسهام إلى الشرفة، وصراخ مثل صواريخ الأعراس والاحتفالات المنفلتة عند ظهور والدي نازلًا من السيارة، وجهه مكدود من السفر الشاق وابتسامته لروح مبشرة بجنة موعودة.

وكان صمت البيت واحدًا بطيئًا في انتظار هذه اللحظات المختطفة من أوراق نتيجة الحائط المستلة من الزمن الوئيد الذي يمر على صدورنا ويهشم ما تبقى من حطام الروح.

هذه السيارة المنتظرة ببياضها وشارة أجرتها ومقاعدها الجلدية وسائقها الأسمر هي نفسها التي كانت تنتظرها منذ عشرين عامًا على وجه اليقين أمام برج المنوفية، وقفنا أبطال صورة جواز السفر - أمي وأختي الكبرى والوسطى وأنا فقط - صغارًا كالفراخ المستدفئين بصدر الأم ننتظر (أكثر الأفعال التي خلقها الله تعالى كآبة، وأثقل ما

في القواميس الثقيلة)، ومعنا زوجة صديق لوالدي وأولادها نتقاسم السفر إلى الغربة حيث ينتظرنا أبي وصديقه، عائلتان حميميتان، من الاتصال والحب والألفة منذ ظهر اسم كبيريهما في كشوف الإعارة، لكن الزمن الذي لا يرحم وأحيانًا لا يترك رحمة ربنا تنزل، قطع الأوصال وألقاها في أكياس بلاستيك، دفنت الغربة هذه الصداقة ومزقت صلة كنا نظن أنها ستبقى طيلة العمر، لم يمر عامان في الغربة وجيرة شقتين ملتصقتين وتزاور وتصادق ومعاشرة وأكلات مشتركة ومداعبات موحدة وذكريات ملتمة وبركة في لمة، عامان وتراكمت خصومات صغيرة ودبت غيرة وانشقت شفاه، وصحونا الأطفال لنجدنا -الأطفال - بعيدين حتى ظننا أنه لا لقيا، عزَّل الصديق وعائلته ولم نعد نسمع عنهما إلا لمامًا عند صدفة عبرت أو حكاية من رفيق مشترك أو تأسف حار من والدي على عِشرة العمر، وبعض الحكايا التي نحتفظ بها للدفاع عن أصالتنا في الحَفاظ على الصداقة، ثم جاء جيران جدد ورفاق جدد، وأصدقاء جدد، وقدامى صار الجدد وبعيدين صرنا.

ركبنا السيارة الواحدة وأمي تضعني جانبها وتسند رأسي عند التقاء صدرها بذراعها تنظر لعيني المغلقة وتطلب مني أن أفتحها مُلحة وحزينة وداعية على جار في الشارع، كنا نلعب قبيل السفر لعبة ((الدبور)) حين يلف الخيط على الدبور الخشبي المنتهي بمسمار حديدي ثم يلقيه بأداء معين على الأرض ممسكًا الخيطين حوله بمجرد نزوله إلى الأرض فيدور الدبور ويلف ونحن نتابعه بلهفة وحماس وخاصة بعد فشل مقيم لي - أنا ابن الخامسة - في اللعبة، بينما تحلق الأطفال حوله، يرمي بدبور فإذا به في عيني، وينفلت كل

شيء ويتبدد الصحب وتنهار الصحبة وأبقى وحيدًا باكيًا صارخًا ممسكًا بكفي عيني، وتتدافع أجساد نحوي تأخذني إلى أمي وأخوالي، وأهلي يحيطون بي، وترفعني أيدٍ إلى كتف وتسير مسرعة لاهثة، خادمة قديمة سوداء عجوز ظلت تخدمُ في بيتنا سنين طويلة، ثم تغيب لتعود فجأة عند حاجة ماسة لها، وكانت إذا التقت بي صدفة تحييني وتسلم عليَّ وتهم بتقبيل كفي وتسأل عن صحتي وتدعو بأن يرزقني الله عروسًا وتقول كلمة ((يا سيدي)) بأداء حار مخلص غريب، هي التي رفعتني يومها على كتفها ومضت بي والجميع يجري خلفها إلى مستشفى بعيد وأربطة ما في عيني ودموع غزيرة وربنا ستر.

- أليس كذلك يا حبيبي؟

تقول أمي عند إخبارها لصديقتها المسافرة بكل الحكاية، وتطلب مني مرة عاشرة أن أفتح عيني المغلقة لأنظر الحقول حولنا والسيارات المارقة ولافتات المدن واقترابنا من الإسكندرية، ثم إلى حيث أبي.

وأقيم عيني، أفرج برموشي عن جفوني فإذا نافذة السيارة الخلفية أراها ضبابية غاربة، وجدتي وأخوالي ورفاق يجرون خلفها، وأرفع يدي إليهم فيشفطني هواء قاري كاسح ويرفعني إلى العبور من النافذة إليهم فيأخذونني ويطيرون، وأرى السيارة تحتي وحدها تسير وأمي فيها فأبكي ليعودوا بي إليها، إلى إخوتي وسفر لأبي.

- يعني لا تريدنا؟

يقولون فأبكي عيني الضعيفة، وكف أمي تهزني تعطيني فطيرة غذاء، وشربة من زجاجة بلاستيكية:

- اشرب يا حبيبي.

وأفيق على صحراء محيطة واتساع رهيب لرمال قاحلة وخضرة نحيلة مقسومة الظهر وسط هذا الفراغ الذي أراه لأول مرة في حياتي، ما كنت أظنه أبدًا، هل الحياة تحتوي فراغًا إلى هذا الحد، لا أهل ولا بيوت ولا زرع ولا شيء، لا شارع نلعب فيه مع أصدقائي ولا أشجار نجري تحتها ولا شجرة توت في بيت أحد الرفاق نقطف ثمراتها السوداء والحمراء وتلوث أيادينا ونملأ بها طبقًا كبيراً ونأكلها وهي توسخ صدور ملابسنا وأطراف ثيابنا مع لوم أمهاتنا.

ياه، أهذه ما يسمونها الصحراء؟! لم يعد للسؤال سبب.

- ما معنى صحراء يا أمي التي سنسير فيها؟

دون حاجة إلى نظرة الأم المتعاطفة والخائفة، هذه هي الصحراء. يا أنا.

يا أنا...

كانت الوجوه متسائلة قلقة، يحط في السيارة حزن مثل شرنقة دودة القز يغلف السيارة، رغم الوصايا، رغم العنوان المطوي في حقائبنا، إلا أن خوفًا عميقًا يتلبس العيون والأفئدة وحذر من تجربة مفاجئة دفعت الأمهات إلى سُحب مجهولة تمشي بهن إلى أرض صحراء ومسافات شاقة حتى خانة الآلاف، وبُعد عن أهل وافتقاد لعزوة ورجل سائق غريب اتفقوا معه في توكيل سيارات بالقاهرة، جاء إلينا عند البرج ووضعنا الحقائب واللفائف وركبنا، ودَّعنا الأهل وتصافحت الأيدي وبكت عيون كثيرة، بكت كل العيون وسارت

السيارة تشد مدينتنا من عيوننا وتصدم الأمهات لوحاتٌ معدنية جديدة لأسماء مدن تتجاوز الإسكندرية آخر حدود المعرفة إلى مدينة لا يعرفن فيها أسماء أقارب أو عناوين بالشبه لمعارف، لكن أمي كانت متماسكة الظاهر، تعرف معنى سفر لرزق وتدرك أن هناك (بإذن الله) سينتظرنا الوالد الجميل الذي أعد الشقة وجهز الاحتياجات وضبط الأمور، وستكون أيامًا هانئة رغم بعدنا، وسنعود لنبني بيتًا ونشتري سيارة ونكون مرفهين بما يليق بنا، وربما كانت الصديقة جامدة العينين قلي إلى حد الجفاف، ربما لأن وجهها ينسحب الآن من ذاكرتي إلى النهاية، أذكر فقط ملمسها لي ولابنها ونحن نهبط من السيارة ونلتحم بصحراء موجعة جدًّا وخوف بائن يبدأ في التسرب لكياني حتى أظن أنه لم يخرج. مبنى صغير خشبي حكومي وسط الصحراء منفرد يطل على الطريق الأسفلتي الوحيد، وطلاء أخضر يكسو نصفه وبراميل فارغة أمامه والسائق يخرج منه بجلبابه الأبيض، أما أنا ورفيق طفولتي وابن رحلتنا المشتركة نسير خلف المبنى كما قالت الأمهات، يخلع كلانا بنطاله، أفك أزرة ثلاثة ثم أحرك البنطال والملبس الداخلي الأبيض، أعري مؤخرتي وألتصق بالجدار خائفًا وجلاً مرتعشًا من ظهور مفاجئ لأحد، مرتبكًا يحاول رفيقي طمأنتي ونحن على ذات الوضع والحال، ثم تردد وتسرع وارتداء لثيابي، حين جرى الرفيق ليلحق بأمه والسيارة وتركني وحيدًا إزاء الصحراء، وهذا الخفوت المنتظم للنهار والهواء المشاكس المتزايد القادم من كل الجوانب يلقفني في قرفصتي وأحس أن أجسادًا كثيرة تظهر في جوانب الصحراء وأن ذئبًا(من أين لي بمعرفة الذئاب؟!) سينطلق من زاوية نحوي، أو أن ثعبانًا سيتسلقني في قعودي، فألم بعثرتي وأخشى أن

ألتفت وراء المبنى الخشبي فلا أرى السيارة وأبقى وحيدًا على الأسفلت مرتجفًا، لمحتني أمي قادمًا متعجلاً خائفًا:

- هل هناك شيء يا ابني؟

صعدت إلى السيارة وكانت تعيد إحكام ثيابي عليَّ وتربط بنطالي وتضعني جانبها، وتحضن أختي الصغيرة في صدرها، أما أختي الكبرى فكانت تسأل السائق عما تبقى من المسافات وتطرح أرقامًا من أرقام فهي في السنة الأولى الابتدائية ونابغة، فنخرج بالمحصلة مئات الكيلوات، وتخبرنا أمنا وقد ضيقت عينيها وأمعنت نظراتها وانكسرت بسمتها واستفهمت يدها أنه لم يبق إلا القليل، فإن الكثير قد فات.

السيارة في صحرائها تمضي، صوت أزيز هواء يصفعنا من فتحات النوافذ وذرات تراب ونوَّات حصى دقيق مهذب يصل إلى جبهاتنا، وشيء كالملح يسري في الوجنات ويخط في الجلد آثاره.

والحكايا تتآكل مع الساعات الطويلة التي تتنفس على قلوبنا دقاتها، والنهار ينمحي والضوء ينسحب وثِقل الظلام يفتح حويصلات الحزن في الصدور.

تصعد السيارة تعرجات جبلية، تبدو منحنياتها خطرة تستلزم دعوة أم للسلامة وإمساكًا بكف ابن، وتردد لهاث على فم، واستمهالاً لسائق أن يهدئ من سرعته، والصخور تبدو وحشية في صعود السيارة إلى هذا الطريق الطويل الضيق الذي يلتوي كلما مررنا فوقه، على الجانبين صخور مشقوقة وكتل جبلية تكاد نشعر بها تسقط فوق سقف

السيارة، وعشب صحراوي جاف رغم خضرته الباهتة معشش في فتحات بين الصخور، وأحاول أن أستدير برأسي إلى تحت الجبل فتضع أمي كفها على عيني وتطلب منا ألا ننظر لتحت، كان تحت - هذا - بعيدًا سحيقًا، وكنا علبة صفيح صغيرة تعبث فوق شارب الموت، يتغلغل المشهد بأسره في خلاياي حين أرى السيارة ترتج فوق الجبل ثم تنحرف يمينًا وتوشك على الانهيار يسارًا نحو الحافة القريبة والفراغ القاتل، فقد انخلع إطار السيارة واهتزت السيارة مثل طفل يهوي من فوق درجات سلم إلى أرض مكدسًا بالدماء النازفة وشهقات أمي وصراخ السيدة الصديقة وصياحنا واستفهامنا وتشبث أصابع السائق على المقود وقد انهمر عرقه وغزر ارتعاشه وامتقع لونه وصاح بصوت مكتوم حانق بكلمات مبهمة مدموجة.

تعلق إطار السيارة بصخرة وتوقفت السيارة عند مسافة أقل من سنتيمترات على مبعدة من الحافة، نزل منها السائق وخشيت أمي ملتاعة أن نخرج من الأبواب فتسقط السيارة في هوة الجبل المغروس في الصحراء جهمًا وشرسًا ومنتظرًا لقدومنا من المدينة الصغيرة إلى الدفنة الحزينة، لكن السائق اقترب من نافذة مطلة على جلستنا ونصحنا بالخروج حتى يستطيع استبدال الإطار، ولما ظهرت سيارة أخرى بعد دقائق طويلة ممطوطة كان السائق قد عاد إلى مكانه وألقى بيده السلام للعابر وطمأن قلوبنا أنها دقائق قليلة وننتهي من هذا الجبل.

ومن النافذة القريبة وبانفتاح جفون مكدودة ظننت أنها طيور بيضاء تخرج من الصخور وتطير في السماء مرفرفة حتى تعبر الممر

الأسفلتي المنشق في قلب الجبل وتصل إلى حافته ومفزوعًا كنت من سقوطها إلى الموت لكنها حلقت عاليًا ورفرفت فأطبق صوت الأجنحة الصاعدة على الصمت الجهم.

سمعنا كل ما يمكن أن يُسمع في مذياع السيارة التي كانت يد السائق تديره بين وشوشة مسيطرة إلى وشوشة مؤقتة، والصوت يخفت كلما بعدنا واقتربنا من أرض الغربة، ولما صدح غناء شادية انحفر في حبة قلبي بحزن الأغنية ورنينها الرثائي والتفافها على حجرات القلب انبعاثها في ليالي الْتماس كف تربت على الكتف ودموع تبلل غصة الكآبة العصبية وتعصر بكائي ثم تجفف بمنشفة الأحبة ما ارتسم من الألم.

اهتزت رأس أمي وترقرق دمع الصديقة وانفلتت الأغنية إلى ضميري، ها هو نداء الأغنية البعيدة التي تجر مع تكرارها أمسي وماضيَّ وحزني:

خدني معاك يا اللي إنت مسافر خدني معاك

آه آه

عند الحبايب

خدني معاك عند اللي غايب

وحياتك يا ماشي

عدي ولا تنساشي

حبيبي راح ولا جاشي

**من سنين وأنا صابره**

**على الحنين مش قادره**

**ولأجل خاطره مسافره**

**وحياتك يا جارنا**

**يا مسافر لقمرنا**

**من يوم فراقه ديارنا**

**غابت لبعده القمره**

**بكيت عليه الشجره**

**سألت عليه كم مره**

**والله إن قلت أعدي**

**سبع بحور لأعدي**

**حتى إن تعبت ما أهدي**

**عدي وخدني معاك**

**خدني لحبيبي هناك**

**لم تكن الكلمات معروفة لأذني ولا مفهومة لقلبي، لكن شتات الكلمات التم في الذكرى بمرور سنين وعبور زمن، وبقي ذات النبض المرتعش للصوت المغني وذات الوشوشة العالقة بالغناء من مذياع سيارة مبتعدًا عن بث الوطن لأهل الوطن، وكانت الأغنية تمسح الصحراء بدموعها ودموع أمي، وكانت الموسيقى ترش على الأرض**

ملح الهزائم، في الليل سمت الحقيقة أشعة ضئيلة المعنى ترسلها مصابيح السيارة وعتمة غارقة في الوجود وعيون أطفال تسافر لأول مرة، وأمهات حملن خروجهن من الدار إلى النار، وسائق بدون إطار سيارة احتياطي وحبيبي راح.. ولا جاشي، غمس السائق قلقه في حكاية الرجال الذين يهربون عن طريق السلك ويعبرون الحدود دون بطاقات هوية أو جوازات سفر ويعملون هناك حتى تضبطهم إدارة أو تفضحهم مشاجرة وإفشاء للسر، أظنني لم أنسَ أبدًا مشهدًا ملحًّا لرجال يمسكون بأكفهم معلقين بسلك مثل سلك الكهرباء مفرود بين الأعمدة ويحركون أصابعهم لاهثين وأجسادهم تتدلى مهتزة وجسدهم يمتعض بالعرق، وحينما التقينا بقريب لنا هناك من رجال السلك دهشت لقصر قامته وكيف وصل إلى السلك العالي، واحترمت فيه قوة عضلاته وصبر إرادته، تتداخل صورة السلك لا تريد أن تفنى أبدًا فقط معها بعض العقلانية التي تسمح بأن أسلاك الحدود الشائكة كانت المقصودة، واحترت لماذا لم أسأل أو أستفسر أي سلك هذا وأي رجال كانوا يصورونهم مشردين مبهمين خائفين أو قاتلين.

كانت البوابة كبيرة خضراء أو صفراء حديدية، طويلة جدًّا مثبتة بين سورين في الضخامة ذاتها وفوقها لوحة كبيرة ولكنها غير لافتة للنظر، ثم.. الصحراء.. فلا شيء تحجزه الجدران التي تنتهي بعد أمتار معدودة ثم تفضي الصحراء ممتدة صفراء صخرية شاسعة، والبوابة بحديدها الغليظ ونقشها القديم وأنين حركتها البطيئة تؤدي وراءها إلى صحراء أخرى، أو الصحراء نفسها المقسومة.. هنا الحدود، هؤلاء الواقفون عند أكشاك صغيرة متناثرة وراء البوابة بنصف

كيلومتر تقريبًا هم رجال الجمارك، وصفوف طويلة من السيارات المزدحمة واقفة في انتظار التفتيش والعبور، والحقائب كثيرة موضوعة فوق الشبكات الحديدية المنصوبة فوق أسطح السيارات، الحقائب مستقيمة مثبتة مستقرة فوق سيارات ومهتزة مائلة فوق أخرى، والسيارات ملتصقة وراء بعضها والأبواب مفتوحة لمزيد من التنفس الحر، والأطفال

بدأوا يتسللون إلى الأرض للعب والأمهات يُخرجن أقدامهن المتعبة لإراحتها على الأسفلت الضيق، وبعض الخادمات يحملن أطفالًا صغارًا على أذرعهن ويقضين بهم وقتًا، والرجال يتحلقون في دوائر صغيرة غير منتظمة تسقط لحوار وتوقع لسؤال وفتح لجسور عن عناوين الذهاب ومحلات الإقامة وتداخل لأصوات منبعثة من موجات مختلفة ضبط عليها مؤشر مذياع كل سيارة، ولكنها كلها على إذاعات مصر وغنائها، والسائقون يعرفون بعضهم ويقضون أمورًا ويشقون طرقًا ويصافحون ناسًا ويسألون عن أسماء ويجيبون عن أسماء، ومعظمهم يرتدي جلاليب بيضاء والآخرون يلبسون بِدلًا زرقاء.

وحين تتحرك سيارة في مقدمة الصف تدور أصابع في مفاتيح ويضع ناس أجسادهم في سيارات وتغلق أبواب وتصدر السيارات صوتها الأليف الضجيج ويبقى آباء ورجال خارج السيارات لأن المسافة جد قصيرة وسيأخذونها سيراً، لكن الأطفال لا يفهمون ولا يعرفون فينطلق صراخهم ينادون الأب أو الأخ ملتاعين رغم تهدئة الأم أو ضحك الأخت الكبرى على غباء الصغار، فيجري أب لنافذة ابنه يلمس خده ويداعب أذنه ويطمئنه أنه يسير معه وأنه لن يتركه أبدًا.

تسري شائعة في الصفوف تثبت أنهم يجمعون الطعام كله، ما أحضرناه وجلبناه من الوطن، منعًا للكوليرا، وتغضب الأمهات وتعلن الزوجات رفضهن المطلق الحاسم والفاصل لتسليم الطعام، وتبدأ الحوارات بين النوافذ، وينفعلن فيخرجن إلى سيارات أخرى، ويقفن أمام النوافذ بأنفسهن ويمسك الأطفال بأطراف ملابسهن:

- طيب والأطفال من أين يأكلون؟

وتتذمر عائلة أحضرت طعامًا وفيراً ولحومًا كثيرة وأكلات مطبوخة وملوخية ناشفة وبامية معدة، يقترح البعض أن يوزع طعامه على بقية السيارات والمسافرين الكثر ليأكلوه بدلًا من الحرق، لكن الاقتراح غير عملي؛ فالجميع أحضر طعامًا وأولى بهم أكل طعام أمهاتهم وأسرهم من طعام الغرباء، وتسمع واحدة كلمة حرق فتصعق:

- يا نهار أسود.. يحرقون الطعام؟!

- منعًا للكوليرا.. حقهم.

- حقهم! لينكسر حُقهم.

أمي حزينة كما خُلق الحزن تامًّا في ليلة القدر (أو قبلها)،هذا الطعام الذي استغرقت العائلة كلها في طبخه إحكام كل المنافذ حتى لا تفسده الرحلة لأجل الوصول إلى الثلاجة أخيراً، وهذه الروائح التي انبعثت من بيتنا وحفاوة تجهيز الطعام في علب وصَوان وغلقه بأكياس بلاستيك وورق، وتوصيات ذوي الخبرة، وهذا الانتّظار الأثير كي يأكل أبي مما صنعنا له، كل هذا سيضيع، ودموع كثيرة شاركت دموع صديقتها وجيران السيارات.

ارتفع لهب في جانب الصحراء، لقد بدأوا فعلًا إحراق الطعام، وكان الناس ينسلون إلى مكان الحريق فيضعون أكياسًا كثيرة كبيرة بجوارها مبتعدة عن المساس بالنار، ويعودون إنقاذًا للطعام من أيدي رجال الجمارك وعسكر الحراسة ونار الحريق.

وخرجت من سيارة شابة جميلة زاهية ممسكة بعلبة كبيرة من الكرتون بها كحك مغموس بالسكر الناعم، وتصل إلى كل سيارة فتمد يدها إليهم بكحكة وتقول:

- كحك فرحي لا يمكن يتحرق، والنبي كلوه.

فتبارك لها النسوة والرجال ويتضاحكن ويطلب منها الأطفال كحكًا إضافيًّا، وتنفرج ابتسامة العروس وهي تشير إلى عريسها الذي يسافر معها في رحلة ما بعد أيام الزواج الأولى، فيأتيها بعلبة أخرى وتضحك جدًّا حين تحييها امرأة مسافرة بزغرودة عالية مجلجلة بينما يسأل أحدهم العريس عن قريته ومحافظته واسم مدرسته والمكان الذي سيذهب له في الغربة.

ارتفع لسان الحريق ولهبه وبدا السائق في عودته إلى سيارتنا بعد أن أخذ طعامنا وسلمه هناك.

دارت أمي الدمعة.

وغفوت نائمًا لا أدري ماذا حدث بعد سقوط الدمعة على حجر أمي فقد تحركت السيارة ورأيتنا في ظلمة جديدة. تطالبني أمي باليقظة وهرج خجول في السيارة، فقد وصلنا إلى أبي، ساحة معتمة ونور منطفئ وهواء يستيقظ بعد نعاس وأسوار طويلة وأبواب من الحديد

والصفيح ضخمة كأنها أبواب مخزن كبير أو مصنع مهجور، والسائق يستفهم من أمي العنوان محددًا، والصديقة تتدخل بادعاء دقة مؤكدة، ويتدحرج الأطفال على المقاعد، ويهتز طرب القلوب واتساع العيون على آخره، يستنطق الظلمة العمياء وتعبث أضواء السيارة هنا وهناك فلا يُرى سوى الأسوار والساحة وصمت ملتزم، لكن صيحة أمي تصرخ بالفرحة، أصابعها تشير إلى زاوية ما:

- أهم في انتظارنا ((نعم.. هم)) آه أبوكم يا أولاد!

وتتوقف السيارة ويجري نحونا والدي وصديقه، وتشتبك الكلمات الحارة ويرفعني أبي إلى عنقه ويُقبلني جدًّا ويمسك بأختي فرحًا، ويداعب الصغيرة في دفء رائع وبرقة وحب ووحشة يقول لأمي:

- حمد الله على السلامة.. نورتم.

كان البواب مع العائلة كلها يحمل الحقائب والأشياء إلى الطابق الرابع حيث شقتنا، وكنت الآن وحدي أمسك ((جركل)) من الماء صاعدًا من مدخل البناية إلى درجات السلم مستغربًا المكان ومرتجًّا من الأزمنة الجديدة التي تشق الخاصرة وتحجب الأحبة المألوفين (وليس كل مألوف محبوب، لكن كل محبوب أليف). دمعتي التي سقطت على درج السلم كانت مفتتح غربة طويلة لم تنتهِ، حين صرت أمام باب شقة ظننته بابنا، ولجت فاندهشت من صمتِ الشقة وهدوء الغرف المغلقة، وكنت قد تركتها صخبة وحركة وصياحًا ووجوهًا أعرفها، سرت فيَّ رعشة وداخَلني الفراغ، كانت الأضواء بخيلة والصور المعلقة مبهمة فاقتربت من باب غرفة دفعته فانفتح عن

جماعة من الأجانب ذوي الوجوه الحمراء والشعور الصفراء يجلسون في دائرة على الأرض المفروشة بالسجاد يلعبون الورق، أصابني رعب جم ومفاجأة تدعو للشلل، والتفتوا إلى هذا الطفل المذعور متسائلين بلكنة غريبة، لمحت ورقة الجوكر في يد أحدهم، مفرغة كرسم الشيطان، غريبة كرائحة أساطير الحواديت، تركت ((الجركل)) البلاستيكي الأصفر ناسيًا، وعدوت خارج الشقة أقفز السلالم مترنحًا ومخنوقًا، قابلتني أكف لينة دافئة مست صدري تستمهلني، كانت عينا أبي المنقذتين.

هبط من السيارة.. وسط صيحات العائلة كلها أمام بوابة البيت، وفي الشرفة الطويلة عانق أخوالًا واقفين وابن عمتي وأخي الصغير، وحين وصل لي ارتميت في حضنه.. وكانت المرة الأولى التي أستقبل عودة أبي بدموع ساحقة وارتجاج رجل منهار وتشبث بحضنه، وقد بللت كتفيه وأودعت في صدره الألم.

- مالك يا ابني؟! لا.. هناك شيء.. لا عليك.. لا عليك.

وكانت العائلة كلها مندهشة، والسائق الذي دخل إلى البيت ليغتسل سريعًا ليكمل رحلة العودة قد صدمه حشد كبير وبكاء شاب

ثم مضى كل شيء كما كان منتظرًا.

# ٨

# الموت

# جاء إبراهيم..ليذهب إبراهيم

كل شيء مهيأ للنهايات، طعم البيوت رائحة الشارع، لون الهواء الفاصل بين الجروح، وكنا جميعًا نغفل أنها النهاية، آمنين في جوف الطمأنة، عاكفين على أشيائنا المسافرة في دمنا.

التقيت به خارجًا من ردهة بيتنا نحو باب الخروج، اقتربت منه متعجلًا وعاتبته:

- هل تمشي دون أن تسلم عليَّ؟

وجاء صوته كأنه من خلف حجب، يراني من وراء شراعة نافذة أخرى مطلة على حياتين أولى وأخيرة، صوته اخشوشن وتجاعيده تكاثرت ووجهه الحاسم المستقيم الأبيض بخمرية الجبهة وبنية الذراعين، أسنانه الصناعية المنتظمة وشموخه المدهش بقامته المديدة وغضون هذا الجسد العسكري القديم وشعره الناعم الخفيف الأبيض تداريه قلنسوة الحجاج، ينفي نسيانه لي:

- أبدًا... أبدًا.

ثم يخطو برجليه بطيئًا - هذه المرة - وخلفه أبي - كالعادة - يودعه حتى الباب:

- مع السلامة يا عم الحاج.

وكنت خلفهما ألقي تحيتي قبل الرجوع:

- مع السلامة يا جدي حجاج.

ومع ذلك لم يكن جدي، وعيت على موت جديَّ لوالديَّ، لم يتبق منهما في ذاكرتي أي شيء؛ فوالد أمي مات قبل أن أولد، وجدي لأبي - مَن سميت على اسمه - مات بعد ستة أشهر من ولادتي، وكان أول ما وضعوني على حجره أدرك ارتحاله، فقد جاء إبراهيم ليذهب إبراهيم، ولم يتبق منهما سوى الصور وشارات الحداد والذكريات التي باتت بعد فترة مكررة محفوظة رغم دفئها وحرارة الحكاية المستولدة من حشا الالتهاء، والملامح - في ذهني - ليست سوى الصور المثبتة تحمل بدورها ذات الخطوط على جبهة أبي ونفس تربيعة وجه أمي وقبعة جدي العسكرية، الصورة ذاتها يعلقها جدي حجاج لنفسه أيام رفقته في الجيش لجدي لأمي، كانا معًا ضباط صف والقبعات العسكرية والحزم البادي والغربة عن البيوت أيامًا ثم عودة جدي ذات مرة - أخيرة - في سيارة جيب عسكرية مهرولة توقفت أمام الباب الخشبي الصغير وأصاب الشارع فزع خاص، خرجت على أثره أردية الجنود من السيارة تقرع الباب وتدخل جهمة مقطبة، وعرفوا كلهم أن جدي مات، وانطلقت صرخات مشروخة وولولة ونحيب

كاسر والتحام في الأجساد المتكالبة وسعي نحو معرفة الأقارب في القرية ووجه أمي بصباه الغامر وشبابه الألق تغطيه الدموع فيحمر خداها فوق بياض يدفع الحمرة للتألق، وأنفها مبلول بالبكاء، وعيناها احمرتا وأدمتا، وجسدها خار، وصوتها غار ونطقها بطؤ، وتمر أصابعها في المسافات المزدحمة باحثة عن وجه أبيها المسافر، وتلفظ كبرياءها العالي منهارة وهي تلثم طرف كتفه العارية المسجاة المنداة بالغسل، وأغرق السواد المكان، كطيف يظهر ملتمعًا في اكتحاله، ثم يغرس وجوده في الكائنات كلها، وصديق مشواره وسفر رحلته المنتظمة ورفيق سلاحه العم حجاج يأخذ بالأيدي ويشد العزم، ويتقبل العزاء ويتمم على إجراءات الدفن، ويسلم على الصحاب ويحتد على أبناء الفقيد أن يصبحوا رجالًا ويكفوا عن العويل، وتخفض أمي رأسها وهي تتذكر مع العم حجاج في شرفة منزلنا صباح الجمعة قبل الصلاة، حيث يأتي لنا دائمًا كعادة لم تنقطع حتى قبيل وفاته وبعيد سفر أبي، حضوره المشمس في صباح الجمعة يضع المقعد في اتجاه الهواء القادم واضعًا - في الشتاء - كوفية خضراء حول رقبته وقبعة صوفية محكمة التطريز، ويمسك بصحيفة ((الأهرام)) التي يعطيها إياه أبي بمجرد جلوسه بعد أن ينادينا:

- أين ((الأهرام)) لجدكم حجاج يا أولاد؟

ثم نقدم له كوب الشاي الكبير الساخن، يركنه على إفريز الشرفة ويملي عينيه بالصحيفة، ويتساءل حول حقيقة الأخبار والسياسة ويشكك في أية تصريحات اقتصادية ويحلق في الشارع الطويل الذي كان - ولا يزال - يملك نصف بيوته، فرغ جدي حجاج منذ زمن طويل

من الجيش وأعبائه لغنى عائلته، قيض له أرضًا ومالًا جعلته عمدة وسيدًا في هذه المنطقة التي نحيا فيها منذ أربعين عامًا فقد امتلك نصف بيوت الشارع كله حيث كنا نعبر أنا وأمي في اتجاهنا لمشوار ما، فتشير لي على بيت صار الآن بناية ضخمة وتقول:

- هذا البيت بيت جدك حجاج، الأرض أرضه وكان يؤجر لأصحابه المنزل باثنين جنيه، الآن صاروا أغنياء بعد عودة ابنهم من السعودية، عرضوا على جدك شراء البيت فاشتروه.

جدي حجاج كان يشعر أن الأرض تنسحب من تحت قدميه حين كثر المال في الأيدي واستحوذ الجميع على البيوت بوضع يدهم وتوقفهم أحيانًا عن دفع الإيجار، وفي أحيان أخرى كانوا ينفذون بالبيت ما يرونه دون استشارته، ولما حاول أن يلجأ للقضاء لم ينصفه من تعطل الخطوات وتعثر الملفات وتشابك الشهود، فأعلن شكه في القضاء كله، وصار كلامه خليطًا من لعن الزمن الذي جعل الأنصاف تقوم (يقصد أنصاف الطوب) والقوالب تنام، وتمر نظراته كسيرة حزينة على بيوته تتجاوز العشرة في الشارع فإذا بها كلها لم تعد ملكه عمليًّا، ويسأل ساعتها عن رحيل أولاده، أبناء جدي حجاج كثيرون ويسري فيهم الخير، فقد ارتحل معظمهم إلى دول عربية واستقروا سنين طويلة جسرهم الوحيد كان الصور والخطابات وإجازات آخر العام وزيارة أطفالهم إليه بعد الامتحانات، وكان كثير الكلام عنهم مذكرًا بتفاصيلهم، مجيبًا على أسئلة أمي عن أحوالهم، فهم أصدقاء حتى القرابة، مختلطون بدمنا جميعًا، الكبار مع الكبار والأجيال التالية كلها تشربت المودة والحب والسفر.

امتص السفر رحيق كل شيء وأخذ من دمنا أكياسًا من التبسط والراحة وأغفل إعادتها، لكن بقي جدي حجاج حاكيًا عن أبنائه المسافرين وعن أبنائه المتزوجين وعن أحوالهم، وكانت البيوت الطينية الأخرى التي امتلكها تسقط تحت أثر الزمن، فدفعه رخاء الحال إلى دعوة الأولاد للبناء فبرُّوا جميعًا وبنوا وعادت عمارات جدي حجاج إلى الوجود الضاحك الثري، وأسكن الأولاد كلهم طوابق في العمارات الحديثة، لكنهم بذلوا جهدًا خرافيًّا كي يخرج من بيت العائلة القديم، هذا المنزل الواسع الرحب ينتهي بـ ((طلمبة)) ماء غريبة حولها أسوار حجرية تقودنا إلى حديقة خضرة طازجة وسلالم مؤدية إلى سطح وخفوت وعتمة ملقاة على الحجرات والردهات، ولا شيء يبين سوى أطراف الأثاث وأطر الصور الفوتوغرافية (صورة جدي في لباسه العسكري واللون باهت سحيق)، الطريق سالكة للاكتئاب وأنا أعدو في الصالة نحوه قادمًا من الحديقة أخبره عن حاجة لمال عاجل حتى يعود أبي من العمل أو لاستكمال مبلغ كبير مطلوب، وعمره ما قال لا أبدًا جدي حجاج، المنقذ من أية أزمة ترى لنفسها أن تلوح أمامنا، كان أول شيء ينهض برأسه أمام الأزمة هي ذات الجملة ((روح لجدك حجاج بسرعة)) .

والطريق إليه عبورًا في هرولة لدقائق لا تعد ولا تحسب ثم الدخول إلى عتبة الباب والعتمة الخافتة النابعة من الداخل وظهور زوجته المسنة التي أهتف لها ((نينة)) تشير لي على مكانه في مدخل الحديقة أصافحه بكفي الصغيرة وأصل إليه برسالتي خافتة دون أي خجل.

يتركني ويلج إلى غرفة معتمة أيضًا، بعض الأضواء الناحلة منقطعة المصدر تترك بصماتها على الأبواب، ثم يخرج بورقه النقدي ويدسه في يدي فأعدو إلى أمي، حتى عندما نجح أولاده في إقناعه بترك البيت القديم، حيث تمنَّع ورفض وشاركته زوجته حوارات طويلة وصخب، كيف لهما أن يخرجا بعد عمر طويل جدًّا من البيت؟

كيف لأكفهم وطيات جذوعهم وآثار أقدامهم أن تتعلم حبًّا جديدًا وتتعود إحساسًا طازجًا؟ وأعد الأبناء الطابق الأول في عمارة قريبة للبيت القديم وجهزوه ثم انتظروا الاقتناع، وبعد لَأْي وزمن، جاء جدي إلى شرفة صباح الجمعة وتناول الشاي الساخن وحرك قدمه يمينًا في جلسته المستريحة وابتسم في ضحكة منتظمة فيها روح الهمهمة وطوى الصحيفة ثم اشتكى من غم عائلي، يقابل بابتسامة وضحكة أبي كيف لهذه العشرة الطويلة أن تُعكر بمشاجرة بعد كل هؤلاء الأبناء وهذه الأعمار؟ لكن غضبهما - ساعات - كان يمتد إلى الهجر وتجنب الحديث والمفارقة في الطعام، أباح جدي أخيراً فيما يشبه خجل التراجع أنه انتقل إلى البيت الجديد وحتى في البيت الجديد كانت ذات العتمة الخفيفة والروائح القديمة البائنة وهو يدخل من رصيف الشارع حيث يجلس دائمًا (ولا بد) على مقعد خشبي بمنشته على حجره ورجلًا فوق رجل تحت جلبابه الأبيض وتمعنه في الوجوه وتأمل في الحيَاة ورد تحيَات وتلويح بكف في جلسة اشتهر بها وأحببتها جدًّا حين كنت أمر عليه وألقي التحية فيرد طبيعيًّا حتى يستفيق إلى أنه أنا فيلهج بالتحية ويؤكد عليها ويبث فيها حرارته.

نفس الحرارة التي كنت أراه فيها داخلًا إلى ردهة منزلنا في دعوتنا

له على الإفطار في رمضان كعادتنا كل عام حتى سافر أبي وغاب عن رمضاننا، فانسحبت الدعوات وجلة، رحبًا وصافيًا عميقًا في قدومه نحو المائدة، وجلوسه في مكان الصدارة، مداعبة أبي له وإمعانه في الحب وأمي تسأله عن مشروب يفضله بين مشروبين وأختي تطلب منه رأيه في طعام طهته بنفسها وأمي تضع قِطَع اللحم والفراخ والحمام كلها في طبقه فيفزع من كثرة منابه، فيَلح أبي على أن يأكله كله فيطلب ألا يأكل إذن سوى اللحم، فنضحك وقيامه عن المائدة وهو شاكر مادح للطعام وأهله - هذا خير قوي، حلو قوي، حاجة عظيمة خالص.

وكان دائمًا يعلن على الملأ أنه لا يفضل سوى طعام أمي ولا يحب سوى أكلها، وكانت بمثابة ابنته الكبرى شقيقة ابنه الكبير الذي حين يزورنا مع عائلته الجميلة يتبادل مع أبي وأمي ذكريات قديمة، ثم يخص أمي (أخته) بالذكريات البعيدة وسط ضحك واستغراق وتحركات الأطفال وصبية يعدون أمامهم كأنه قفز الزمن وسعي الأيام اللاهث واللاهثة، يوم دخل علينا جدي حجاج ونحن نجيب على هاتف أبي من غربته كانت فرحة مزدهرة مزغردة فينا جميعًا، حيث تناول الهاتف وتحدث فيما فاض علينا دموعًا، كانت الكلمات قليلة وناسة لاهثة ومعبرة متكررة وعذبة وكان سؤاله دومًا عن حال أبي وما فعل وما حصل ولقائه الخاص به حين عودته حفاوة الأكتاف بالأكتاف والعناق الدافئ الممتلئ والضرب الوديع على الظهرين، غياب وجه أبي في عنقه ودخولهما إلى الحديقة يرعيان أخبارهما وحكايتهما النبيلة، جدي شاهد على غربتَيْ أبي عشرة أعوام وأكثر

مرت منذ غربته الأولى، وحين سافر أبي مرة أخرى كان يخشى في كل مرة أن يرجع فإذا بجدي حجاج قد انسحب من الوجود، وكانت أمي حين يشتد مرض على جدي، تضع كفها على قلبها مخافة أن تحدث كارثة الوفاة وأبي بعيد، لا أحد يعرف ماذا سيحل به لو جاء الخبر في هاتف أو خطاب، لكن إخلاصهما للصداقة والبنوة المدهشة جعلت وفاته أثناء وجود أبي، بل وفي الأيام التي عاد فيها كل أبنائه من الخارج، وحين اكتملت الأسرة كلها.. مات.

كان مندهشًا مستغربًا من هذه الحقيبة التي أحضرتها أختي أول دراستها بالطب وضعتها تحت السرير، ثم كانت قصة فادحة في البيت كله انتشرت أطرافها ورذاذها في مواقع العائلة، أختي جلبت رَجلًا إلى البيت، رَجلًا ميتًا، عظام الرميم لشؤون دراستها، لا حول ولا قوة إلا بالله، خاف البعض وضحك البعض، لكن جدي حجاج - لمحًا وخطفًا - كان غاضبًا، الإحساس بأن النهاية يجوز أن تُلقى في كيس بلاستيك كبير داخل علبة كرتونية أمر مفزع، وبناء جسر من التواصل مع هذا الميت على اعتبار أن له أهلًا وعائلة وبشرًا يسألون عنه ويقرأون لدى قبره الفاتحة، جعله يغضب ويشيح بوجهه لحظة تذكارنا لهذه القصة، وربما شاركه أبي نفس المشاعر فقد قرأ للعظام الفاتحة وآثر ألا يراها ورَنَت في عينيه نظرات أسى وفَقْد وشعور بوهن النفس وهوان الدنيا.

وتلك ذات النظرات التي تضخمت وملأت وجود الهواء لما رأيت جدي حجاج للمرة الأخيرة، هذا الشحوب الرهيف، الانسحاب الآمن، السكون المتفجر، النظرة المتأملة الشاردة، الغربة عن المكان،

توهة العقل وذهاب الذهن إلى مخلوقات أخرى، وهذا البطء في المسير المتمهل في الأنفاس، الارتجاف في الرموش، الاهتزاز الدقيق في الأصابع حول الكوب، الغرق في الصمت، وضع الكف على الفخذ والحكي من أشياء مُضغت حكايا، ولما جلس مع أمي تنقي الأرز في مربع تحت شمس الجنينة ألقى الصحيفة جانبًا (أو ربما لم تكن موجودة)، وتوجعت أوراق الشجر أمامه، واندلقت زهور الليمون على الأرض الطينية واندهست تحت الأقدام، قال لأمي، حكى لها كيف يشعر بهذا الألم العاصر لأمعائه، كيف تسير مناشير ذات أسنة حادة قاسية وتقطع أمعاءه، تهرس رجولته وتدغدغ بطنه ويصبح ألماً لا يطاق يفجر جسده الكبير.

- خلاص عجّزنا وراح العمر والعافية.

- لا تقل هذا يا عم حجاج ربنا سيعدلها بإذن الله وسترجع لصحتك إلهي يا كريم.

وترفع يدها إلى السماء فيرفع نظراته مع حركة يدها، لكنه يثبت عند عينها ويستند بمرفقه على مقدمة فخذه ويقول لها:

- عارفة من أين جئت الآن؟

في لهفة:

- خير ياعم الحاج!

يهز رأسه في تردد وحزن مفترس:

- من المقابر.

تضرب أمي صدرها:

- خير!

كان الوقت يداعب الصباح لعله يبين كاملًا، وأضواء النهار محبوسة وروائح المقابر المغسولة بالفناء وهذا الصفار العجيب الذي يحتشد في كل الأسوار والأبنية، اقترب جدي حجاج من التربي وسارا معًا في خطوات وئيدة متوجعة حتى باب المقبرة التي بناها للعائلة منذ عشرين عامًا، طلب منه أن يفتح بوابتها الحديدية الصغيرة ثم يزيح الطوب عنها والأتربة (مقهورة بندى الصبح)، والرجل يعمل في حماس وهمة المجاملة يبعده جدي عن باب المقبرة، ثم يدلف إليها وحده، المكان معتم وقاتم والهواء شحيح وثقيل، والزوايا بعيدة والسقف قصير القامة واطئ حتى الانحناء، كان التربي قد لحق به فأمره في لهجة حازمة أن يفرش الثرى الأصفر الناعم على مكان نوم الجثمان، انحنى الرجل وأخذ يضرب بكفه وأصابعه الغليظة على التراب حتى سواه وجعله وسادة منسابة، ألح عليه جدي أن يخرج ثم تجول بنظراته في أرجاء المقبرة، مد أصابعه وخلع حذاءه، وضعه إلى زاوية هناك، ثم عاد فاقترب من الثرى المفروش، نزل بركبتيه ثم استند بكفيه ثم فرد قامته نائمًا على الثرى موجهًا رأسه للقبلة بعدما ارتبك بحثًا عن استقرار لتوجهه، وضع ذراعيه جانبه ونظر في السقف وتنفس في هدوء وانتظام واطمأن على أنه هكذا سينام حين موته، عندما حاول النهوض كان جسده مخدرًا وقلبه مكتئبًا وصدره مزدحمًا بالحزن وعيناه غائمتين تمامًا عن الرؤية وأصابعه مرتجفة وكتفاه متدليتين، وهذا الجبروت العظيم والحنان الفيضاني قد رق ونحل واخترقه نصل

المرض يمخر بطنه، هبط إليه فجأة التربي وأمسك بيده فاستند على كتفه وصعد من المقبرة حيث شم هواء مفتوحًا والشمس كانت قد بانت، وتوجه ينفض عنه التراب خارج المقابر، وصورة المقبرة: النومة والرقدة وارتجاف القلب، صورة وحيدة تحتل عينيه.

ها هو الموت، أخيراً يخرج من كتبي والقصص المؤلفة والأحزان الهزيلة ويقفز من حالق السماء إلى رأسي، مواجهتي الأولى معه، لم ينزع أحدًا من شرفة منزلنا أبدًا، كل ما جرى سابقًا، كان محض التهابات في القلب الصغير سرعان ما يمضي فوقها مرهم للحريق والتسلخات فتنتهي، لكن - الآن - يأتيني حتى شرفة المنزل، أخذ جدي حجاج ثم جلس مكانه على المقعد الخشبي وألقى بجريدة ((الأهرام)) وتمطى وضحك وضرب ظهري بكفه:

- ها يا حلو ماذا ستفعل؟ لماذا لم تبكِ يا نذل؟

ثم يمسك كوب الشاي ويمضغ زجاجة، كم صوروا الموت وديعًا وآمنًا مثلنا لكنه ليس كذلك، أليس كذلك؟!

خطفوا آخر ما تبقى من فرح مقاوم داخل صدري، لم نعد إلا حزانى من السفر أو الموت أو الانكسار العاطفي في ميدان التحرير، تركنا جدي حجاج الأثر الوحيد الباقي على أن هناك شيئًا يمكن أن يبقى، مات، والغريب أنني تلقيت هاتفًا يقول خالي فيه:

- تماسك.. جدك حجاج تعيش أنت.

لم تهتز السماعة في يدي ولم أبكِ ولم ترتجف عيناي ولم أصمت، ولم أتوقف عن الكلام والمناقشَات في المجلة، ولم أقل

لأحد إن جدي حجاج مات، هل يعرفونه؟

هل سيُقدرون؟ هل يفهمون؟ ولكن زلزالًا كان يطيح بكل شيء، كل شيء، كان يحطم الجدران والحوائط والمقاعد والمكاتب والرياح والشوارع والنباتات والوجوه، وكان كل شيء سافلًا وابن كلب لأنه يحيا بعد جدي حجاج، وكرهت الدنيا كما لم أكرهها من قبل، هذه السهولة التي يفر بها جدي من الحياة، هذه البساطة في الكلمات، مات، هذا الهدوء الظاهري الذي أصافح به الأصدقاء، كيف نحيا بعد أن يموت الآخرون؟ كيف نستمر بينما توقفوا، سكتوا.. انتهوا؟ ولهث فؤادي وانكببت على جروحي المفتوحة تتفسخ ويلقى فيها الحامض الكاوي، وسيارة أجرة تنقلني إلى مدينتي، وأدخل البيت وأسلم وأتلقى حضور أمي بجلبابها الأسود وعينيها الباكيتين من عند بيت جدي حجاج، وأبي مكث طويلًا يجفف دموعه، وأخواتي انهرن، وأخوالي جاء أحدهم من مدينة مايو بمجرد معرفته بالخبر، وكان أول الهابطين من السيارة المصاحبة للجثمان، وتوافدوا كلهم من بيوتهم ومشاغلهم والتفوا مع أبناء جدي حجاج الذين وفدوا إلى الحزن كافة، تماسك أحدهم يبدو بطوليًّا وهو يسبق حضور الجثمان من القاهرة حيث المستشفى الذي مضى به يومين قبل وفاته، تأكيده على إحضار اللحوم والطعام للعشرات القادمين، وإتمام شراء الخبز والاتفاق مع محل الفراشة والاطمئنان على قدوم أهم المقرئين في المحافظة، انتصاب السرادق للعزاء ضخمًا وواسعًا على الشارع كله والأضواء الباهرة تغمره وتفضح هذا القماش الأحمر القاني المنقوش بالبني الفاتح والأخضر المستور الذي تتكون منه كل السرادقات فيما يشبه

القانون، فناجين القهوة ومقاعد الخشب ذات الأقراص الخضراء المبطنة واسم المحل منقوشًا على ظهرها، نفس فراشة الأفراح، ذات المقاعد! المئات يتوافدون على السرادق للعزاء، الأشَقاء جميعًا يقفون في المقدمة يصافحون منكسي الرؤوس محدقي العيون، وأبي في امتقاع الهزائم، أخوالي في لحظات إثبات الرجولة والقرآن في صوت عالٍ يملأ الشوارع كلها، يعلن أنها آيات رحيل جدي حجاج.

البيت؛ نفس الشقة التي رفض أن يأتي لها قبلًا، أضيئت بأنوار باهتة وافترُشت بمقاعد خشبية، وفي حجرة داخلية كان الباب موصدًا على نساء باكيات بالسواد، وكنا نجلس على المقاعد في الصالة بينما المقرئون الستة الذين يتناوبون تلاوة أجزاء القرآن يجلسون في استرخاء على الأرض في انتظار طعام العشاء في لحظات المغيب، وحين افترُشت أمامهم الأطعمة واللحوم خرجوا بعد دقائق نحو الحوض لغسل الأكف، يقود أحدهم شيخًا كفيفًا وابتسامات خفيفة على الشفاه، آفة التعود تحوم على أحداقهم وفوق جباههم، والجالسون قد انتهوا في ذكرى خميس جدي حجاج، من الحزن الفاضح وتحلق الشيوخ يدخنون السجائر، وقد أغرق حريق الدخان أصابع الشيخ الكفيف فاهتزت يده، وتحركت نحو المطفأة وسقط الدخان في المسافة نحوها.

وكان آخر يسحب من حنجرته صوت التلاوة، وكنت بجوار أبي الذي يهز رأسه مفكرًا في الآيات ثم يميل عليَّ ويسألني مختبراً حفاظي على قدرتي في القواعد النحوية:

- هل تعرف إعراب هذه الكلمة؟

فأبتسم وأعربها، فيهز رأسه في اعتزاز ثم يسلم نفسه للقرآن وتلاوته.

ووجوه أبناء جدي تتبادل أحاديث حول تفاصيل كثيرة، وحين جاء الليل الكئيب ونامت العائلة كلها إلَّاي وأختًا تتابع مذاكرة ما، دق جرس الباب، هرعنا نحوه، كان ابن جدي حجاج الأكبر وأسرته الصغيرة قد جاؤوا لتوديعنا قبل عودتهم إلى القاهرة، ودخلوا جميعًا مرتدين سواد الحداد، وكان أبي قد استيقظ وأمي من النوم وأسرعا إلى الصالة حيث جَلسوا على الأرائك صامتين ثم متكلمين عن الجد والجلال الرهيب بيننا.

وحين مضوا دخلنا جميعًا إلى فراشنا وحين تقلبت على السرير وحدي أدركت - وحدي - كم أنها غريبة الحياة.. وتمنيت أن أموت الآن.. مالي لا أموت الآن؟! وظهر أخوالي وأبناؤهم جميعًا يملأون الغرفة، وحضرت أمي مع أبي إلى السرير، وتشارك أخواتي وأخي الصغير في المساحات الفارغة، وانفتح الباب عن الصالة المعبأة بالوجوه القادمة من القاهرة (قاهرتي).

ثم انتشرت في البيت كله طيور بيضاء وخضراء عصفت بأجنحتها وأصواتها المختلطة، ثم انكشف السقف عن السماء، ثم تحللت الجدران عن الحوائط وأسفرت عن وجودنا في صحراء صفراء شاسعة، ثم غنى صوت عميق بعيد فأخفت الريح صوته لكنه جاء نحيلًا حتى أذني، وسمعتها تهز رأسها بالغناء لكن لم أستبن معالم الأغنية فقد صحوت على وجهها الجميل في وجداني، ثم ظهر صوت أختي جليًّا قادمًا من الصالة، وقد وضعت الإفطار على المائدة تقول

لأمي:

- بالتأكيد سيكتب قصة عن جدي حجاج.

ثم دخلت عليَّ الغرفة وتنادي كأنها تعرف يقظتي:

- أيوه يا خوي ما كل حاجة بتكتبها عندك في روايات!

٢٧مايو ١٩٩١- قويسنا -القاهرة